قال المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر،رحمه الله تعالى،في السيرة الظاهرية:لمل كان
يوم عاشوراء من هذه السنة وجد ما سنذكره، وذلك أنه كان قد رسم بنقض علو أحد
أبواب القصر المسمى بباب البحر قبالة دار الحديث الكاملية، لأجل نقل عمد منه لبعض
العمائر السلطانية، فظهر صندوق في حائط مبني عليه، وللوقت أحضرت الشهود وجماعة
كثيرة وفتح الصندوق. فوجد فيه صورة من نحاس أصفر مفرغ على كرسي شكل
الهرم،ارتفاعه قدر شبر له أربعة أرجل تحمل الكرسي،والصنم جالس عليه متوركا، وله
يدان مرفوعتان ارتفاعا جيدا، يحمل صفيحة يكون دورها قريب الثلاثة أشبار، وفي هذه
الصفيحة أشكال بايتة، الأوسط صورة رأس بغير جسد، وعليه دوائر مكتوب عليها كتابة
بالقبطي بالقلفطريات، وإلى جانبها في الصفيحة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة، وإلى
الجانب الآخر شكل على رأسه صليب، وأخر في يده عكاز وعلى رأسه صليب وتحت
أرجلهما أشكال طيور. وفوق رؤوس الأشكال كتابة كثيرو أكثر من نصف الصفيحة.
وعلى الأشكال كتابة. ووجد مع هذا الصنم في الصندوق لوح من ألواح الصبيان التي
يكتبون فيها في المكاتب مدهون وجهه الواحد أبيض، ووجهه الآخر أحمر، وفيه كتابة قد
تكشط أكثرها من طول المدة وقد بلي اللوح وما بقيت الكتابة تلتم ولا الخط يفهم.
قال: والوجه الأبيض مكتوب بقلم الصفيحة القبطي. وذكر ما ظهر من الكتابة على الوجه
الأحمر وهي ثلاثة عشر سطرا، ذكر ألفاظا غير ملتئمة، إلا أن المفهوم منها على غير التئامه:
" الإسكندر ذو الملك يزجر". وذكر ما ظهر في كل سطر، وأخلى لما تكشط منه مما لا
فائدة في ذكره، والذي شرحه من السطر الثاني عشر ما صورته: "شد أيضا كل أمار أشد
به". قال: وقيل أن هذا اللوح بخط الحاكم خليفة مصر. وأعجب ما فيه اسم السلطان
وهو بيبرس. قال: ولما شاهد السلطان ذلك أمر بقراءته، فعرض على قراء الأقلام، فقرئ،
وهو بالقلم القبطي، ومضمونه طلسم عمل الظاهر بن الحاكم، وفيه أسماء ملائكة وعزائم

ورقي وأسماء روحانية وصور ملائكة، وأكثره حرس للديار المصرية وثغورها وصرف
الأعداء وكفهم عن طروقهم إليها، وابتهال إلى الله بأقسام كثيرة بحماية الديار المصرية،
وصونها من الأعداء، وحفظها من كل طارق ومن جميع الأجناس.
قال: وتضمن هذا الطلسم كتابه بالقلفطريات وأوفاق وصور وخواص لا يعلمها إلا الله
تعالى. وحمل هذا الطلسم إلى السلطان فبقي في ذخائره.
قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: رأيت في كتاب عتيق رث سماه مصنفه: وصية
الإمام العزيز والد الإمام الحاكم لولده المذكور وقد ذكر فيه الطلسمات التي على أبواب
القصر. وقال: إن أول الكواكب الحمل وهو قلب المريخ، وشرف الشمس، وله القوة على
جميع سلطان الفلك، لأنه صاحب السيف، وله الأمر والحرب والسلطان والقوة، والمستولي
لقوة روحانية على مدينتنا عندما بنيناها. وقد أقمنا طلسما لساعته ويومه لقهر الأعداء
وذل المنافقين، في مكان أحكمناه على شرافة عليه والحصن والجامع لقصره مجاور لأول باب
بنيناه. هذا نص ما في الكتاب، والله أعلم.
ذكر توجه السلطان إلى الشام
وفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة: وردت الأخبار بحركة أبغا بن هولاكو ملك التتار، فخرج
السلطان في ليلة السادس والعشرين من المحرم، وصحبته جماعة من أمرائه الخواص، منهم
الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسرى الشمسي، والأمير سيف الدين
أوتامش السعدي. فلما وصل إلى عسقلان بلغه أن أبغا وصل إلى بغداد وقد خرج إلى
الزاب متصيدا، فكتب إلى القاهرة يستدعي العساكر. فخرج منها يوم السبت حادي عشر
صفر أربعة آلاف فارس "مع" مقدميهم: الأمير علاء الدين طيبرس الوزير، والأمير جمال
الدين أقش الرومي، والأمير شمس الدين أقش المعروف بقطليجا، والأمير علم الدين سنجر
طردح. ورحلوا من البركة في يوم الاثنين. ثم قويت الأخبار، وهو في أثناء الطريق بحركة
التتار، فكتب السلطان بخروج العساكر جميعها والعربان من الديار المصرية صحبة بدر

الدين بيليك الخزندار، ورسم بأن جميع من في مملكته ممن له فرس يركب إلى الغزاة، وأن
يخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر حال أهل البلد، ويقومون بكلفتهم.
ودخل السلطان إلى دمشق في سابع عشر صفر. وكان رحيل العساكر من القاهرة في
العشرين من صفر، فوصلوا إلى يافا، وورد المرسوم بنزولهم قريبا منها، وركب السلطان من
دمشق في نحو اربعين فارسا جرائد، ولم ييستصحبوا ركاب دار السلطان ولا غيره. فوصل
وقد طلبت العساكر وقاربوا المنزلة، فاعترضهم السلطان وجماعته وقد ضرب كل منهم
على وجهه لثاما، فظن الحجاب أنهم من التركمان، فرسموا لهم بالترجل فما ترجلوا. وساق
السلطان منفردا وجاء من خلف الصناجق وحسر اللثام عن وجهه، فعرفه السلاح دارية
فأفرجوا له، فدخل وساق بالموكب فنزل الناس وقبلوا الأرض، وساق السلطان ونزل
بدهليزه فرتب المصالح. وأصبح في اليوم الثاني وركب في موكبه، ونزل فقضى حوائج الناس،
وركب عند المساء، هو ومن حضر معه عاد إلى دمشق.
الملك شمس الدين بهادر
صاحب شميصاط وشيء من أخباره
هذا المذكور هو الملك شمس الدين بهادر بن الملك فرج، وأمير الطست للسلطان جلال
الدين خوارزم شاه منكربرتي، وكان والده قد ملك بعد السلطان جلال الدين قلعة كيران
وست قلاع
أخرى في ناحية نقجوان. ووصل إلى بلاد الروم فأقطع أقصرا، فكاتب شمس الدين هذا
السلطان وراسله، وتقرب إليه بإعلامه بحقيقة أخبار العدو، وذلك في سنة إحدى وسبعين
وستمائة. واتفق السلطان معه على نكته غريبة قتل بسببها الجاثليق النصراني، وكان قد
أهان المسلمين ببغداد وسكن بواطن الخلافة وأفسد أمور المسلمين. فكتب السلطان كتابا
إلى الجاثليق مضمونه: عرفنا محبتك وتوصيتك على النصارى الذين ببلادنا، وقد أكرمناهم
لأجلك وعرفنا أخبار المغل الباطنة التي أشرت إليها.؟ وذكر في الكتاب أمورا موهمة لا
أصل لها، منها: الذي التمسته لمن أشرت قد أجبنا إليه، وتسليم الأمكنة لمن عينت قد

حلفنا على تسليمها، والدواء الذي تقرر السعي في استعماله لمن أشرت إليه قد علم، والله
يقدر ذلك، والذي طلبته من دهن البلسان والآثار المسيحية قد سيرناها، وسيرنا قطعة من
صليب الصلبوت، وسيرنا ذلك إلى الرحبة، وعرفنا النائب بها الأمارة التي قررت. فأرسل
من تثق إليه الأمارة ليستلم ذلك. وسير السلطان هذا الملطف إلى النائب بالبيرة، ورسم له
أن يجهزه صحبة أرسنى يوصله إلى الجاثليق، وأنه إذا جهزه يرسل إلى الملك شمس الدين
بهادر يعرفه بخبره وحليته.ففعل ذلك، وأرسل بهادر من أمسك هذا القاصد وسير به إلى
أبغا. فلما وقف أبغا على الملطف كان فيه هلاك الجاثليق، وتقرب شمس الدين بهادر إلى
السلطان بأشياء كثيرة مثل ذلك، فشعر التتار به فأمسكوه وتوجهوا به إلى الأردو، وهربت
حاشيته ومماليكه، فوصلوا إلى باب السلطان وهم يزيدون على ألفي نفر من مماليك وأجناد
وغيرهم، فأحسن إليهم ورتب لهم الرواتب. وأما الملك شمس الدين بهادر فإنه هرب ونجا
بنفسه ووصل البيرة فتلقاه أهلها، وسير إلى السلطان، وذكر أنه أقام سبعة أيام لم يأكل
شيئا. ولما وصل تلقاه السلطان وأكمه وأعطاه الإقطاعات بالديار المصرية وأحسن إليه.

ذكر الظفر بملك الكرج

وفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة: ظفر السلطان بملك الكرج. وذلك أنه حضر لزيارة بيت
المقدس، فاتصل ذلك بالسلطان، فأرسل من يعرف حريته فامسك هو وثلاثة نفر من أعيان
الكرج من بين الزوار، وسير "وا" إلى السلطان وهو بدمشق فطيب قلوبهم، وعرفهم أنه
متيقظ لمن يدخل إلى بلاده، واحترز عليهم.
ولما سكنت الأخبار عاد السلطان والعساكر فدخل إلى قلعته في رابع عشرين جمادى
الآخرة من هذه السنة.
وفي شعبان من هذه السنة: رسم السلطان بعمارة جسرين قناطر بالقرب من الرملة لعبور
العساكر، فعمرت.
وفيها: في يوم السبت عاشر ذي القعدة حضر متولي القرافة إلى مستنيبه الأمير سيف
الدين أبي بكر بن اسباسلار متولي مصر، وأخبره أن شخصا دخل إلى تربة الملك المعز

وجلس عند القبر يبكي، فسأله من بالمكان عن بكائه، فأخبرهم أنه قاءان بن الملك المعز،
وكان الملك المظفر قد أرسله مع أخيه الملك المنصور إلى بلاد الأشكري كما تقدم، فأحضر
وقيد واعتقل. وطولع السلطان بأمره، فأحضره وسأله عن أمره، فذكر أنه عاد إلى الديار
المصرية منذ ست سنين، وأنه توكل للجند. فطلب منه من يعرفه، فذكر أن رجلا معتقلا
بالإسكندرية كان يتردد إلى بلاد الأشكري، فأمر السلطان بإحضاره واعتقال قائم، فحبس
في حبس اللصوص بمصر، وأجرى عليه بعض مماليك المعز نفقة.
وفيها: أفرج السلطان عن الأمير سيف الدين الجوكندار، وكان له مدة في الاعتقال.
وفي ثاني عشر شهر رمضان من السنة: توجه الملك السعيد إلى الشام، وجرد السلطان في
خدمته الأمير سيف الدين أستاد دار وجماعة من أكابر الأمراء والخواص. ودخل إلى
دمشق في سادس عشرين الشهر، ولم يشعر به نائب السلطنة إلا وهو بينهم في سوق الخيل،
فنزلوا وقبلوا الأرض، ودخل الملك السعيد القلعة وخلع على الأمراء في ليلة العيد وخلع
أيضا على المقدمين والمفاردة والأكابر، وخرج متصيدا بالمرج، ثم توجه إلى الشقيف
وصفد، وعاد إلى مصر في حادي عشر شوال منها.
ذكر ختان الملك المسعود نجم الدين خضر
ولد السلطان الملك الظاهر
كان ختانه في يوم عيد الفطر سنة اثنتين وسبعين وستمائة، وحمل السلطان على الناس كلفة
التقادم والهدايا وشملهم بالخلع والإنعام والعطاء.
نكتة غريبة
وفي هذه السنة: ورد كتاب الغرس بن شاور وإلى الرملة يذكر أنه في هذه السنة حصل
لأهل البلاد مرض وحمايات من شرب مياه البار وزاد ذلك، فحضر إليه رجلي نصراني
فقال: "هذه الآبار قد حاضت كما جرى في السنة التي جاء التتار فيها إلى الشام وأن الفرنج
أنفذوا إلى قرية تسمى عابور في الجبل أخذوا من مائها فسكبوه في الآبار فزاد الوخم." فلما
سمع ابن شاور ذلك سير إلى الضيعة المذكورة وأخذ من مائها وصبه في الآبار التي بياقا،
وكان الماء

قد كثر فيها. فلما سكب الماء فيها نقصت إلى حدها المتعارف.
وقيل: إن هذه الآبار
إناث تحيض، وآبار الجبل ذكور.
ورود كتاب متملك الحبشة
قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة
الظاهرية: في هذه السنة وصل
كتاب متملك الحبشة إلى السلطان عطف كتاب صاحب اليمن.
وهو يقول: "إن سلطان
الحبشة قد قصدني في حاجة عند السلطان، وقد سيرت كتابه
عطف كتابي" فكان
مضمون كتاب متملك الحبشة إلى السلطان: - "أقل المماليك،
محرا ملاك يقبل ملاك يقبل
الأرض وينهي بين يدي السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه،
أن رسولا وصل من "
جهة " وإلى قوص بسبب الراهب الذي جاءنا، فنحن ما جاءنا
مطران وبلادنا بلاد مولانا
السلطان ونحن عبيده . فيرسم مولانا يأمر الأب البطرك يعمل
لنا مطرانا رجلا جيدا عالما
لا يحب ذهبا ولا فضة، ويسيره إلى أبواب السلطان . وما كان
سبب تأخر الرسل عن
الحضور إلى السلطان إلا أنني كنت في بيكار . والملك داود
توفي ، وقد ملك ولده، يا مولانا
. وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين. وإنما النصارى
كثير لا تعد. وكلهم
غلمانك وتحت أوامرك. والمطران " الكبير " هو يدعو لك ، وهذه
الخلق كلهم يقولون: آمين
بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك الله عدوه، ويقول
الخلق آمين. وكل من يصل من
المسلمين إلى بلادنا أقل المماليك يحفظهم ويسفرهم كما
يحبون. وإنما الرسول الذي سيره
والي قوص فجدر وهو مريض. وبلادنا بلاد وخمة أي من مرض ما
يقدر أحد يدخل إليه،
وأي من شم رائحته يمرض ويموت. والراهب قال: ما يروح "
بغير " رفيق . ونحن فنحفظ
كل من يأتي من المسلمين ، وارسموا فسيروا مطرانا
يحفظهم". أنهى ذلك .
هذا نص كتابه ومخاطبة ملك اليمن له بالسلطان.
قال: فكتب جوابه عن السلطان:
"ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل في مملكة حطى ملك
امحره ، أكبر ملوك الحبشان،
الحاكم على مالهم من البلدان، نجاشي عصره " وفريد مملكته
في دهره " سيف الملة

المسيحية، عضد " دولة " دين النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين سلطان الأمحرة،
حرس الله نفسه، وبنى على الخير أسه. فوقفنا عليه وفهمنا ما فيه فأما طلب المطران ،
فلم يحظر من جهة الملك رسول حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ، وإنما كتاب مولانا
السلطان الملك المظفر ورد. مضمونه : أنه وصل من جهته كتاب وقاصد ، وأنه أقام عنده
حتى يسير الجواب . وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس
مسلمين ، فأخبار البلاد عندنا ، ولا تخفى عنا ، فالله يكثر عساكره المسلمين . وأما وخم
بلاده فالآجال مقدرة من الله ، وما يموت أحد الا بأجله ، ومن فرغ أجله مات ، وكم من
جريح بالسيف عاش وصحيح مات ، والأمر لله في الجميع " .
وفي هذه السنة : كانت وفاة الصاحب بهاء الدين علي بن محمد ، في ليلة الاحد التاسع
والعشرين من شعبان ؛ ودفن من الغد بسفح المقطم ؛ سمع من جماعة ، وحدث ودرس
بمدرسة والده " التي أنشأها بزقاق القناديل بمصر " وكان منقطعا عن المناصب يحب
التخلي والانفراد كثير الصدقة ، وبنا رباطا بمصر، ومولده بالفسطاط في سنة ست وثلاثين
وستمائة، رحمه الله تعالى.
وفيها : في ليلة الثلاثاء رابع عشر الآخر توفي الشيخ العالم الزاهد الورع أبو محمد عبد الله
بن عمر بن يوسف الحميدى القصرى ، ودفن من يومه بالقرافة الصغرى . كان أوحد أهل
زمانه في أصول الدين والفقه ، وله معرفة بكلام الفقراء وأحوالهم رحمة الله تعالى .
وفيها : في ليلة الأثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر توفي أبو المحاسن يوسف بن
عبد الله بن نهار البكرى، خطيب جامع ابن طولون ، ودفن بالقرافة ومولده بالقاهرة في
سنة ثلاث وستمائة ، رحمه الله تعالى.
وفيها: في يوم الأحد رابع عشر المحرم توفي الصدر الرئيس الأصيل مؤيد الدين أبو المعالي
أسعد بن المظفر بن أسعد بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي،المعروف
بابن القلانسي رئيس دمشق وكبيرها والمشار إليه. وكان متواضعا كريما سمحا جوادا

متصدقا حسن السيرة جميل الطريقة طاهر اللسان.وكان السلطان الملك الظاهر قد عرض
عليه نظر الشام فلم يقبل،فألزمه بوكالته الخاصة والنظر في ديوان ولده الملك السعيد،فباشر
ذلك.وكانت وفاته بدمشق ودفن بتربته بسفح قاسيون،ومولده بدمشق في سنة تسع
وتسعين وخمسمائة،رحمه الله تعالى،وهو والد الصاحب الرئيس عز الدين حمزة.
وفيها:في ليلة الأربعاء ثالث عشر شعبان توفي الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ النجاة جمال
الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، وكانت وفاته
بالمدرسة العادلية بدمشق، ودفن بقاسيون بتربة بني الصايغ، له التصانيف المفيدة في علم
العربية، وشهرته أكثر من أن يؤتى على شرحها، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة
في هذه السنة: وصل الملك المنصور صاحب حماة إلى خدمة السلطان، فأحسن إليه وإلى
ولده وأخيه وعاد إلى بلاده.
وفي ثامن صفر منها: توجه السلطان إلى الكرك على الهجن من الطريق البدرية، فوصل إلى
الكرك والشوبك. وأقام بالكرك ثلاثة عشر يوما، وعاد إلى قلعته في ثاني عشرين شهر ربيع
الأول.
وفيها: في سادس عشر ربيع الآخر وتوجه السلطان إلى العباسة، وفي صحبته ولده الملك
السعيد، فصرع الملك السعيد أوزة خيبة، وقيل له: "لمن تدعى"؟ فقال: "لمن أدعو
بحياته". فقبله السلطان. وعاد السلطان بعد خمسة أيام.
وكان سبب عوده أنه ظفر يكتب من جماعة من الأمراء إلى التتار، وهم: قحماد الحموي،
وتوغان بن منكو، وسريغا، وطنغري يوري، وطنغري برمس، وأنوك، وبرمش، بلبان مجلي،
والبغلائي المرتد، وبلاغا، وطغيني، وأيبك، وسنجر الحواشي، وقبض عليهم وقررهم
فأقروا، وكان آخر العهد بهم.
وفيها: أقبل السلطان على الأمير شهاب الدين يوسف بن الأمير حسام الدين الحسن بن
أبي الفوارس القيمري، وهو من أعيان الأمراء في الدولة الصالحية النجمية والدولة الناصرية

وكان السلطان قد نقم عليه، فإنه تخيل أنه كان يثبط الملك الناصر عن قتال التتتار، فواخذه
بذلك وقطع خبره، وعطل، وأطلق له في كل يوم عشرين درهما، ودام على ذلك فأعطاه الآن
إمرة أربعين.
وفيها: توجه السلطان إلى الشام في شعبان بجميع العساكر واستحلف بقلعة الجبل الأمير
شمس الدين آفسنقر الفارقاني، والصاحب بهاء الدين، واستصحب معه الصاحب تاج
الدين وزير الصحبة وكان في هذه السفرة غزاة سيس على ما نذكر ذلك.
وفيها: رسم السلطان بعمارة ما كان تداعى من منارة الإسكندرية.
وفيها: في يوم السبت تاسع جمادى الآخرة توفي الأمير فارس الدين آقطاي المستعرب
الصالحي الأتابك، ودفن بالقرافة بالقرب من تربة الإمام الشافعي، ومشى السلطان في
جنازته، وحضر دفنه، وحزن عليه وبكى بكاء شديدا. وكان يستحق ذلك منه، رحمه
الله تعالى.
وفيها: توفي قاضي القضاة شمس الدين عبد الله بن "محمد بن الحسن بن عطاء بن
الحسن" عطاء الأذرعي الحنفي بدمشق في يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى. ولما مات عزل
قاضي القضاة زين الدين الزواوي المالكي نفسه من القضاء حال دفنه، فإنه أخذ بيده من
تراب الاقبر وحثاه عليه وقال: "والله لا حكت بعدك، فإن لك اربعين سنة تحكم، ثم هذه
مالك". وعزل نفسه من الحكم، وبقي نائبه القاضي جمال الدين يوسف الزواوي يحكم على
حاله.
وفوض السلطان قضاء الحنفية بعده للقاضي مجد الدين أبي المجد عبد الرحمن ابن
الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحنفي فوصل إلى دمشق في يوم الاثنين سلخ ذي
القعدة، وحكم في ذي الحجة من السنة.
وفيها: توفي الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن يحمود الأسدي اليغموري
بالمحلة في ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر. كان ففيها أصوليا مشاركا
في علوم كثيرة، وصحب الأمير جمال الدين بن يغمور فعرف به، وكان قد توجه لزيارة الأمير

شهاب الدين بن يغمور بالمحلة فمات. ومات الأمير شهاب الدين بعده بشهرين ويومين،
رحمهما الله تعالى.
وفيها: توفي الأمير سليمان بن الملك السعيد بن الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل
سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكانت وفاته بدمشق في حادي عشر صفر رحمه الله
تعالى.
واستهلت سنة أربع وسبعين وستمائة
استهلت سنة أربع وسبعين وستمائة والسلطان بالشام، فرسم بإحضاره ولده الملك
السعيد، فتوجه الأمير بدر الأمير بيليك الخزندار نائب السلطنة على خيل البريد لذلك، في
الرابع والعشرين من المحرم. ووصل إلى قلعة الجبل، فأرسل إليه الملك السعيد ألف دينار
وتشريفا. وكان السلطان أيضا قد رسم للأمراء بإحضار أولادهم فتجهزوا.
وتوجه الملك السعيد على خيل البريد، في صلخ المحرم ووصل إلى دمشق في سادس صفر،
وركب السلطان للقائه، وحضر بعد ذلك طلبه ومماليكه.
وفي هذه السنة: وصلت رسل برواناه، وأخبر بقصد التتار والبيرة، وقال إنه اتفق هو
وجماعة على أن العساكر إذا أقبلت من بر الشام وشاهدوا الصناجق السلطانية يضع
السيف في التتار، فلم يف بذلك
ثم بلغ السلطان حركة التتار، وأن قصدهم البيرة، فجمع العساكر من جميع البلاد، وأقام
ينتظر خبرا محققا، فوصل الخبر أن التتار، نازلوا البيرة، في يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة،
وأنهم أقاموا في تلك الليلة أحد عشر منجيقا، واهتموا بالحصار ونصب المجانيق، وكان
مقدمهم إبتاي، فأنفق السلطان في العساكر وتولى النفقة بنفسه. وخرج بالعساكر، فلما
وصل إلى القطيفة بلغه وحيل التتار لانقطاع المسيرة عنهم، فوصل إلى حمص، ثم عاد إلى
دمشق في مستهل شهر رجب متوجها إلى الديار المصرية، فدخل إلى قعة الجبل في ثامن
عشر الشهر.
شنق الطواشي شجاع الدين
عنبر المعروف
بصدر الباز وغيره

كان هذا الطواشي المذكور قد تمكن في الدولة الظاهرية وكبر شأنه، وتعاظم في نفسه،
وصار في غيبة السلطان يركب إلى الميدان ويلعب بالكرة ويعود إلى القلعة، ثم تعاطى بعد
ذلك، فيما نقل، إدمان شرب الخمر في دور السلطان، ويجتمع على ذلك مع الخدام: فاتصل
ذلك بالسلطان، فلما عاد أحضره بين يديه ليلا، وقام السلطان إليه بنفسه ولكمه وقصد أن
يؤدبه بالضرب زالإخراق ليرتدع بذلك. وكان لهذا الخادم على السلطان إدلال كبير، فحمله
غدلالة على أن خاطب السلطان بما لا يليق أن يخاطب به، فكان مما قال له: "هذا الضرب
لا يفيدك، ولكن اشنقني". فغضب السلطان وأمر بشنقه، فشنق بالميدان الأسود تحت
عن العرض بحمص، وشفع في جماعة أخر من الجند، فحبسوا بخزانة البنود. وأمر السلطان
بمن كان يحضر مع صدر الدين من الخدام على الشراب فقطعت أيديهموأرجلهم من خلاف
وسملت أعينهم.
وقد حكى لي حكاية عجيبة عن هذا الخادم وهي: أن السلطان، قبل وصوله إلى الديار
المصرية، كان قد كتب إلى النائب بقلعة الجبل أن يتقدم بنصب مائة خشبة بالميدان الأسود
للشنق فنصبت، وما علم لمن هي، فكان الطواشي إذا توجه إلى الميدان يمر على الخشب
فينظر إلى خشبة منها، ويقول: أجد قلبي يحن إلى هذه الخشبة، وتكرر منه، فشنق
عليها. وهذا من عجيب الإنفاق في إحساس الخواطر.
متجددات اتفقت بعد وصول السلطان
إلى الديار المصرية غير ما تقدم ذكره
منها: وصول هذية صاحب اليمن، ومن جملتها الفيل والكركدن والحمار الوحشي العنابي
وأصناف من التحف والبهار وغير ذلك، فعرض ذلك على السلطان وجهز "السلطان" له
هدية سينة وسيرها صحبة رسله.
ومنها: تجهيز رسل الملوك، وهم: رسل الملك منكوتمر ملك البلاد الشمالية، ورسل
الأشكري، ورسل الفنش، ورسل جنوة، وإرسال الرسل إلى أشبيلية.
توجه السلطان إلى اشبيلية
وما كان من خبرهم

كان الفنش صاحب أشبيلية قد سير رسولا لى السلطان اسمه دينار، وعلى يده هذية
سينة ورسالة، مضمونها: استدعاء مودة السلطان، وذلك قبل هذا التاريخ. فسير السلطان
إليه الآن رسلا، وهم: الأمير سيف الدين الجلدكي والأمير عز الدين أيبك الكبكي، والفقيه
العدل " " الدين الحسين بن همام بن مرتضى، وعلى أيديهم هذية سنية وعقاقير. فتوجهوا
من القاهرة في العشرالآخر من شوال وتوةجهوا إلى الإسكندرية، وتوجهوا منها منها في
البحر في ذي القعدة، فوصلوا إلى سنقريس، فعوقهم صاحب برشنونة أياما ثم أفرج عنهم،
فساروا حتى وصلوا إلى مرعش، وهي من جملة مملكة الفنش، فأعلم بوصلوهم
فاستدعاهم، وكان يومئذ ببنطورية فتوجهوا إليه، فكانوا كلما مروا ببلد خرج إليهم أهل
البلد وتلقوهم بالأفراج، إلى أن وصلوا إلى بنطورية، فخرج جميع من بها من الخيالة والرجالة
والتقوهم بظاهرها، ثم استدعاهم الملك بعد ثلاث وأكرمهم غاية الإكرام، واستحضرهم في
اليوم الثاني واحضروا الهدية، فاستبشر وطابت نفسه وقبلها، ثم جهز لهم مركبا ببرشنونة
فتوجهوا في البر إليها، ثم ركبوا منها في المركب في آخر ذي الحجة، فوصلوا إلى الإسكندرية
في صفر سنة خمس وسبعين وستمائة.
اتصال الملك السعيد بابنة الأمير
سيف الدين قلاون
وفي هذه السنة: في يوم الخميس ثاني عشر ذي الحجة، عقد نكاح الملك السعيد ناصر
الدين محمد بركة قان بن السلطان الملك الظاهر على "غازية خاتون" ابنة الأمير سيف
الدين قلاون الألفي العلائي الصالحي، وكان العقد بالإيوان بقلعة الجبل على صداق مبلغه
خمسة آلاف دينار، ومعاملة صرف الدينار ثلاثة عشر درهما وثلث درهم. وكان الوكيل
عن الأمير سيف الدين قلاون، الأمير شمس الدين أفسنقر أستاد الدار العالية، بعد أن ثبت
التوكيل في المجلس عند قاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي. وجرى العقد بين
الوكيلين بحضوره، وحضر السلطان والوزراء والقضاة والأكابر واعيان الأمراء والمقدمين

وكان الصداق بخط القاضي محيي الدين عبد الله بن الشيخ رشيد عبد الظاهر، وإنشائه،
وقرأه في المجلس، فخلع عليه وأعطى مائة دينار. ونسخة:
بسم الله الرحمن الرحيم
"الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة، ومصدق الفال لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقق
الإقبال لمن أصبح بشيبه سلطانه وصهرة ملكه، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطانا
ونصيرا، وميز أقدارهم باصطفاء تأهليه هحتى حازوا نعيما وملكا كبيرا، وأفرد فحارهم
بتقربه حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها ذروا، وشرف وصلتهم حتى أصبح الله
عليهم بها عظيما وأفضاله كثيرا، مهييء أسباب التوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع
كل أملاك من الأفلاك بالشموس والبدور والأهلة أهلة، جامع أطراف الفخار لذوي الإيثار
حتى وصلت لهم النعمة الشاملة، وحلت عندهم البركة الكاملة."
"نحمده على "أن" أحسن عند الأولياء بالنعمة لستيداع وأحمل لتأمليهم الاستطلاع، وكمل
لاختيارهم الأجناس من الغرو والأنواع، وآتى آمالهم مل لم يكن في حساب أحسابهم من
الابتداء بالتخويل والابتداع."
"وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة حسنة الأوضاع ملية بتشريف
الألسنة وتكريم الأسماع."
"ونصلى على سيدنا محمد الذي أعلا الله به الأقدار وشرف به الموالي والأصهار، وجعل
كرمه دارا لهم في كل دار، وفخره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار،
صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار يانعة الثمار."
"وبعد، فلو كان إفضال كل شيء بحسب المتصل به في تفصيله لمما استصلح البدر شيئا
من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئا من الرياض لهطوله، ولا الذكر الحكيم لسانا من
الألسسنة لترتليه، ولا الجوهر الثمين شيئا من التيجان لحلوله، ولكن ليتشرف بيت يحل به
القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور، ونضار يتجمل باللآلئ والدرر.
وكذلك تجملت برسول الله صلى عليه وسلم أصهاره من أصحابه، وتشرفت أنسابهم
بأنسابه، تزوج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمت لهم به مزية الفخار حتى رضوا عن الله

ورضي عنهم. والمرتب على هذه القاعدة إفاضة نور يستمد الوجود، وتقرير أمر يقارن
سعد الأجنة منه سعد السعود. وإظهار خطبة يقول الثريا لانتظام عقودها كيف، وإبراز
وصلة يتجمل بترصيع جوهرها متن السيف، الذي يغطيه "على" إيداع هذا الجوهر به كل
سيف، ونسج صهارة يتم بها إن شاء الله تعالى كل أمر شديد، ويتفق بها كل توفيقي، تخلق
الأيام وهو جديد. ويختار لها أبرك طالع، وكيف لا تكون البركة في ذلك الطالع وهو
السعيد، وذلك أن المراحم الشريفة السلطانية أرادت أن تحض المجلس السامي الأمير -
وذكر نعوته - بالإحسان المبتكر، وتقوده التي ترهف بها منه الحد المنتظر، وأن ترفع من
قدره بالصهارة، مثل ما رفعه صلى الله عليه وسلم من قدر صاحبيه أبي بكر وعمر،
فخطب إليه أسعد البرية وأمنع من تحميها السيوف المشرفية، وأعز من تسبل عليها ستور
العيون الخفية، وتضرب دونها خدور الجلال الرضية، وتتجمل بنعوتها
العقود. وكيف لا، وهي الذرة الألفية. فقال والدها الأمير المذكور: هكذا ترفع وتزان،
وكذا يكون قران السعد وسعد القران. وما أسعد روضا أصبحت هذه المراحم الشريفة
السلطانية له خميلة، وأشرف سيفا غدت منطقة بروج سمائها له خميلة، وما أعظمها معجزة
آتت الأولياء من لدنها سلطانا، وزادتهم مع إيمانهم إيمانا، وما أفخرها صهارة يقول التوفيق
لإبرامها: ليت، وأشرفها عبودية كرمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت. وإذ قد
حصلت الاستخارة في رفع قدر المملوك، وخصصه بهذه المزية التي تقاصرت عنها أمال
أكابر الملوك. فالأمر لمليك البسيطة في رفع درجات عبيده كيف يشاء والتصدق بما يتفوه
به هذا الإنشاء، وهو:
بسم الله الرحمن الرحيم
"هذا كتاب مبارك تحاسدت رماح الخط على تحريره، وتنافست مطالع النوار ومشارق
الأنوار على نظم سطوره، فأضاء نور الجلالة وأشرق، وهطل نوره بالإحسان فأغدق.
وتناسبت فيه أجناس من تجنيس لفظ التفضيل، فقال الاعتراف، هذا ما تصدق، وقال

العرف، هذا ما أصدق مولانا السلطان - وذكر نعوته وألقابه - أصدقها ما ملأ خزائن
الأحساب فخارا وشجرة الأنساب ثمارا ومشكاة الجلالة أنوارا، وأضاف إلى ذلك ما لولا
أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا. فبذل لها من العين المصري ما هو باسم والده
قد تشرف، بنعوته قد تعرف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرف".
ثم كان الدخول بها في شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة.
واهتم السلطان بذلك اهتماما لم يسمع بمثله، وخلع على جميع أكابر دولته من الأمراء
والمقدمين والوزارء والقضاة والكتاب. وأنعم على الأمير سيف الدين قلاون بتشريف كامل
بشربوش كان السلطان قد لبسه ثم خلعه عليه.
توجه السلطان إلى الكرك
واستبداله يمن فيها من الرجال وعوده
وفي يوم الخميس ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة: حالة انقضاء العقد، ركب السلطان
على الهجن وتوجه إلى الكرك في جمع يسير من جهة البرية، فوصل إلى قلعة الكرك في ثالث
وعشرين الشهر. وكان سبب ذلك أنه بلغه عن بعض رجال القلعة أنهم عزموا على إثارة
فتنة ونقل دولة، وأنهم عزموا على الوثوب بنواب السلطان بالكرك فيقتلونهم ويسلمون
الحصن لأخ كان للملك القاهر بن الملك المعظم لأمه، كونه ينسب إلى الملك الناصر، وكان
مقيما بالكرك لا يؤبه له. فدخل السلطان إلى الكرك بغتة، واستدعى الرجالة، وكانوا زهاء
ستمائة، وأمر بالقبض عليهم وشنقهم، فشفع ما كان معه فيهم، فأخرجهم من الحصن وقطع
أيدي وأرجل ستة نفر منهم من خلاف، كانوا سبب الفتنة. وكان السلطان قد استخدم
رجالا يثق بهم، وسفرهم إلى غزة، ولم يعرف أحدا قصده بهم، فأحضرهم إلى الكرك
ورتبهم عوض من كان بها من الرجال. واستدعى السلطان الطواشي شمس الدين صواب
السهيلي الصالحي - وكان يتولى صناعة الإنشاء بمصر - وسلم إليه الحصن، وفوض إليه
النظر في أمواله وحواصله وذخائره. وخرج متوجها إلى دمشق في يوم الجمعة ثامن عشرين
ذي الحجة سنة أربع وسبعين وستمائة.

واتفق للسلطان في هذه السفرة أمور، وشاهد أبنية ومنازل غربية في مسيره من الديار
المصرية إلى الكرك. وقد ذكرها المولى محيي الدين بن عبد الظاهر وأعتذر في بسط القول
فيها لغرابتها. فأحببنا أن نذكر ذلك تلخيصا.
قال: رحل السلطان من قلعته يوم الخميس المذكور فنزل بلبيس، وأقام إلى قرب وقت
العصر، ورحل فنزل رأس الملء بوادي السدير، ورحل منه في نصف ليلة السبت، فنزل
الكراع وأقام إلى غروب الشمس، وحمل الملء لكفاية يومين، وتوجه على طريق البدرية،
وساق سوقا عنيفا إلى وقت الفجر من يوم الاثنين، لم يرح ولم يسترح إلا بقدر ما تشرب
الخيل الملء وتستوفي العليق، فنزل جبل بدر، ثم ركب بعد الإسفار لشدة الوعر فوصل إلى
بدر، ونزل عند العين.
قال: وهي عين تخرج من جبل أخضر ليس فيه ثبات، ومنيعها من جهة الغرب تحت جبل
شاهق، وهي شكل مغارة منقوبة، يدخل الإنسان منها مقدار عشرة خطى، فيجد عينا
تنبع عن بسرة الداخل إليها.
وكان السلطان قبل وصوله إلى العين قد بعث جماعة من العرب وأمرهم أن يجمعوا من ماء
العين ما يكون حاصلا للورد، فصنعوا حول العين حياضا في الأرض شكل البرك محوطة
بالحجارة، وملأوها من ماء العين، فوردها السلطان ومن معه، وارتفقوا بها، ولولا ذلك
لهلكوا من الازدحام على الماء. ثم دخل السلطان بنفسه إلى المغارة، وجلس عند العين،
وكان يملأ لمن معه قربهم بيده ويناول كل قربة لصاحبها حتى ملأوا ما معهم. ثم رحل من
بدر فنزل حسنة، وهي بئر واحدة. ورحل منها حتى انتهى إلى عين تعرف بالمليحة
فوردها. ورحل وبات تحت جبل يعرف بنقب الرباعي، فلما أسفر الصبح صعد إلى الجبل
وإذا هو جبل عظيم به عقاب صعبة - وهي حجارة رخوة تشبه الرمل المتجمد، متغيرة
الألوان إلى الحمرة والزرقة والبياض - وثم ثقوب في الجبل يعبر الراكب منها، وبها أمكنة
تشبه السلالم من حجارة. وبها قبر هارون نبي الله أخا موسى بن عمران، عليهما السلام،

على يسره السالك المتوجه إلى الشام. وثم قلعة تعرف بالأصوات صعدها السلطان
وشاهدها، فوجدها من أعجب الحصون وأمنعها لا يكون أحصن منها. ونزل من نقوب
الرباعي إلى مدائن بني إسرائيل، وهي ثقوب من الجبال من أحسن الأشكال ذات بيوت
بالعمد وأبواب، وظواهر البيوت مصوفة بالنقوش في الحجارة بالإزميل، وكلها مخربة، بها
صور أشكال وهي على قدر دور الناس المبنية الآن، وداخل هذه البيوت الأواوين المنورة
المعقودة والصفف المتقابلة والخزائن والدهاليز والحرميات. وليس ذلك مبنيا بل جميعه
منحوت بالحديد أشكال المغاير.
قال: وقد خلق الله تعالى جبلين متقابلين، بينهما طريق، وكل جبل منهما كأنه شكل سور
مرتفع، والدور متصلة يمينا وشمالا. ثم خرج السلطان من تلك الأمكنة إلى وادي المدرة،
ثم منه إلى قرية تعرف بالعذبة، عرفت بذلك لأن بها العين التي بجسها موسى بن عمران
عليه السلام بعصاه، وكانت تجري دما، فقال: "عد بأمر الله ماء عذبا" فعادت العين ماء
حلوا رائقا باردا. فبات السلطان بها، ورحل منها ليلة السبت حادي عشرين الشهر،
فوصل قلعة الشوبك نصف نهار الأحد، وخيم هناك، وحضر أمراء بني عقبة وغيرهم من
أمراء العربان، وقدموا الخيول والهجن وغير ذلك، ثم رحل من الشوبك نصف نهار الاثنين
على طريق الحسا، فوصل إلى الكرك نصف نهار الثلاثاء ثالث عشرين الشهر.
قتال: ولما كان في سابع وعشرين الشهر يوم الجمعة خرج السلطان إلى باب قلعة الكرك،
وأحضر رجالها، وذكر من خبر إخراجهم نحو ما تقدم.
وفي هذه السنة: توفي الملك المسعود جلال الدين عبد الله بن الملك الصالح عماد الدين
إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن ايوب. وكانت وفاته بدمشق في خامس عشر جمادى الآخرة ودفن
بسفح قاسيون. وكان من
أجمل الناس صورة وألطفهم خلقا وأكثرهم أدبا، كثير المكارم وحسن العشرة. رحمه الله
تعالى.
وفيها: توفي الصاحب موفق الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد المذحجي

الآمدي، وكان من أعيان الأكابر ممن يرشح الوزارة، وولي نظر الدواوين ثم رتب آخرا ناظر
الكرك والشوبك، فباشر ذلك مكرها، واستمر على ذلك إلى أن مات بالكرك. وكانت
وفاته في ثامن عشر ذي الحجة، ودفن قريبا من مشهد جعفر التيار رضي اله عنه.
وفيها: في يوم الأحد ثالث عشر ربيع الأول كانت وفاة الأمير ركن الدين خاص ترك الكبير
بدمشق ودفن بقاسيون.
وفيها: في العشرين من شهر رمضان توفي الشيخ الإمام الفاضل تاج الدين أبو الحسن علي
بن الأنجب البغدادي - المعروف بابن الساعي - المؤرخ خازن كتب المدرسة
المستنصرية. كان فلاضلا، وله تاريخ مذيل على تاريخ ابن الأثير الجزري، رحمهما الله تعالى

واستهلت سنة خمس وسبعين وستمائة
وصول جماعة من أمراء الروم
خدمة السلطان وطاعتهم له
قال: ووصلت الأخبار أن جماعة من أمراء الروم ظهروا طاعة السلطان وتجاهروا بذلك.
وأن البرواناه أنفرد عنهم وتقرب إلى التتار ورجع عما كان مشتركا معهم فيه من طاعة
السلطان، وتوجه إلى الأردو وطلب من أكابر أمراء الروم النجاة بأنفسهم. واخذ الأمير
شرف الدين مسعود بن الخطير وأخوه ضياء الدين محمود: السلطان غياث الدين صاحب
الروم وتوجها إلى قلعة نكيدة، وكاتبوا السلطان. كذلك الأمير حسام الدين بينجار وولده
بهاء وأولاده، وجماعة من الأمراء وهم إثنا عشر أميرا، وطلبوا من السلطان أنه يتداركهم
بعسكره. فركب "السلطان" من الكرك كما تقدم، ووصل إلى دمشق في رابع عشر المحرم،
فوصل الأمير حسام الدين بينجار والأمير بهاء الدين بهادر وولده "أحمد"، ثم وصل بعدهما
الأمير سيف الدين حيدربك صاحب الآبلستين، والأمير مبارز الدين "سواربن" الجاشنكير
وجماعة من أمراء الروم، فتلقاهم السلطان بنفسه وأحسن إليهم ووصل حريمهم وأولادهم،
فجهزهم إلى الديار المصرية. وكتب السلطان إلى الأمير بدر الدين بيسرى والأمير شمس

الدين أقش "البرلي" "و" قطليجا. فحضرا إلى دمشق على خيل البريد، فطلب الأمير شمس
الدين سنقر الأشقر وتوجه السلطان إلى حلب، وجهز الأمير سيف الدين بلبان الزيني
الصالحي وصحبته جماعة من العسكر، فوصلوا إلى عين تاب، وقرر معهم التوجه إلى القلعة
التي بها السلطان غياث الدين وابن الخطسر. فورد كتاب الزيني أنه وصل إلى كرصو، فبلغه
أن التتار وصلوا إليها أيضا، وبقي بينه وبين العدو النهر، وجالوا بين العسكر وبين قلعة
نكيدة، فرجع العسكر إلى عين تاب، وهرب شرف الدين بن الخطير إلى بعض القلاعه
فتقرب إلى العدو بتسليمه "السلطان" إليهم. وبقي أخوه ضياء الدين في خدمة السلطان
"الظاهر بيبرس" لأنه كان حضر إليه مستنجدا وسير هذا العسكر بسبب حضوره. واما
السلطان غياث الدين فعلم التتار أنه محكوم عليه فعفوا عنه، وسلموه إلى الصاحب
والبرواناه.
وعاد السلطان إلى دمشق ومنها إلى الديار المصرية، فدخل الجبل في رابع عشر شهر ربيع
الأول سنة خمس وسبعين وستمائة، فأقام إلى شهر رمضان من السنة وتوجه إلى الشام في
العشرين من الشهر، فكانت غزوة الروم على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى، في الغزوات.
آثار مسجد بجوار دير البغل
وإقامة شعائر الإسلام به
وفي التاسع عشر من شوال من هذه السنة: خرج جماعة إلى دير القصير، المعروف بدير
البغل ظاهر مصر، فرأوا أثر باب بجوار الدير، فدخلوا المكان فرأوا آثار محاريب المسلمين،
فأنهوا ذلك إلى الصاحب بهاء الدين، فتقدم إلى القاضي بهاء الدين ناظرا الأحباس أن
يتوجه وصحبته نواب الحكم والعدول والمهندسون ومن يعتبر حضوره في مثل ذلك. فتوجه
وصحبته القضاة "و" المشايخ: وجيه الدين البهنسي، وظهير الدين الترمنتي، وعلم الدين
السمنودي نائب الحكم، ونظام الدين الخليلي، وجماعة من المهندسين، فشاهدوا المكان
ورأوا به من الأثار ما يدل على أنه مسجد، وشهدوا بذلك عند القاضي علم الدين

السمنودي فأثبته، ونقل الحكم إلى قاضي القضاة محيي الدين بن عين الدولة. وطولع الملك
السعيد بذلك، فأمر الصاحب بهاء الدين يعمارته وإقامة من يحتاج إليه من إمام ومؤذن
وزيت وفرش، فرتب ذلك له، وهو باق إلى يومنا هذا.
وفي هذه السنة في رابع شوال: كانت وفاة الصاحب بدر الدين جعفر بن محمد بن علي بن
محمد المذحجي الآمدي بدمشق وهو يومئذ ناظر النظار بها، ودفن بقاسيون. ومولده في
سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وكان هو وأخوه موفق الدين من أمناء المباشرين وأرباب
الستر على الكتاب، ولقب كل منهما بالصاحب، ولم يليا وزارة. ولما حضرا من بلاد آمد
في سنة ثلاثين وستمائة هما وابن أختهما شمس لما نقل الملك الكامل أهل آمد منها. فلما
عبر الفرات قال موفق الدين لهما: "اعلما أننا نقدم على بلاد لا نعرف فيها أحدا، وليس لنا
فيها معين إلا الله تعالى، فتعاهداني والله تعالى، على الأمانة وألا نخون السلطان ولا
الناس". فتعاهدوا على ذلك ودخلوا إلى الديار المصرية. وولوا المناصب فوقيا بما عاهدا
عليه، ونكث ابن أختهما شمس الدين، قسلما في مباشراتهما.وكان شمس الدين كثير
النكبات والمصادرات.
وفيها: كانت وفاة الشيخ الصالح برهان الدين أبي إسحاق بن سعد الله بن جماعة بن علي
بن جماعة الكناني الحموي بالقدس الشريف يوم عيد الفطر، رحمه الله تعالى.
وفيها: كانت وفاة القاضي شرف الدين محمد بن يشكور المصري الكاتب، ولى مناصب
جليلة، منها: نظر الجيش ونظر الدواوين بالديار المصرية. وكان بينه وبين الصاحب بهاء
الدين مصاهرة ووحشة وكانت وفاته بداره على الخليج بالقرب من مصر في ليلة الأحد
خامس عشرين جمادى الأولى. ودفن يوم الأحد بالقرافة الصغرى. ومولده سنة ست
عشرة وستمائة.
وفيها: توفي الأمير عز الدين إيغان ولا دمر الركني المعروف بسم الموت في محبسه بقلعة
الجبل، وسلم إلى أهله في يوم الخميس ثامن عشر جمادى الآخرة، فدفن من يومه بمقابر باب
النصر. وكان من الأمراء الأكابر، وقد تقدم ذكر اعتقاله.

هذا آخر ما لخصناه من الحوادث في الأيام الظاهرية، فلنذكر الغزوات والفتوحات
الظاهرية.
غزوات السلطان الملك الظاهر
وفتوحاته
وما استولى عليه من البلاد الإسلامي
ولنبدأ من ذلك بذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية مما كان بيد غيره من الملوك
وأصحاب الحصون. ثم نذكر الغزوات والفتوحات على ما ساقها بمقتضى ما يقدمه التاريخ
ويؤخره توفية للشرط الذي شرطناه.
ما استولى عليه من القلاع
والحصون والبلاد الإسلامية
وأضافه إلى ممالكه
كان مما استولى عليه السلطان الملك الظاهر من القلاع والحصون والبلاد بعد أن استقر في
الملك: الشوبك، والكرك، وقلعة البيرة، وحمص، والرحبة. وقد تقدم ذكر ذلك في أثناء
أخباره فلا فائدة في إعادته. واستولى على خلاف ذلك مما نذكره الآن وهو: سواكن من
بلاد اليمن، وخيبر من بلاد الحجاز، وقرقسيا، وبلاطنس، وصهيون، وبرزية، وحصون
الدعوة من الشام وما ولاه.
فتوح سواكن
كان فتحها في سنة أربع وستين وستمائة. وسبب ذلك أن صاحبها "الشريف" علم الدين
أسبغاني كان قد تعرض للتجار، وأخذ ميراث من مات منهم في البحر ومنع أولادهم منه،
وكوتب في ذلك وحذر من العود إليه، فلم تغن المكتبات شيئا.
فرسم الأمير علاء الدين
الخزندار متولي الأعمان القوصية والأعمال الأخميمية، فقصده، فورد كتابه أنه وصل إلى ثغر
عيذاب وسير عسكرا إلى سواكن فهرب صاحبها، ثم توجه علاء الدين المذكور إليها من
عيذاب في عشرة أيام، وكان معه من المراكب الكبار والصغار نيف وأربعون مركبا، ووصل
إليه من القصير كلالين موسقة بالمقاتلة، ودخل سواكن وأقام بها ومهدخا وقرر أحوالها، ثم
رجع إلى مدينة قوص. ولما فارق سواكن عاد صاحبها إليها فقاتله من بها أشد قتال،
وعاد منها.
فتوح خيبر

كان فتحها في سنة اثنين وستين وستمائة، وذلك أن أصحابها عبيد على بن أبي طالب،
رضي الله عنه، وصلت كتبهم إلى السلطان يبذلون الطاعة والخدمة، فسير نجابين تستصح
الأخبار، وندب الأمير أمين الدين موسى بن التركماني، وجهز الرماة والمقاتلة، وأنفق فيهم
الأموال وجهز الخلع للمقدمين والمشايخ وكتب إلى نائب الكرك بتجهيز أمراء العربان وجماعة
من البحرية صحبته، وجهز الغلال والذخائر لهذه القلعة، فتوجه الأمير أمين الدولة
وافتتحها.

فتوح قرقيسيا

وقرقيسيا هذه من اقدم المدن وكانت تعرف بالزباء الملكة.
وفيها يقول ابن دريد:

فاستنزل الزباء قسرا وهي في عقاب لوح الجو أعلا منتما

وكان السلطان قد راسل أهلها، وسير إليها الأمير كمال الدين الطوري وملكها وأقام بها
مدة، فقصدها التتار، فعاد كمال الدين إلى السلطان وتركها.
وفي شهر رمضان سنة ثلاث
وستين وستمائة، أرسل مقدموها إلى عز الدين السكندري النائب بالرحبة، وسألوه عفو
السلطان وسيروا رهائنه. فتوجه إليها جماعة من الخيالة والأقحية، وساقوا من أول الليل
إلى نصفه وباتوا على ماكسين، فلما أصبح الصبح أحاط بها المسلمون والعسكر وقتلوا من
كان بها من عسكر التتار والكرج، وأسروا إلى المرتدة نيفا وثمانين نفرا، وتنسلموا الجسر
ومراكبه والسلسلة، في نصف الشهر.

أخذ بلاطنس وخبرها

كانت بلاطنس جارية في مملكة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، فلما
دخل التتار البلاد استولى عليها الأمير مظفر الدين عثمان صاحب صهيون، فطلب
السلطان منه رد هذا الحصن، فصار يدافع ويقول: "أنا من جملة النواب". فلما توجه
السلطان إلى أنطاكية أرسل إليه هدية ردها السلطان عليه، وسير جماعة من عسكر حلب
أغاروا عليها. فتوالت رسله بالإذعان بالتسليم ويطلب قرية توقف عليها، فعين السلطان له
قرية الحلمة من بلد شيزر، ووقفها عليه وعلى أولاده، وقرر أن يعطي صاحب بلاطنس

شيئا من بلد صهيون فقرر له السلطان منها بلادا تغل ثلاثين ألف درهم، وتسلمت بلاطنس
منه في سادس عشر شهر رمضان سنة سبع وستين وستمائة.
وهذا الحصن من جملة معاقل الإسلام الحصينة لأنه بري بحري سهلي، ما أخذ بالسيف
قط، بناه رجال يعرفون ببني الأحمر من أهل الجبال وحصنوه، فلما سمع بهم قطبان أنطاكية
المسمى ببقيطا عاجلهم قبل إتمامه فملكه بالأمان، وأخذ في تحصينه وإتمام بنائه، وذلك في
سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة. فلما كان في سنة إحدى عشر وخمسمائة، خرج روجار
صاحب أنطاكية فدوخ بلاد الإسلام، وقصد حصن بلاطنس وفيه بنو ضليعة أولاد أخي
القاضي شرف الدين، فنزل على بلاطنس في يوم الثلاثاء ثامن عشرين ذي الحجة من
السنة، وأجلب عليه فتسلمه في يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة اثنتي عشرة، وعوضهم
عنه بأنطاكية ثلاث قرى. فلما كان في يوم السبت سابع وعشرين شعبان سنة ثلاثين
وخمسمائة وثب أهل بلاطنس على ما فيه من الفرنج فقتلوهم، فاحتمت عليهم القلة.
فأرسل أهل الجبال إلى منكجك التركماني صاحب بكسرائيل يستنجدونه فأتاهم وأقام
يحاصرها مدة. فعمل الفرنج الذين بها حيلة عليه، وراسلوه وبذلوا له تسليمها على شرط
أن يخفر نساءهم وأولادهم حتى يصلوا إلى جبلة أو إلى صهيون. فإذا جاءت لهم العلامة
بوصولهم سالمين سلموها له، فلما وصلهم امتنعوا من التسليم. وكان ذلك حيلة منهم، فإن
الأقوات ضاقت عندهم وضاقت الغلة عليهم، فاستراحوا بخروجهم عنهم وقويت
نفوسهم. واتصل الخبر بأنطاكية فسيروا إليها عسكرا دفعه عنها. واستقرت بأيديهم إلى أن
ملكها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على ما قدمناه.

تسليم صهيون وبرزية

وفي سنة إحدى وسبعين وستمائة: تسلم السلطان صهيون وبرزية، وذلك أن صاحبها
الأمير سيف الدين محمد بن الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس بن بدر
الدين خمردكين توفي في هذه السنة كما تقدم، وكان السلطان يومئذ بدمشق فاستدعى ولده

الأمير سابق الدين سليمان فحضر، وأقطعه إمرة بأربعين فارسا، فكتب إلى عمه جلال
الدين بتسليم القلعة إلى نواب السلطان بذخائرها، فتسلموا ذلم في ثاني عشر شهر ربيع الأول
منها. وأقطع السلطان عميه جلال الدين مسعود ومجاهد الدين إبراهيم؛ وكل منهما إمرة
عشرة طواشية، ووصل أهل صاحب صهيون إلى دمشق.
الإسماعيلية وابتداء أمرهم
والاستيلاء على حصونهم
أول من قام بدعوتهم الحسن بن الصباح المعروف بالكيال، هو من تلامذة بن عطاش
الطبيب. قدم مصر في زمن المستنصر العبيدي في زي تاجر في سنة ثمانين وأربعمائة،
ودخل عليه وخاطبه في إقامة الدعوة ببلاد العجم فأذن له. وكان الحسن كاتبا للرئيس
عبد الرزاق بن بهرام بالري. ادعي أنه قال للمستنصر: "من إمامي بعدك؟" فأشار إلى
نزار: فمن هنا سموا بالنزارية. وقال ابن السمعاني في تاريخه: إنما سموا بالإسماعيلية لأن
جماعة من الباطنية ينسبون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق لانتساب زعيمهم
المصري إلى محمد بن إسماعيل المذكور. وكان أول إظهار دوتهم بالأمولات وطلوعه أعلامه
في سنة ثلاث وأربعمائة وجرى لنزار ما قدمناه بعد وفاة أبيه ومسك من الإسكندرية
وجيء به إلى القصر فكان آخر العهد به، وانفصل أهل الألموت من العبيديين من ذلك
الوقت. وشرع الإسماعيلية في افتتاح الحصون، فأخذوا قلعة وبنوا أخرى وأظهروا شغل
السكين. وأول عملهم بالسكين، أن ابن الصباح كان ذا دين في الظاهر، وله جماعة من
نسبته يتبعونه، فلما حضر من مصر إلى الألموت وهي حصيسنة وكان أصحابها ضعفاء
فقالوا لأصحابها: "نحن قوم زهاد نعبد الله ونستري منكم نصف هذه القلعة ونقيم معكم
نعبد". فاشترى نصفها بتسعة آلاف دينار. ثم قوى واستولى عليها وصاروا جماعة، فبلغ
خبرهم ملك تلك البلاد فقصدهم بعساكره. فقال رجل منهم يعرف بعلي اليعبوقي: "أي
شيء يكون لي عندكم إن كفيتكم أمر هذا الجيش"؟ قالوا: "نذكرك في تسابيحنا". فقال:

"رضيت". فنزل بهم وقسمهم أرباعا في أرباع العسكر وجعل طبولا. وقال: "إذا سمعتم
الصايح فاضربوا الطبول وقولوا يا آل علي" بم هجم بهم على الملك فقتله فصاح أصحابه،
فضرب أولئك الطبول، فامتلأت قلوبهم خوفا وهربوا لا يلوي منهم أحد على أحد،
وأصبحت خيامهم خالية، فنقلوا ما فيها إلى القلعة. وسنوا السكين من ذلك الوقت.
ثم بعثوا داعيا من دعاتهم يعرف بأبي محمد إلى الشام فملك قلاعا من بلاد الناصرية .
ثم ملك بعده سنان: وهو سنان بن سليمان بن محمد البصري ، وأصله من قرية من قرى
البصرة تعرف بعقر السدن . وأقام في الشام نيفا وثلاثين سنة ، وكان يلبس الخشن ، ولا
يراه أحد يأكل ولا يشرب ولا يبول ولا يبصق، بل يجلس على صخرة ، فاعتقدوا فيه التأل .
ثم ولى مكانه أبو منصور بن محمد وكان أبن الصباح ، الذي قدمنا ذكره . " و" لما قتل
نزار طالبوه به ، فقال : "إنه بين أعداء كثيرة والبلاد بعيدة ولا يمكنه الحضور ، وقد عزم
على أن يختفي في بطن امرأة ويجيئ سالمن ويستأنف الولادة " . فقنعوا بذلك ، وأحضر
لهم جارية قد أحبلها وقال :" إنه قد اختفى في هذه " ، فعظموها فولدت ابنا سماه
حسنا. وقال:" نغير الاسم لتتغير الصورة ". ومات حسن في سنة خمس عشر وخمسمائة
، وخلف ولده محمدا . ولمحمد ولد أسمه حسن خلف أباه بعد موته . ولما سمع ملك
خوارزم شاه قصد بلادهم . وأظهر محمد بن حسن هذا أنه رأى على بن أبي طالب في
المنام يقول له : " تعيد شعار الإسلام وفرائضه وسننه " فعرف جماعته بذلك . ثم قال لهم
:" الذين لنا ، نتصرف تارة بوضع التكاليف عنكم وتارة نأخذها منكم " . فقالوا " السمع
والطاعة " فكتب إلى بغداد وسائر البلاد بذلك ، واستدعى القراءة والفقهاء وأستخدم أهل
قزوين في ركابه . وسير الخليفة رسولا صحبة رسوله إلى حلب بتقوية نوابه وأن يقتل النائب
القديم ويولى هذا الواصل فخلصوا بذلك من صولة خوارزم شاه .
هذا ابتداء أمر هذه الطائفة . وقد ذكرنا طرفا من أخبارهم فيما تقدم فلنذكر سبب

الاستيلاء على بلادهم ، وكيف انتزعها السلطان الملك الظاهر منهم .
استيلاء السلطان على بلاد الإسماعيلية
وشيء من أخبارها
وهي مصياف والعليقة والرصافة والكهف والمنيقة والقدموس والخوابي . وكان السلطان
الملك الظاهر ، رحمه الله ، قد كسر شوكة هذه الطائفة الإسماعيلية وأبطل رسومهم التي
كانت مقررة لهم على ملوك الديار المصرية ، وقرر عليهم فطيعة يحملونها إلى بيت المال .
ثم لم يرضه ذلك إلى أن استولى على حصونهم وانتزعها من أيديهم .
وأول ما استولى عليه من حصونهم مصياف : استولى عليها في العشر الأوسط من شهر
رجب سنة ثمان وستين وستمائة . وذلك أن السلطان كان قد حضر في جمادى الآخرة من
هذه السنة إلى حصن الأكراد وأغار على البلاد الساحلية ، ونزل بالقرب من البلاد
الإسماعيلية، وحضر إلى خدمته صاحب حماة وصاحب صهيون ، ولم يحضر نجم الدين
"حسن " ابن صاحب الإسماعيلية ولا ولده شمس الدين .
وسيروا يطلبون أن ينقصوا من
القطيعة التي كانوا يقدمون بها للفرنج وأبطلها السلطان وتقررت لبيت المال وكان السلطان
قبل ذلك قد غضب على صارم الدين ابن "مبارك " الرضى صاحب العليقة لأجلهم ،
فتوصل صاحب صهيون في إصلاح أمرهم ، فحضر إلى السلطان فرضى عنه وقلده بلاد
الدعوة استقلال ، وأعطاه طلبخاناه ، وعزل نجم الدين وولده من نيابة الدعوة . ونعت
صارم الدين بالصحوبية على عادة نواب الدعوة ، وتوجه في سابع عشر جمادى الآخرى
وصحبت عز الدين العديمي أحد مفاردة الشام لتقرير أمره ، وجرد صحبته جماعة من
شيزر وغيرها ن فوصلوا إلى مصياف وتحدثوا مع أهلها ، فامتنعوا ، فسير السلطان إليهما
، فسلموها في العشر الأوسط من شهر رجب .
ومصياف هذه كرسي مملكة الدعوة ، وبها أكابرهم ، ومنها رسلهم إلى الملوك ، فلما علم
نجم الدين وولده سرعة هذا الاستيلاء سألوا الحضور . وحضر الصاحب نجم الدين "

حسن " وعمره تسعون سنة ، فرحمه السلطان وعفا عنه وولاه النيابة شريكا لابن الرضى
لأنه صهره، وكان أبوه هو المشار إليه . وقرر حمل مئة وعشرين ألف درهم في كل سنة .
وتوجه نجم الدين وبقي ولده ملازما باب السلطان ، وتقرر على صارم الدين بن الرضى
حمل ألفى دينار في كل سنة .
وكانت مصياف قديمة بيد الأمير وثاب بن محمود بن ناصر بن صالح بن مرداس من أمراء
بني كلب في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، فملكها ولده ناصر الدين سابق ، فباعها لعز
الدين أبي العساكر سلطان بن منقذ في سنة أحدى وعشرين وخمسمائة،وجعل فيها
الحاجب سنقر، فقتله الباطنية وملكوا الحصن في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، وبقي في
أيديهم إلى الآن .
فتوح العليقة والرصافة
هذا الحصن من أمنع الحصون ، وكان مختصا بالرضى ، ثم بولده صارم الدين ، فجرت من
المذكور أمور أوجبت اعتقاله بمصر، ورسم للعسكر المقيم ببلاطنس بمنازلها ، وسير إلى
عبد الظاهر النائب بها وإلى جماعة من أهلها بالترغيب والترهيب ، فتسلمها نواب
السلطان في يوم السبت حادي عشر شوال سنة تسع وستين وستمائة ، واستخدم بها
الرجالة ، ثم هجم نواب السلطان على الاصافة ، وملكت في آخر الشهر المذكور .
فتوح بقية حصون الدعوة
كان قد تقرر على الصاحب نجم الدين عند وصوله إلى السلطان مائة ألف وعشرين ألف
درهم في كل سنة ، واستقر شمس الدين في صحبة ركاب السلطان ، فنسب إليه أنه كاتب
الفرنج .
فحضر والده نجم الدين في سنة تسع وستين وستمائة عند فتوح حصن الأكراد فاعتذر
عنه، وتحدث هو وولده المذكور مع الأتباك في تسليم القلاع ، وأنهما يحضران إلى باب
السلطان ، فأجابهم إلى ذلك . وتوجه شمس الدين إلى الكهف لتدبير أمور أهله في عشرين
يوما ويعود ، وسافر أبوه في الخدمة إلى القرين ثم إلى الديار المصرية ، فلما حضر والده

وصار يعتذر عن الحضور. فكتب إليه السلطان: "أن الذي كنتم سألتموه من تسليم القلاع
كأنكم رجعتم عنه، والوعد الذي وعدناكم نحن ما نخلفه، من أننا نعطيك إمرة بأربعين
فارسا، وقد تسلم والدك الإقطاع". فورد جوابه يعتذر عن الحضور ويطلب حصن العليقة،
وأنه يسلم بقية الحصون. فأجيب إلى ذلك. وسير السلطان الأمير علم الدين سنجر
الدواداري وقاضي حمص فخلفا شمس الدين بحصن الكهف، ثم طالبوه من التسليم فامتنع
أهل الكهف عن ذلك باتفاق منه، فعادت الرسل بذلك. ثم أعيد إليه الأمير علم الدين
شقير مقدم البريدية، فمنعا من الدخول إلى الكهف، ولم تؤخذ منهم الكتب. فأمر السلطان
بمضايقتهم، فندم شمس الدين ونزل من الكهف، وجاء إلى السلطان بظاهر حماة في سادس
وعشرين صفر سنة تسع وستين، فأكرمه السلطان، فسير ورقة إلى السلطان يقول: "إن أهل
الكهف كانوا جهزوا فداوية إلى الأمراء." فغضب السلطان وأمر بإمساكه في الوقت
وإمساك أصحابه، وسيروا إلى مصر. واستمرت مضايقة حصونهم، وأمسك وإلى الدعوة
والناظر بسرمين، وكان لهم أقارب بالخواني، فأشار عليهم الأمير سيف الدين بلبان الدوادار
بمكاتبة أقاربهم بالتسليم. فحضر منهم جماعة، وأعطاهم السلطان الخلع والنفقات
وأجراهم على رسومهم، فسلموا حصن الخوابي في سنة تسع وستين وستمائة. واستمر
امتناع أهل الكهف والمنيقة والقدموس من التسليم، فرسم السلطان للملك المنصور بمضايقة
الكهف. واستمر ذلك إلى أواخر سنة إحدى وسبعين وستمائة.
فأما المنيقة: فتسلمها نواب السلطان في ثالث ذي القعدة من السنة.
والقدموس: حضر جماعة من أكابر أهلها وبذلوا الطاعة وتسلمت في ذي القعدة.
وأما الكهف: فتسلمه الأمير جمال الدين أقش الشهابي أحد أمراء الشام في ثاني وعشرين
ذي الحجة من السنة، وسيرت مفاتيحه صحبة رسلهم ورسل صاحب حماة، وتكمل بذلك
قلاع الدعوة.
وأقيمت بها الجمع وترضي عن الصحابة رضي الله عنهم، وأظهرت شعائر الإسلام بها.

أخبار هذه الحصون
فأما حصن الكهف: فقد ذكر في الكتب أنه الكف بغيرها، وسمعت أكثر أهل تلك البلاد
لا ينطقون في اسمه بالهاء. وكان هذا الحصن في يد نوا بالعبيديين ملوك مصر، فانتزعه الأمير
ليث الدولة بن عمرون وأخذه، وبقي إلى ولاية سيف الدولة بن عمرون، فذبح على فراشه
في سنة تسع وعشرين وخمسمائة. وتولى ولده الحسن وهو خائف مما جرى على أبيه،
فالتجأ إلى الإسماعيلية، واستدعى قوما منهم وأسكنهم معه في الحصن ليتقوى بهم على
بني عمه الذين يقصدونه. فأخرجوه من الحصن وملكوه إلى هذا الوقت.
وأما القدموس: فإنه كان في يد بني محرز بعد ولاية العبيديين، وكان آخر بني محرز، منير
الدولة حمدان بن حسن بن محرز، فتوفي وملكه بعده ولده علم الدولة يوسف، فضعف عن
حفظه، فسلمه الإسماعيلية في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة.
وأما حصن المنيقة: وهو في جبل الرواديف، وباينه رجل اسمه نصر بن مشرف الروادفي
كان قد استولى على جميع المسلمين الساكنين بجبل الرواديف وما يليه واستحقل أمره،
فأخذ وحمل إلى أنطاكية، فاستتيب وأطلق، فعاد إلى أذية المسلمين والروم، فأخذ وطلب
العفو، وأعطى ولده رهينة. وتنصح للروم وقال: "إن في آخر عمل الروم من آخر جبل
الرواديف ضيعة تعرف بالمنيقة، ومكانها يصلح أن يكون به حصن ليحفظ على جميع
الأعمال". فأجابوه إلى ذلك. فقال: "إن المسلمين لا يمكنونكم من بنائه، وإنما أنا أدفع
المسلمين عنه، وأفهمهم أنني أبنيه لنفسي، فإذا بنيته سلمته لكم"، فاغتر الروم بقوله وأعانوه،
فلما بناه استعصى به، وشرع في بناء حصن آخر امنع منه. ثم إن نقيطا قطبان أنطاكية
أتى إلى الحصن وحاصره في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، فلم يظفر به، ثم عاد إليه
وملكه وخرب أبرجته إلى الأرض، ثم عمرت وصارت بعد ذلك للإسماعيلية.
وأما حصن الخوابي: وهو من جبل بهراء، فإن محمد بن علي بن حامد سلمه للروم في
سنة إحدى عشرة وأربعمائة، ثم صار للإسماعيلية.

هذا ما أمكن إيراده من أخبار هذه الفتوحات وابتداء أمر هذه الطائفة.
فلنذكر خلاف ذلك من الغزوات الظاهرية والفتوحات، وما يتخلل ذلك ويناسبه من الصلح
والمهادنات إن شاء الله تعالى.
غزوات السلطان وفتوحاته
وما وقع من المصالحات والمهادنات
ولنبدأ من ذلك بالأمور التي أوجبت انحراف السلطان عن الفرنج بالبلاد الساحلية وأخذ
بلادهم.
قد ذكرنا ما كان قد تقرر من الهدنة عند وصول السلطان إلى الشام في سنة تسع وخمسين
وستمائة، وأن الفرنج لم يفوا بما تقرر من إطلاق الأسرى، فلما وصل السلطان إلى جهة الطور
على ما قدمناه في سنة إحدى وستين عند القبض على الملك المغيث صاحب الكرك،
وكان الفرنج قد شرعوا يحيدون عن الحق ويطلبون زرعين، والسلطان يجاوبهم "إنكم أخذتم
العوض عنها في الأيام الناصرية ضياعا من مرج عيون، وقايضهم بها صاحب تبنين". ثم
وردت رسلهم الآن يهنئون بالسلامة ويقولون: "ما عرفنا بوصول السلطان". فأجابهم: "إن
من يريد يتولى أمرا ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه هذه العساكر وجهل ما علمه
الوحوش في الفلاة والحيتان في المياه من كثرة هذه العساكر، التي لعل بيوتكم ما فيها موضع
إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر، ولعل وقع سنابكها قد أصم سماع
من وراء البحر من الفرنج وفي موغان من التتار. فإذا كانت هذه العساكر تصل إلى أبواب
بيوتكم ولا تدرون بها فأي شيء تعلمون". وانفصل الرسل على هذا الحال.
ووصلت نواب يافا، ونواب أرسوف بهدية أخذت منهم، وكانت كتبهم وردت قبل ذلك
مضمونها: طلب فسخ الهدنة والندم عليها، فصارت ترد الآن ببقائهم عليها وتمسكهم
بالمواثيق.
وجرت أمور ومراسلات يطول شرحها اقتضت تغير السلطان، ثم كاتبهم السلطان يقول:
"أنتم في أيام الملك الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف على أنكم تنجدونه على

السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخرجتم جميعا خدمته ونجدته، وجرى ما جرى
من خذلانه، وقتلكم وأسركم واسر ملوككم ومقدميكم. وقد نقصت تلك الدولة ولم
يؤاخذكم السلطان الشهيد عند فتوجه البلاد وأحسن إليكم، فقابلتم ذلك بأنكم رحتم إلى
الريد أفرانس وأتيتم صحبته إلى مصر وساعدتموه حتى حوى عليكم ما جرى من القتل
والأسرة، فأي مرة وفيتم فيها لملكة مصر. وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح
إسماعيل إعانة مملكة الشام وطاعة ملكها ونصرته، وقد صارت ملكة الشام وغيرها لي وأنا
لا أحتاج إلى نصرتكم، فتردون ما أخذتموه بهذا الطريق، وتفكون جميع أسرى المسلمين،
وغير ذلك لا أقبله." فلما سمعوا هذه المقالة قالوا: "نحن لا ننقص الهدنة ونطلب مراحم
السلطان في استدامتها، ونفك الأسرى". فقال السلطان: "كان هذا قبل خروجي في هذا
الشتاء ووصول هذه العساكر". وانفصلوا على هذه الصورة، وامر أنهم لا يبيتون في
الوطاق. ورسم بهدم كنيسة الناصرة وهي أكبر مواطن عبادات النصرانية. فتوجه الأمير
علاء الدين طيبرس الوزيري إليها وهدمهاإلى الأرض، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجية أن
يخرج من باب عكا. ثم جرد السلطان الأمير بدر الدين الأيدمري وصحبته جماعة فتوجهوا
إلى جهة عكا وهجموا إلى ابوابها، ثم توجه الأمير المذكور مرة أخرى فأغار على المواشي
واستباح منها شيئا كثيرا، وأحضر ذلك إلى المخيم المنصور.
ذكر مسير السلطان إلى عكا
وفي ليلة السبت رابع جمادى الآخرة سنة إحدى وستين: ركب السلطان وجرد من كل
عشرة فارسا صحبته، واستناب الأمير شجاع الدين الشبلي أمير مهمندار في الدهليز،
وساق من منزلة الطور نصف الليل. فلما أصبح وقف قريب عكا الوادي الذي بقربها،
ومنه يشرف عليها. وامر الناس بلبس السلاح ورتب العساكر وساق وطاف بعكا من
جهة البر، وسير جماعة إلى برج كان قريبا منها فيه جماعة فحاصروه، وللوقت عملت فيه
الثقوب إلى قرب وقت المغرب والفرنج ينظرون من أبواب المدينة وتل الفضول. ثم رجع

السلطان إلى الدهليز قريب البرج المذكور عند الماء. ولما أصبح ركب وساق إليها، وكان
الفرنج قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاثر في الطريق. ووقف الفرنج صفوفا
على التل، ورتب السلطان العساكر للقتال بنفسه، وردمت تلك الخنادق بحوافر الخيل وايدي
الغلمان والفقراء والمجاهدين. وطلع الناس إلى تل الفضول وانهزم الفرنج إلى المدينة. وحرق
الناس ما حول عكا من الأبراج والأسوار وقطعوا الأشجار. وساق العسكر إلى أبواب
عكا يقتلون ويأسرون، فقتل جماعة كثيرة من الفرنج في ساعة واحدة، وأسرت جماعة
بخيولهم، وجرح أكابرهم ووقعوا في الخندق بخيولهم، وهرب من بقي من الفرنج إلى
الأبواب. ثم ساق السلطان وقت العصر إلى البرج الذي كان النقابون علقوه، ووقف حتى
رمي وأخرج منه بالأمان أربعة خيالة أخوة ، ونيف وثلاثين راجلا "وبات السلطان على
ذلك". واصبح السلطان وكشف بلاد الفرنج مكانا مكانا، وعبر على كنيسة الناصرة، ثم
رجع على مبسطة كان قد أمر ببنائها قبالة الطور، وأوقد الشموع وأحضر الصاحب فخر
الدين وزير الصحبة، وجماعة كتاب الدرج، وكتاب الجيش، والسديد المعز مستوفي
الصحبة. وجعل الأمير سيف الدين بلهان الزيني أمير علم جالسا عند ديوان الجيش لكتابة
الأمثلة وتجهيز الطلبخاناه، والأتابك بين يدي السلطان. واستدعى من جشاراته حمسمائة
فرس برسم الطلبخاناه وخيول الأمراء، وأحضرت الخلع الكثيرة، ولم تزل المثالات والمناشير
تكتب والسلطان يعلم، وكتب بين يديه في تلك الليلة ستة وخمسون منشورا كبارا بخطب
وهو يعلم، والنائب يكتب، "وكتاب" ديوان الجيش يثبتون، ومستوفي الصحبة ينزل حتى
كملت بين يديه. واصبح السلطان فخلا بنفسه وجهز الطلبخاناه والصناجق والخيل والخلع
للأمراء، وجعل الأمير ناصر الدين القيمري نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية، ورحل من
الطور وتوجه إلى الكرك وفتحها على ما قدمنا ذكره.

ذكر قصد متملك الأرمن حلب المحروسة

وفي سنة اثنتين وستين وستمائة: وصل هيتوم بن قسطنطين متملك الأرمن من جهة

هولاكو، وتوجه قبل دخوله إلى بلاده إلى السلطان ركن الدين صاحب الروم، فعزم "صاحب
الروم" على الإيقاع به على غرة، ثم ينسب ذلك إلى التركمان، فشعر هيتوم بذلك، وكان قد
استصحب معه قاضي بلاد هولاكو ليصلح بينه وبين صاحب الروم، وأعطاه كثيرا
واستماله، فقال له هيتوم: "لا أقدر على دخول بلاد الروم حتى تحضر جماعة من التتار
يخفرونني"ز فكتب القاضي إلى التتار الذين بالروم، فحضر منهم أربعمائة فارس، فتوجه بهم
إلى السلطان ركن الدين، فخرج إليه وتلقاه مترجلا لأجل القاضي، والأرمتي لم يترجل، وقدم
كل منهما للآخر تقدمة، لكن كانت تقدمة صاحب الروم لهيتوم أكثر، ثم جاءوا جميعهم إلى
هرقلة وتحالفا واتفقا، واهتم هيتوم بجدمع العساكر لقصد البلاد الإسلامية. وكان في
عسكره من بنى كلاب ألف فارس فقصد عين تاب. وكان السلطان قد اطلع على هذا
الأمر لاهتمامه بالاستطلاع على الأخبار، فسير إلى عسكر حماة وعسكر حمص بالتوجه
إلى حلب، فتوجهوا، وتوجه جماعة من العسكر المصري، فأغاروا على الأرمن وأسر أمير
من أمراء هيتوم، وأخذ له مائة جمل من البخاتي فولوا منهزمين، وقتل منهم جماعة، وجرح
صاحب حموص قرابة هيتوم الملك جراحة شديدة، فكتب الأرمني إلى التتار الذين بالروم،
وهم سبعمائة، فحضروا إليه لقصد الشام؛ فلما وصلوا إلى مرج حارم وقعت ثلوج شديدة،
وكان الأرمني قد كتب إلى أنطاكية يطلب نجدة، فأنجد منها بمائة وخمسين فارسا، ولبسوا
كلهم السراقوجات تشبها بالتتار، واجتمعوا كلهم بالقرب من مرج حارم فكادوا يهلكون من
كثرة الثلوج والأمطار، وخرج العسكر المنصور لقصدهم، وانقطعت عنهم الميرة فتأخروا
راجعين، فعدم من أصحاب الأرمني مائة وعشرون فارسا، وثلاثون تتريا، وستة من خيالة
أنطاكية وجماعة من رجالتهم.
ثم اهتم هيتوم بعد ذلك وجمع العساكر وفصل ألف قباء تتري وألف سراقوج ألبسها
أصحابه، ليوهم أنهم نجدة من التتار. فجرد السلطان عسكرا من دمشق إلى حمص

وجماعة من حماة، وتوجه الأمير حسام الدين العين تابي فأغار على مرزبان وقتل واسر
وعاد سالما. وتوالت الغارات من جميع الجهات، فتفرق جمع هيتوم، وعدل العسكر
الإسلامي إلى أنطاكية فغنم وقتل وأسر.
وفي جمادى الآخرة منها: أغارت العساكر التي بالساحل صحبة الأمير ناصر الدين القيمري
ووصلت إلى أبواب عكا.
وفي شهر رمضان من السنة: وصل كتاب الأمير ناصر الدين المذكور، يذكر أن بلغه أن
الفرنج توجهوا إلى جهة يافا، فأمره السلطان بالغارة على قيسارية وعثليث، فساق إلى باب
عثليث فنهب وقتل واسر، ثم ساق إلى قيسارية واعتمد فيها مثل ذلك . فرجع الذين
بيافا.
محاصرة التتار البيرة
وتجريد العساكر وانهزام العدو
كان السلطان قد توجه إلى جهة العباسة، في أوائل سنة ثلاث وستين وستمائة، للصيد
ورمى البندق كما قدمناه، فأتته الأخبار أن التتار قد جمعوا ونازلوا البيرة، وللوقت أمر
الأمير بدر الدين الخزندار بالركوب على الخيل السوابق إلى القلعة، وأنه ساعة وصوله يجرد
أربعة آلاف فارسا من العسكر الخفيف. ورجع السلطان إلى القلعة فبات ليلة واحدة،
وجهز الأمير عز الدين إيغان ورسم له بتقدمة العساكر وصحبته الأمير فخر الدين الحمصي،
والأمير بدر الدين بيليك الأيدمري، والأمير علاء الدين كشتغدى الشمسي وجماعة من
الأمراء والحلقة. وتوجهت هذه العساكر في رابع عشر ربيع الأول، وأمر الأمير جمال الدين
إيدغدي الحاجبي بالسفر في أربعة آلاف فارس آخر، فخرجوا بعد العسكر الأول بأربعة
أيام، وشرع السلطان في التجهيز، وخرج في خامس شهر ربيع الآخر، ورحل في سابع الشهر،
ووصل إلى غزة في العشرين منه، فوصلت كتب النواب: إن العدو نصب على البيرة سبعة
عسرة منجنيقا. فكتب إلى الأمير عز الدين إيغان يستحثه على سرعة الحركة، ويقول:
"متى لم تدركوا هذه القلعة؟ ةإلا سقت إليها بنفسي جريدة".
فساق العسكر وحث

السير، فلما كان في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر، ورد البريد من جهة الأمير
جمال الدين النجي نائب السلطنة بالشام وعطف كتابه بطاقة من الملك المنصور صاحب
حماة مضمونها: إنه وصل إلى البيرة بالعساكر المنصورة صحبة الأمير عز الدين إيغان، وإن
التتار عندما شاهدوه هربوا ، ورموا مجانيقهم وغرقوا وغرقوا مراكبهم، وانهزموا لا يلوي
أحد منهم على أحد. ثم وصلت أربعة من مماليك الأمراء بالبشارة. وورد كتاب الأمير
جمال الدين أقوش المغيثي النائب بالبيرة يذكر صورة الحال، وإنه لما كثر العدو على القلعة
وطم الخندق، حفر أهل البيرة حفيرا قدر قامة، وعملوا منه سردابا نافذا إلى الأحطاب،
التي كان العدو رماها في الخندق فأضرموا فيها النار، فاحترقت جميعها، ثم سد المسلمون
السرب المحفور. وذكر مصابرة أهل الثغر، وإن نساءهم فعلن من حسن البلاء في مصابرة
الأعداء ما لم يفعله الرجال. ومن جملة ما وصف أن برجا واحدا كان عليه خمسة عشرة
منجنيقا وثبت شهرين. فكتب السلطان بإطابة قلوب من بالثغر، وعيت أمثلة بالإقطاعات
لمن جاهد من البحرية وغيرهم بالبيرة. واستشهد صارم الدين بكتاش الزاهدي أحد
الأمراء المجردين بها بحجر منجنيق، وترك موجودا كثيرا وبنتا واحدة؛ فرسم السلطان
بجميع ميراثه لابنته. واهتم السلطان بأمر القلعة، وكتب إلى جميع القلاع والولايات بما
يحملون إلى هذا الثغر من الأموال والغلال والأسلحة والعدد وغير ذلك، مما يحتاج أهل هذه
القلعة إليه لمدة عشر سنين. وكتب إلى الأمراء والملك المنصور صاحب حماة أنهم لا
يتحركون من مكانهم حتى ينظفوا الخندق وينقلوا الحجارة التي فيه، ففعلوا ذلك وأقاموا مدة
بسببه. ووردت كتب الأمراء يخبرون أنه لما كانت نوبة الأمير عز الدين إيغان والأمير فخر
الدين الحمصي والأمير بدر الدين الأيدمري وجماعة من البحرية، وكانت خيلهم ترعى في
الجانب الشامي وهم يعملون، فأحاط بهم في القابلة التتار المغل ملبسين، فأجمعوا ورموهم
بالنشاب وأنكرهم بالجراحات فولوا منهزمين، وساق العسكر خلفهم فوجدوا منهم جماعة

قد هلكوا في الطريق من الجراحات، وقتل جماعة في ذلك اليوم. فاستدعى السلطان من
الديار المصرية مائتي ألف درهم ومائتي تشريف، وكتب إلى دمشق بتجهيز مائة تشريف
ودراهم، وجهز ذلك إلى البيرة، وكتب إلى الأمير عز الدين إيغان بأن يحضر أهل القلعة
جميعهم من الأمراء والجند والعوام ويخلع عليهم وينفق فيهم المال حتى الحراس والضوية. ثم
عاد الأمراء بعد أن نظفوا الخندق ونقلوا إلى القلعة زلطا كثيرا. ولما وصلوا رسم السلطان
أن يكون الأمير جما الدين المحمدي مقدما على العساكر المصرية والشامية لكبر سنه،
والأمير عز الدين إيغان يتحدث في المهمات وإطلاق الأموال وترتيب أمور البلاد.
هذا ما اتفق من أمر البيرة. فلنذكر ما افتتحه السلطان من البلاد الساحلية في هذه
السفرة.
ذكر الفتوحات بالبلاد الفرنجية في هذه السفرة
قال: لما وصلت الأخبار إلى السلطان وهو بالساحل بانهزام التتار، واستقر خاطره من
تلك الجهة، ثنى أعنته إلى جهة الفرنج وجرد العزائم نحوهم. وركب من العوجاء بعد
رحيل الأطلاب للصيد في غابة أرسوف. ورتب الحلقة ودخل الغابة وتصيد. ثم ساق إلى
أرسوف وقيسارية وشاهدهما وعاد إلى دهليزه، فوجد أخشاب المجانيق قد وصلت
صحبة زرد خانا. فأمر الأمير عز الدين أمير جاندار أن ينصب عدة مجانيق مغربية
وفرنجية، فعمل في ذلك اليوم أربع منجنيقات كبار وعدة من الصغار. وكتب إلى القلاع
يطلب المجانيق والصناع والحجارين ورسم للعسكر بعمل سلاليم وعين لكل أمير عدة منها،
ورحل إلى قريب عيون الأساور وأمر العسكر بعد العشاء الآخرة بلبس السلح واخذ أهبة
الحرب، وركب قريب وقت الصبح وساق إلى قيسارية على حين غفلة من أهلها.
فتوح قيسارية
نزل السلطان عليها في يوم الخميس تاسع جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وستمائة، وللوقت
طاف بها وهاجمها الناس، والقوا نفوسهم في خنادقها، وعمدوا إلى سك الخيل الحديد

والشبح والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب، ونصبت عليها السناجق، وحرقت
أبوابها، فهرب أهلها إلى قلعتهم. فنصبت المجانيق على القلعة وهي من أحصن القلاع
أحسنها، وتعرف بخضراء. وكان الريدا فرانس حمل إليها العمد الصوان وأتقنها، ولم يرى في
الساحل أحسن منها عمارة ولا أمنع ولا أرفع، لأن البحر حاف بها، وجايز في خنادقها،
والنقوب لا تعمل فيها للعمد الصوان المصلبة في بنائها، حتى إذا علقت لا تقع. فاستمر
الزحف عليها ورمى المنجنيقات وعملت دبابات وزحافات. وكان السلطان يركب في
بعض الدبابات وتجر من تحت بالعجل حتى يصل إلى الأسوار ويرى النقوب واخذ في بعض
الأيام بيده ترسا وقاتل، وما رجع إلا وفي ترسه عدة سهام.
وفي ليلة الخميس منتصف
الشهر حضر الفرنج وسلموا القلعة بما فيها، وتسلق المسلمون إليها من الأسوار وحرقوا
الأبواب ودخلوا من أعلاها واسفلها، وأذن بالصبح عليها. وطلع السلطان إلى القلعة قسم
المدينة على أمرائه وخواصه ومماليكه وحلقته، وشرع في الهدم واخذ بيده قطاعة وهدم
بنفسه ويده.
وقيسارية هذه من المدن القديمة فيحت في صدر الإسلام في سنة تسع عشرة للهجرة، على
يد معاوية بن أبي سفيان، بعد قتال عظيم، ولم يكن معاوية امير الجيش، إنما كان من قبل
أخيه يزيد بن معاوية.
وفي جماد الأول: جرد السلطان الأمير شهاب الدين القيمري بجماعة من عسكر الساحل
لجهة بيسان، فسير جماعة من العربان والتركمان للإغارة على عكا فأغاروا ووصلوا إلى
أبوابها وغنموا وعادوا .
التوجه إلى عثليث
وأخذ حصن الملوحة وحيفا
قال: ولما قارب السلطان الفراغ من هدم قيسارية سير الأمير شمس سنقر الألفي الظاهري،
والامير سيف الدين المستعربي، وجماعة فهدموا قلعة للفرنج عند الملوحة وكانت عاصية
فدكوها إلى الأرض.
وفي سادس وعشرين جمادى الأولى: توجه السلطان إلى عثليث جريدة، وسير الأمير

شمس الدين سنقر السلاح دار الظاهري والأمير عز الدين الحموي، والأمير شمس الدين
سنقر الألفي الظاعري إلى حيفا، فساروا إليها ودخلوا قلعتهما، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى
المراكب بعد أن قتل منهم وأسر. وأحضرت الأسرى والرؤوس، وأخربوا المدينة وقلعتها
وأحرقوا أبوابها، وذلك جميعا في يوم واحد. وأما السلطان فإنه وصل إلى عثليث وأمر
بتشعيثها وقطع أشجارها، فقطعت جميعها وخربت أميتها في ذلك النهار، وعاد السلطان
إلى قيسارية وكمل هدمها.

فتوح أرسوف

وفي تاسع وعشرين جمادى الأولى من السنة: رحل السلطان من قيسارية وسار إلى
أرسوف، فنازلها في مستهل جمادى الآخرة، وأمر بنقل الأحطاب فصارت حولها كالجبال
الشاهقة، فعملت منها الستائر، وأمر بحفر سربين من خندق المدينة إلى خندق القلعة،
وأسقفت بالأخشاب وسلمها لأكابر الأمراء، وعمل طريق من الخندقين إلى القلعة، فخرج
الفرنج لإحراق الأحطاب فطلبهم الأمير سيف الدين قلاون الألفي وغيره، وقلب على
الأحطاب المياه فطفئت النيران. ولما تكامل ردم الخندق بالأحطاب، تحيل الفرنج ونقبوا من
داخل القلعة إلى أن وصلوا إلى تحت الردم وعملوا بتاتي ملآنة أدهانا وشحوما وأضرموا
النيران وعملوا في النقوض المفاتح، ولم يعلم العسكر بذلك إلا بعد تمكن النيران، فاحترقت
تلك الأحطاب جميعها وكان ذلك الليل. وجاء السلطان بنفسه وسكب المياه بالروايا، فلم
تقد شيئا. فعند ذلك تقدم السلطان إلى الأمير شمس الدين سنقر الرومي والأمير بدر الدين
بيسرى، والأمير بدر الدين الحزندار، والأمير شمس الدين الدكز الكركي، وجماعة من
الأمراء، وهم نصف الأمراء الصنجقية، وميمنة الأمراء البحرية، وميمنة الأمراء البحرية،
وميمنة الأمراء الظاهرية، وميمنة الحلقة، بأن يأخذوا من مكانهم في باب السرب من
حافات الخندق من جهة سورة حفرا إلى البحر الملح. وتقدم إلى الأمير سيف الدين قلاون
الألفي، والأمير علم الدين الحلبي، والأمير سيف الدين كرمون وجماعة الأمراء، وهم نصف

الأمراء الصنجقية من جهة الميسرة وميسرة الحلقة والبحرية، بأن يحفروا من الجهة الأخرى،
وأن يحفر"وا" من كل ناحية من هذه النواحي سربا يكون حائط خندق وساترا له. وتحفر
في هذا الاحائط أبواب يرمى التراب فيها ويترك في هذه السروب حتى يساوي أرضها
بأرض الخندق، وعذق هذا الأمر بعز الدين أيبك الفخري أحد أصحاب الأتابك، فاستمر
العمل في هذه الخنادق والسلطان طائف فيها بنفسه ويعمل بيده، وهو تارة في السروب،
وتارة في الأبواب التي تفتح، وتارة على حافة البحر، ويرامي مراكب الفرنج ويجر في المنجنيق
ويرمي من الستائر.
وحكى عنه الأمير جمال الدين بن نهار، رحمه الله، قال: "رأيت السلطان في هذا النهار
رمى بثلاثمائة سهم نشابا". واتفق أن السلطان حضر إلى السرب وقعد في رأسه خلف
طاقة يرمى فيها، فخرج جماعة من الفرنج الفرسان ومعهم الرماح بالخطاطيف فلم يشعر إلا
وهم على باب السرب، فقام وقاتلهم يدابيد، وكان معه الامير شمس الدين سنقر الرومي
والأمير بدر الدين بيسرى والأمير بدر الدين الحزندار وغيرهم. وصار سنقر الرومي يناوله
الحجارة، فقتل بها فارسين، وقطع الأمير حسام الدين الدوادار أحد الخطاطيف بسيفه
وجرح في عضده، ورجع الفرنج على أسوأ حال.
وحضر في هذه الغزاة جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء والفقراء وأصناف العباد، ولم
يعهد فيها خمر ولا شيء من الفواحش، بل كانت النساء الصالحات يسقين الملء ويجرون في
المجانيق. وأطلق السلطان لجماعة من الصالحين الرواتب مثل: الشيخ على المجنون والشيخ
إلياس، وأطلق للشيخ على البكا جملة من المال.
قال: واهتم بأمر المجانيق واحضرها من دمشق، وعمل كرمون أغا منجنيقا بسبعة سهام
وأثر أثرا حسنا. وكان للأمير عز الدين أيبك الأقرم أمير جاندار في هذه الغزاة أوفر نصيب،
وهو الذي تولى أمر المجانيق.
قال: ولما أثرت المجانيق في هذه الأسوار ونجزت الأسربة التي إلى جانب الخندق من الجهتين
وفتحت فيها أبواب متسعة حصل الزحف على أرسوف في يوم الاثنين ثامن شهر رجب

سنة ثلاث وستين وستمائة، وافتحت في يوم الخميس. وذلك أن الباشورة سقطت في
الساعة الرابعة من النهار، وطلع المسلمون إليها تسلقا، وما أحس الفرنج بالمسلمين إلا وقد
خالطوهم من كل باب. ورفعت الأعلام على الباشورة، وحفت بها المقاتلة، وطرحت
النيران في أبوابها. وأعطى السلطان صنجقة للأمير شمس الدين الرومي، وأمره أن يؤمن
الفرنج به من القتل عندما طلبوا الأمان. فلما رآه الفرنج بطلوا القتال، وسلم الصنجيق
للأمير علم الدين سنجر المسروري الحاجب المعروف بالخياط، ودليت له الحبال من
قلعةأرسوف فربطها في وسطه والصنجق معه، ونشله الفرنج إلى القلعة فأخذ سيوفهم،
وأحضروا في الجبال "إلى السلطان".
ولما خلت القلعة من الفرنج أباجها السلطان للمسلمين بجميع ما فيها من أموال وغلال
وذخائر، وكان بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض "لشيء" منها إلا لما اشتراه بالمال.
وكان في أسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا في تلك الساعة وأخذت قيودهم وقيد بها
الفرنج. وجرد جماعة من المقدمين يتوجهون مع الأسرى. وسير لكل أمير جماعة. وشرع
السلطان في تقسيم أبراج أرسوف على الأمراء، وجعل هدمها دستورهم، ورسم بأحضار
الأسارى لإخرابها، فكانوا كما قال الله تعالى: "يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين".
ورحل السلطان عن أرسوف بعد استكمال هدمها في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر
رجب سنة ثلاث وستين وستمائة.
ما ملكه السلطان لأمرائه
من النواحي التي فتحها الله يده
قال: لما فتح الله تعالى على السلطان قيسارية أمر الأمير سيف الدين الدوادار الرومي
بكشف بلادها وتحقيق متحصلاتها، وعملت أوراق بذلك. ولما فتح الله أرسوف طلب
"السلطان" قاضي القضاة بدمشق وجماعة من العدول ووكيل بيت المال، وتقدم بأن يملك
الأمراء "المجاهدون" من البلاد التي فتحها الله على يديه ما يأتي ذكره. وكتبت التواقيع لكل
منهم ولم يطلعوا عليها، ولما كملت التواقيع قرئت على أربابها، وكتب بذلك مكتوب جامع

بالتمليك:
ونسخته بعد البسملة:
أما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة العقود، وتمكينه الذي وفلت الملة الإسلامية منه
في أصفى البرود، وفتحه الذي إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وفعه علمت أنه
علمت أنه الأمر ما يسود من يسود.
والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاهد الكفار، وجاهرهم بأعمال السيف البتار،
وأعلمهم لمن عقبي الدار، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتواصل بالعشي
والإبكار.
فإن خير النعم نعمة وردت بعد اليأس، وجاءت بعد توحشها وهي حسنة الإيناس،
وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس، "وصرعت أبواب الجهاد وقد غلقت في
الوجوه، وأنطقت السنة المنابر وشفاة المحابر بالبشائر التي ما اعتقد أحد أنه بها يفوه"، فأكرم
بها نعمة على الإسلام وصلت للملة المحمدية أسبابا، وفتحت للفتوحات أبوابا، وهزمت من
التتار والفرنج العدوين، ورابطت بين الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين، وجعلت
عساكر الإسلام تذل الفرنج بغزوهم في عقر الدار، وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار
والأمصار، وتملأ خنادقهم بشاهق الأسوار، وتقود من فضل عن شبع السيف الساغب في
قبضة القيد إلى حلقات الأسار. ففرقة منها تقتلع للفرنج قلاعا وتهدم حصونا، وفرقة تبني
ما هدم التتار بالمشرق وتعليه تحصينا. وفرقة تتسلم بالحجاز قلاعا شاهقة وتتسم هضابا
سانقة، فهي بحمد الله البانية الهادمة والمفيدة العادمة والقاسمة الراحمة. كل ذلك بمن اقامه
الله للأمة الإسلامية راحما، وجرد به سيفا قد شحذت التجارب حديه ففرى، وحملت
رياح النصرة ركابه تسخيرا فسار إلى مواطن الظفر وسرى، وكونته السعادة ملكا إذا رأته
في دستها قالت تعظما: "هذا ملك ما هذا بشرا". وهو مولانا السلطان الأجل العالم العادل
المؤيد المنصور، ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين،
محيي الدل في العالمين، قاتل الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، سلطان بلاد الله،

حافظ عباد الله، وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك، اسكندرالزمان، صاحب
القرآن، ملك البحرين صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، الآمر ببيعة الخليفتين صلاح
الجمهور صاحب البلاد والأقاليم والثغور، فاتح الأمصار، مبيد التتار، ناصر الشريعة
المحمدية، رافع علم الملة الإسلامية، مقتلع القلاع من الكافرين، القائم بفرض الجهاد في العالمين
أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين، جعل الله سيوفه مفاتيح البلاد وأعلامه أعلاما من
الأسنة، على رأسها نار لهداية العباد، فإنه آخذ البلاد ومعطيها، وواهبها بما فيها، وإذا
عامله الله بلطفه شكر، وإذا قدر عفا وأصلح، فكم وافقه قدر، وإذا أهدت إليه النصرة
فتوجا بسيفه قسمها في حاضريها لذيه منكرما، وقال الهدية لمن حضر، وإذا خوله الله
تخويلا من بلاد الكفر وفتح على يديه قلاعا جعل الهدم للأسوار، والدماء للسيف البتار،
والرقابللإسار، والنواحي المزروعة للأولياء والأنصار، ولم يجعل لنفسه إلا ما تسطره الأملاك
في الصحائف لصاحفه من الأجور، وتطوي عليه طويات السير التي غدت بما فتحه الله من
الثغور باسمه الثغور.

فتى جعل البلاد من العطايا فأعطى المدن واحتقر الضياعا
سمعنا بالكرام وقد رأينا عيانا ضعف ما فعلوا سماعا
إذا فعل الكرام على قياس جميلا كان ما فعل ابتداعا

ولما كان - خلد اله سلطانه - بهذه المثابة، وفتح الفتوحات التي أجزل الله بها أجره
وثوابه، وله أولياء كالنجوم إنارة وضياء، وكالأقدار نفاذا ومضاء، وكالعقود تنافسا، وكالوبل
تلاحقا إلى الطاعة وتسابقا، وكالنفس الواحدة عبودية له تصادقا، رأى - خلد الله سلطانه
- أن ينفرد عنهم بنعمة، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ، وبعزائمهم
تستخلص، وأن يؤثرهم على نفسه، ويقسم عليهم الأشعة من أنوار شمسه، ويبقى للولد
منهم وولد الولد ما يدوم إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد، ويعيش الأبناء في نعمته كما
عاش الآباء. وخير الإحسان ما شمل، وأحسنه ما خلد، فخرج الأمر العالي لا زال يشمل
الأعقاب والذراري، وينير إنارة الأنجم الدراري، أن يملك جماعة إمرائه وخواصه الذين

يذكرون، وفي هذا المكتوب الشريف يسطرون، ما يعين من البلاد والقرى والضياع على ما
يشرح ويبين من الأوضاع وهو:
المولى الأتابك فارس الدين أقطاي الصالحي عتيل بكمالها
الأمير جمال الدين إيدغدي العزيزي النصف من زيتا
الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي الصالحي نصف طور كرم
الأمير بدر الدين بيليك الخزندار الظاهري نصف طور كرم
الأمير شمس الدين الدكز الكركي ربع زيتا
الأمير سيف الدين قليج البغدادي ربع زيتا
الأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحي أفراسين بكمالها
الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحي باقة الشرقية بكمالها
الأمير عز الدين أيدمر الحلى الصالحي نصف قلنسوة
الأمير شمس الدين سنقر الرومي الصالحي نصف قلنسوة
الأمير سيف الدين قلاون الألفي الصالحي نصف طيبة الاسم
الأمير عز الدين إيغان الركني سم الموت نصف طيبة الاسم
الأمير جمال الدين أقش النجيبي نائب سلطنة الشام أم الفحم بكمالها من قيسارية
الأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحي بثان بكمالها
الأمير جمال الدين أقش المحمدي الصالحي نصف بورين
الأمير فخر الدين الطنبا الحمصي نصف بورين
الأمير جمال الدين أيدغدي الحاجبي الناصري نصف بيزين
الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري الصالحي نصف بيزين
الأمير فخر الدين عثمان بم الملك المغيث ثلث حلمة
الأمير شمس الدين سلار البغدادي ثلث حلمة
الأمير صارم الدين ضراغان التتري ثلث حلمة
الأمير ناصر الدين القيمري نصف البرج الأحمر
الأمير سيف الدين بلبان الزيني الصالحي نصف البرج الأحمر
الأمير سيف الدين إيتامش السعدي نصف يما
الأمير شمس الدين آفسنقر السلحدار الظاهري نصف يما
الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة نصف ديابة
الملك المظفر علاء الدين أخوه صاحب سنجار نصف ديابة
الأمير بدر الدين محمد بي بن أبي بركة خان دير الغصون بكمالها
الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار نصف الشويكة
الأمير سيف الدين كرمون أغا "التتري" نصف الشويكة
الأمير بدر الدين بيليك الوزيري نصف طبرس
الأمير بدر الدين منكورس الدواداري نصف طبرس
الأمير سيف الدين قشتمر العجمي علار بكمالها
الأمير علاء الدين أخو الدوادار نصف عرعرا
الأمير سيف الدين سنجق البغدادي نصف عرعرا
الأمير سيف الدين دكاجك البغدادي نصف فرعون

الأمير علم الدين سنجر الأزكشي نصف فرعون
الأمير علم الدين سنجر طردح الأمدي استابا بكمالها
الأمير حسام الدين إيتمش بن أطلس خان سيدا بكمالها
الأمير علاء الدين كندغدي الظاهري أمير مجلس الصبر الفوقا
الأمير عز الدين أيبك الحموي الظاهري نصف أرتاح
الأمير شمس الدين سنقر الألفي نصف أرتاح
الأمير علاء الدين طيبرس الظاهري نصف باقة الغربية
الأمير علاء الدين علي سكز نصف باقة الغربية
الأمير عز الدين أيدمر الفخري الأتابكي القصير بكمالها
الأمير علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري أخصاص بكمالها
الأمير ركن الدين بيبرس المعزي نصف قفين
الأمير شجاع الدين" طغريل الشبلي" أمير مهمندار نصف كفر راعي
الأمير علاء الدين كندغدي الحبيشي مقدم الأمراء البحرية نصف كفر راعي
الأمير شرف الدين يعقوب بن أبي القاسم نصف كسفا
الأمير بهاء الدين يعقوب بن الشهرزورى نصف كسفا
الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستاد الدار العالية نصف برويكة
الأمير علم الدين سنجرا الحلبي الغزاوي نصف برويكة
الأمير علم الدين سنجرا أمير جاندرا نصف حانوتا من أرسوف
الأمير سيف الدين بيدغان الركني فردسيا بكمالها من قيسارية
الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الكرك ثلث جبلة من أرسوف
الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري ثلث جبلة من أرسوف
" الأمير جمال الدين أقوش السلاح دار الرومي ثلث جبلة من أرسوف"
الأمير برد الدين بكتاش الفخري أمير سلاح ثلث جلجولية
المير بدر الدين بكتوت بجكا الرومي ثلث جلجولية
الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي الصالحي ثلث جلجولية
وكتب في كتاب التمليك الشرعي الجامع نسخ، وفرقت لكل أمير نسخة بمكانه، وخلع على
قاضي القضاة، وتوجه "السلطان" إلى دمشق.
قصد البرنس صاحب طرابلس حمص
وانهزامه
وفي ثامن صفر سنة أربع وستين وستمائة، جمع البرنس بيمند بن بيمند جموعه، واستنصر
بالدولة والإسبتار، وقصد جهة حمص. وكان النائب بها الأمير علاء الدين " سنجر"
الباقشردي قد اطلع على حركته، فاحترز وجعل الطلائع على المخائض. فقصد البرنس

مخاضة بلاله فسيقه الباقشردي إليها وملكها . فلما جاء البرنس ورآها قد ملكت عدل
إلى غيرها فقويت نفوس المسلمين ، وعدوا الماء إليه وتبعوه فانهزم ، وساقوا خلفه يقتلون
ويأمرون وينهبون إلى أن توغل في بلاده .
إغارة العساكر على طرابلس بالشام
وفتح قلعة حلبا وقلعة عرقا
وفي سنة أربع وستين وستمائة في شهر رجب ، أهتم السلطان بأمر الغزاة ، وطلب
الأجناد من إقطاعاتهم من سائر أعمال الديار المصرية .
فحضروا بأجمعهم . وخرج
السلطان في مستهل شعبان ورحل في ثالثه . ولما وصل إلى غزة جرد الأمير جمال الدين
أيدغدي العزيزي والأمير سيف الدين قلاون الألفي وجماعة من العسكر المنصور . وتوجه
السلطان لزيارة البيت المقدس والخليل، صلوات الله عليه، فزار وكشف المظالم ومد سماط
الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، وأكل منه وأكل الناس ، وفرق جملة من المال على الأئمة
والفقراء والمؤذنين والعوام وغيرهم ، وبلغه أن اليهود والنصارى يؤخذ منهم حقوق زيارة
الخليل ، والنزول في المغارة ، فأنكر ذلك ، وكتب مرسوما بمنع أهل الذمة من دخول المقام
الشريف.
ثم رحل إلى عين جالوت .
وأما العسكر المجرد : فوصلوا إلى حمص فورد عليهم كتاب السلطان بالتوجيه إلى طرابلس
،
فركبوا على غرة من العدو ، فأصبحوا على حصن الأكراد ، وأغاروا إلى ساحل البحر
من جهة طرابلس ، ونزلوا على حصن ثيب من عمل حصن الأكراد فأقاموا عليه يوما
واحدا ، فأخذوه وأسروا منه جماعة وهرب من كان بحلبا من الفرنج وأخلوها ، فدخلها
العسكر وكسبوا منها شيئا كثيرا من نحاس وصناديق وسكر وغيره ، ولما هرب أهلها
أدرك العسكر أواخرهم،
فقتلوهم وأخذوا نسائهم .ولما شاهد أهل عرقا ما حل بحلبا نجوا بأنفسهم ، فأخرب
العسكر القلعتين ونزلوا على حصن القليعات فتسلموه في رابع شهر رمضان بالأمان وهدموه،
وعادت

العساكر . فنزل الأمير سيف الدين قلاون بالقرب من القليعات، وسير بالليل بعض
المقدمين ليترقب من يخرج من الفرنج، فوجد خمسين نفرا متوجهين من صافيتا إلى حصن
الأكراد أقجية وجرخية فقتلهم جميعا، وأحضرت رؤوسهم.
وخرج جماعة من الداوية
للغارة على الغلمان الذين يحشون لخيل العسكر، وكان الأمير سيف الدين قلاون قد رتب
مع الغلمان جماعة من العسكر ، فلما جاءهم الداوية خرج عليهم العسكر فقتلوا بعض
الفرنج وأسروا البعض. وسير صاحب صافيتا جاسوسا فأمسك وشنق. وكان في جملة
هذا العسكر من العربان ألفا فارس وجاهدوا أتم جهاد، وجرح الأمير شرف الدين عيسى
بن مهنا جرحين. ورسم السلطان أنه من عدم له فرس يعوض عنه رأسين من البقر، ورسم
بتجريد جماعة لحمص وعود العسكر .
إغارة العسكر على صور
قال: ولما نزل السلطان على عين جالوت رحل منها إلى جهة عكا، وجرد الأمير علاء
الدين البندقدار والأمير عز الدين إيغان الركتي بجماعة من العسكر إلى جهة صور، فأغاروا
عليها وغنموا كثيرا من الجمال والبقر والغنم. وأسر كمندور صاحب سيس ونفران معه
كانوا انحازوا إلى برج فأخذوا بالأمان،وأخذ وزير صور وجماعة من الفرنج. وتوجه الأمير
سيف الدين أوتامش إلى جهة صيدا؛ ورسم لهم السلطان بحضور إلى جهة صفد. وتوجه
السلطان إلى عكا، وجرد الأمير بدر الأيدمري والأمير بدر الدين بيسري إلى جهة القرين،
وجرد الأمير فخر الدين الحمصي إلى جبل عاملة، فأغارت العساكر" على الفرنج" من كل
جهة، وحاصر الأمراء القرين، وأخذت قلعة بالقرب من عكا، وتوالت المكاسب حتى لم
يوجد من يشتري الأبقار والجواميس لكثرتها.
فتوح صفد
كان السلطان ، قبيل توجهه إلى عكا ، قد رسم للأمير علاء الدين أيدكين الشهابي أحد
الأمراء بالشام ولجماعة من العسكر أن يتوجهوا إلى بلاد الفرنج ، ولم يعلم إلى أي جهة . ثم
كتب كتابا زأمره أن لا يقرأه إلا إذا ركب هو والعساكر ، وكان مضمونه أن يتوجه إلى صفد

، ويتوجه الأمير فخر الدين الفايزى إلى الشقيف . فتوجه الأمير علاء الدين إليها وأحاط
بها إحاطة حافظ لا مقاتل ، ثم جرد الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح ومعه
دهليز إلى صفد ، ثم حضر إليها الأمير علاء الدين البندقدار والأمير عز الدين إيغان الركني
بعد إغارتهم على صور فنزلوا إليها وضايقوها ، وأقام السلطان على عكا . ثم حضرت
عساكر الغارات ، وعمل " السلطان " عدة مجانيق وفرقها على الأمراء ليحملوها ، ثم رحل
والعساكر لابسة وساق إلى قريب باب عكا ووقف على تل الفضول، ثم دخل إلى عين
جالوت ، وكان الأمير سيف الدين الزيني قد توجه إلى دمشق لإحضار المجانيق،فأحضرها
وحملت على الرقاب ، وسار السلطان ونزل على صفد في يوم الاثنين ثامن شهر رمضان
سنة أربع وستين وستمائة. وأنفق السلطان في العساكر ، وأتفق أن الناس تناوشوا القتال
فساق الأمير عز الدين خاص ترك الظاهري وحمل وواصل الطعن ، فتقدم الحجارون
وأخذوا في النقوب ورمي الزراقون بالنفط فاحترق الباب.
وأنعم السلطان على خاص ترك
بعشرة آلاف درهم وفرس وجوشن وخلعة. ثم أقيمت المجانيق ورمت في سادس وعشرين
الشهر، وكان وصولها في حادي العشرين منه، ولما وصلت إلى جسر يعقوب عجز الجمال
عن نقلها، فندب السلطان الأمراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب،
وخرج"السلطان" بنفسه وخواصه وجر أخشابها بيده. ووصلت العساكر التي كانت في
الغارة ببلاد طرابلس، واستمر الحصار وشرع الناس والزحف في شوال، وأمر السلطان
بتحريك الطلبخاناه في نصف الليل، وركب وهجم خندق الباشورة، فقاتل الفرنج قتالا
شديدا، وابلى المؤمنون بلاء حسنا واستشهد جماعة من المجاهدين، وصار الإنسان يرى
رفيقه قد قتل فيجره ويقف مكانه، وتكاثرت النقوض ودخلت النقابون إليها، وأعطاه
السلطان ثلاثمائة دينار، وصار كل من عمل شيئا جزاء السلطان لوقته عنه بالخلع والمال.
وفي أثناء ذلك نظر السلطان إلى الناس وقد تعبوا في وقت القائلة من القتال، وتفرق بعضهم

وهو راكب ملازم، فأمر خواصه بالسوق إلى الصواوين وإقامة الأمراء والجند منها
بالدبابيس، وسب الأمراء. وقال: "المسلمون على هذه الصورة وأنتم تستريحون" ورسم
بأمساك الأمراء وكانوا نيفا وأربعين أميرا فقيدهم ونقلهم إلى الزردخاناه، فوقعت الشفاعة
فيهم فأطلقهم وأمرهم بملازمة مواضعهم. ووسعت النقوب وشرطت الأسوار، فحرق
الفرنج الستائر التي كانت على الباشورة ليحموها من التسلق. فأمر السلطان بضرب
الطبلخاناه، وقام كل أحد إلى جهته، فضرب المسلمون سكك الخيل في سفح الباشورة، فما
أصبح الصبح إلا والصناجق على أسوار الباشورة من كل جهة، واندفع الفرنج إلى القلعة
وسلموا الباشورة في يوم الثلاثاء نصف شوال. وفي هذا اليوم أخذت النقوب في برج اليتيم
وغيره من أبراج القلعة. فعند ذلك أتت رسل الفرنج إلى السلطان يسألون الأمان، فاشترط
عليهم ألا يستصحبوا سلاحا ولا لامة حرب ولا شيئا من الفضيات، ولا يتلفوا ذخائر
القلعة بنار ولا هدم، فعادوا لأصحابهم على ذلك. وبقي السلطان يعطي الأمانات من
المرامي ويسير المناديل، وتقرر مع جماعة أنهم يفتحون الأبواب، فتسامع الفرنج بذلك، ووقع
بينهم الاختلاف، وحضر خمسة عشر نفرا من القلعة منفردين في وقت واحد فخلع عليهم
ونودي في العسكر بأن لا يرموا أحدا من الفرنج غير الديوية. فأمسك الفرنج من تلك الساعة
عن القتال، وردوا الأمان وقالوا: "ما ندخل في شرط"، ورمي الرسل الخلع والمال المنعم
عليهم من الأسوار. ثم أيقنوا بالهلاك، فسيروا رسلهم في يوم الجمعة ثامن عشر الشهر
يطلبون ما كانوا يطلبوه أولا، فامتنع السلطان من ذلك، فأخذ الأتابك منديل جمال الدين
أقش القليجي مقدم الجمدارية وأعطاه لهم على أنهم لا يخرجون شيئا مما ذكرناه. فتوجه
الرسل وصاح الفرنج بعد صلاة الجمعة: "يا مسلمين! الأمان" وفتحت أبواب القلعة وقت
العصر، وطلعت الصناجق. ووقف السلطان راكبا على باب صفد، ونزل الفرنج أولا فأولا
وصاروا جميعهم بين يديه، وأخرجوا معهم الأسلحة والفضيات وأخفوها في قماشهم،

وأخذوا جماعة من أسرى المسلمين وصغارهم على أنهم نصارى. فلم يخف الله ذلك،
ورسم بتفتيشهم فوجد ذلك معهم فأخذ منهم، وأنزلوا عن خيولهم وجعلوا في خيمة، وقد
حصل منهم ما ينقص العهد أن لو كان، فكيف ولم يكن حقيقة.
وأمر السلطان بضرب
أعناقهم، فضربت رقابهم على تل بالقرب من صفد كانوا يضربون رقاب المسلمين فيه. ولم
يسلم منهم غير نفرين، أحدهما الرسول بحكم أن السلطان كان قد شرب قمزا في النقب
وخرج إليه الرسول فسقاه منه، فعفا السلطان عنه وخيره في التوجه إلى قومه أو الإقامة
عندهم، فاختار المقام في خدمة السلطان وأسلم فأعطاه السلطان إقطاعا، وأما الآخر فإن
الأتابك شفع فيه فأطلقه السلطان. ودخل السلطان القلعة وفرق على الأمراء ما فيها من
العدد الفرنجية والجواري والمماليك، واستناب في القلعة الأمير عز الدين العلائي، وولى الأمير
مجد الدين الطوري ومقدم العسكر الأمير علاء الدين أيدغدي السلاح دار، ونقلت إليها
الزردخاناه التي كانت صحبة السلطان وصار يحمل النشاب على كتفه، فنقلت في أسرع
وقت، وطلب من الرجال من دمشق، وتقررت نفقة رجالها في كل شهر ثمانين ألف درهم.
واستخدم على جميع بلادها الأمراء، وعمل بها جامع بالقلعة وجامع في الربض، ووقف
على الشيخ على المجنون نصف وربع الحفاف والربع منها على الشيخ إلياس، ووقف على
قبر خالد بن الوليد قرية منها.
ورحل منها إلى دمشق في سابع وعشرين شوال، فنزل بالجسورة وأمر أن العساكر لا تدخل
دمشق بل تتوجه إلى سيس.
غزوة سيس وأسر ملكها
وقتل أخيه وعمه وأسر ولد عمه
قال: وجهز السلطان الملك المنصور صاحب حماة، وجرد معه الأمير عز الدين إيغان
والأمير سيف الدين قلاون، ورسم للأمراء بتعظيمه. وتوجهوا في خامس ذي القعدة من
سنة أربع وستين. فوصلوا إلى الدرب ساك ودخلوا الدربند.
وكان الملك المجير هيتوم بن
قسطنطين بن باساك قد ملك ولده ليفون وانقطع هو مترهبا، فلما طلب المسلمون وقف

ليفون في عسكره وطلب، وتوهم أن المسلمين لا يقدرون على الطلوع في الجبال لأن التكفور
كان قد بنى على رؤوس الجبال ابراجا، فكانت كقول الشاعر:
وإن بين حبطانا فإنما أولئك عقالاته لا معاقلة
فطلعت العساكر في رؤوس الجبال، فلما وقعت العين في العين أسر الملك ليفون، وقتل أخوه
وعمه، وانهزم كندا سطبل عمه الآخر وأسر ولده، وهرب صاحب حموص. وكان فيهم
اثنا عشر ملكا تمزقوا كل ممزق، وقتلت أبطالهم. وساقت العساكر في هذا النهر واقامت
على كونجيد من عمل سرفند كار، ونزلت في اليوم الثاني بأعمال تل حمدون، وهي تقتل
وتأسر وتحرق. وأحرق حموص ثم توجهوا إلى نهر جهان فخاضته العساكر ونزلوا بقرب
العمودين، وهي قلعة حصينة شاهقة للداوية. فلما طافت بها العساكر أذعن أهلها
لتسليمها وكان فيها ألفان ومئتان نفرا، فقتل الرجال، وفرقت السبايا على العساكر.
وأحرقت هذه القلعة وما فيها من الحواصل والذخائر. ورحلوا إلى سيس فأخربوها
وأقامت العساكر أياما تحرق وتقتل وتأسر. وأقام الملك المنصور صاحب حماة بها. وتوجه
الأمير عز الدين إيغان إلى جهة الروم، والأمير سيف الدين قلاون إلى المصيصة وأدنة وإياس
وطرسوس فقتلوا واسروا وأحرقوا. وهدمت قلعة الداوية المعروفة بالبنية، وحرقت لهم
أماكن كثيرة من حصون وبلاد وهدمت. ثم عادت العساكر إلى سيس بعد أن غنمت
غنائم كثيرة حتى بيع الرأس البقر بدرهمين ولم يجد من يشتريه، وأستاقت العساكر الغنائم.
ووردت هذه الأخبار إلى السلطان وهو يتصيد بجرود فأعطى المبشر ألف دينار ودخل
دمشق فتجهز وخرج لتلقي عساكره.
قتل أهل قارة وسي ذراريهم
لما توجه السلطان من دمشق ليلقى عساكره الواردة من سيس مر بقارا في سادس ذي
الحجة فأمر بنهبها وقتل من بها.
وكان سبب ذلك أن بعض الركابية كان قد خدم الطواشي مرشد مقدم العسكر بحماة لما
عاد من الخدمة السلطانية كما تقدم ووصل إلى منزلة العيون مرض بها وبات ولم يشعر به

الطواشي. فأتاه رجلان من أهل قارا وتوجها به إليها ليضيفاه، فأقام عندهم ثلاثة أيام حتى
عوفي، ثم أخذاه بالليل وتوجها به إلى حصن أكراد فأباعاه بها بأربعين دينارا صورية.
واتفق في تلك السنة توجه بعض تجار دمشق إلى حصن الأكراد لابتياع أسرى، فاشترى
ذلك الركابي في جملو ما اشتراه وحمله إلى دمشق وأطلقه، فخدم بعض الجند وخرج فيمن
فرج السلطان. فلما وصل إلى قارا حضر الركابي إلى مجلس الأمير فارس الدين الأتابك
وأنهى إليه صورة الحال، فسأله هل يعرف الذي باعه؟ قال: "نعم". فسير معه جاندارية،
فتوجه ووجد أحد الرجلين فقبض عليه وأحضره. فأنهى الأتابك ذلك إلى السلطان
فأحضرهما بين يديه، وتقابلا فأنكر القارى. فقال الركابي: "فأنا أعرف بيته وما فيه"، فعند
ذلك اعترف القاري، وقال: "ما أنا أفعل هذا جميع بقارا يفعله". وكان قد حضر من قارا
رهبان بضيافة إلى باب الدهليز، فأمر السلطان بالقبض عليهم، وركب بنفسه وقصد الديرة
التي خارج قارا، فقتل من بها ونهبها ثم عاد وأمر العسكر بالركوب، وقصد التل الذي
بظاهر قارا من جهة الشمال، واستدعى أبا العز الريس بها، وقال له: "نحن بقصد الصيد
فمر أهل قارا بالخروج بأجمعهم". فخرج منهم جماعة إلى ظاهر القرية فلما أبعدوا عنها أمر
بضرب رقابهم فضربت ولم يسلم منهم إلا من هرب واختفى بالعمائر والآبار، وعصى
بالأبرجة بها جماعة فأمنوا وأخذوا أسرى، وكانوا ألفا وسبعين نفرا من رجل وامرأة وصبي
وانتمى جماعة إلى أبي العز ريسها فأطلقهم السلطان له ثم أمر بتوسيط الرهبان الذين
حضروا بالضيافة فوسطوا. وتقدموا إلى العسكر بنهب قارا فنهبوها، ثم أمر أن يجعل
كنيستها جامعا، ونقل إليها الرعية من التركمان وغيرهم حتى شحنها بالناس، ورتب فيها
خطيبا وقاضيا، وكانت قبل ذلك يسكنها النصارى. وكان السبب في إبقاء الرئيس أبي
العز أن السلطان الملك الظاهر لما ساق خلف التتار بعد وقعة عين جالوت مر بقارا فخرج
إليه هذا الرئيس واضافه، فرعى السلطان له ذلك وأحسن إليه.

وبيعت أولاد أله قارا فتربوا بين المماليك وتكلموا باللغة التركية ثم صاروا بعد ذلك
أجنادا، وتأمر منهم جماعة وتولوا الأقاليم الكبار والمناصب بالديار المصرية، وتمولوا.
قال: ولما فرغ السلطان من قتل أهل قارا ونهبها توجه إلى حماة فعيد بها عيد الأضحى،
وسار منها إلى أفاميا، ورحل للقاء العساكر في ثالث عشر ذي الحجة. وكان قد أفرد
نصيب السلطان من الغنائم، ففرق ذلك على عساكره.
وأحسن إلى صاحب سيس ومن معه في الأسر، وعاد إلى دمشق في رابع وعشرين الشهر
فدخلها مطلبا وصاحب سيس وابن عمه وأصحابه بين يديه، وخلع على الملوك والأمراء
والأكابر وسير لصاحب حماة ولأصحابه الخيول والخلع والأموال، وودعه، وتوجه إلى
مملكته.
وخرج السلطان من دمشق في ثامن المحرم على ما قدمناه.
وقعة مع الفرنج
كانت النصرة فيها للمسلمين
وفي المحرم سنة خمس وستين وستمائة: بلغ العسكر الصفدي أن العدو أجاز على بلد
طبرية، فركب العسكر وطلبوا جهة عكا، فلما وصلوا إلى وادي علين خرج عليهم الفرنج،
وكان قد وصلهم نجدة من قبرص وغيرها، فضرب العسكر معهم مصافا فانكسر الفرنج،
وكانت عدتهم ألف ومائة فارس فقتل أكثرهم، وعملت أعزبة عظيمة بعكا لمن قتل من
ملوكهم في هذه الوقعة.
ذكر إغارة السلطان على عكا قد ذكرنا أن السلطان قد توجه إلى الشام لعمارة صفد في
سنة خمس وستين وستمائة، وأن رسل الفرنج أتوه بها وتحدثوا معه في أمر بلادهم. وأجابوا
إلى ما قاله لهم من مناصفة صيدا وهدم الشقيف.
قال: وأنكر السلطان عليهم إغارتهم على مشغر، وأقيموا قياما مزعجا، وأمر السلطان
العساكر بالركوب خفية للغارة. وركب السلطان، والفرنج قد اطمأنوا بإرسال رسلهم إليه،
فما أحسوا إلا والعساكر قد وصلت إليهم. وساق السللطان ونزل على عكا بتل الفضول،
وأحضرت إليه رؤوس القتلى من كل جهة، وضرب دهليزه تحت التل وبات فيه، ثم أصبح
على تلك الحالة، وعاد إلى جهة صفد.

ووصلت رسل سيس بالهدايا فشاهدوا، هم ورسل الفرنج، رؤوس القتلى على الرماح.
وأحضر جماعة ممن أسر في هذه الغارة فقتلوا في صفد.
وطلب السلطان رسل الفرنج وقال: "هذه الغارة قبالة إغارتكم على بلاد الشقيف". ولم
ينتظر أمر الصلح، فرد الرسل الفرنجية بغير جواب.
وركب "السلطان" في حادي وعشرين شعبان من السنة وساق "من صفد" إلى عكا، فما
علموا إلا وهو على أبوابها، فقسم الحجازين والناس على البساتين والأبنية والآبار للهدم
والقطع. وعمل اليزك بنفسه على باب عكا تحت ذيل التل.
وأقام أربعة أيام حتى تكامل
الهدم والإحراق والقطع، وسير إلى طاحون كردانة التي لبيت الإسبتار فهدمها.
وفي هذه الأيام أحضر رسل سيس ورسل بيروت "هدايا" وجماعة من أسرى المسلمين
وردوا مال التجار، وكتبت أجوبتهم وتوجهوا.
وفي شهر رمضان وصل رسل صور وسألوا استمرار الهدنة
فقال السلطان: "أنا ما فعلت
ما فعلت إلا لأنكم قتلتم السابق شاهين غلامي، وإذا قمتم بديته استمرت الهدنة".
وأحضر أولاد السابق شاهين فقرر ديته خمسة ألف دينار صورية، أحضر الرسل نصفها
وجماعة من المغاربة واستمهلوا بالبقية وقال السلطان: "تبنين وهدنين وبلادهما "بلاد"
أخذتهما بسفيى فصارت للإسلام فاستقرت للمسلمين".
وأجيبوا إلى الصلح وكتبت الهدنة
لمدة عشر سنين.
واستقرت أيضا قاعدة الصلح ببيروت بعد أن تقرر عليهم أن يردوا أموال التجار الذين كانوا
أخذوا بمراكب الأتابك واطلقهم وثمن المراكب. ثم قبلت هديتهم واستمرت هدنتهم.
الصلح مع بيت الإسبتار
على حصني الأكراد المرقب
كان بيت الإسبتار قد تقدم طلبهم بذلك. فاستقر هذا الأمر بشرط أن الفسخ يكون
للسلطان وحضرت رسلهم الآن، والتمسوا أن يحلف لهم السلطان. فقررت الهدنة لعشر
سنين وعشر شهور وعشر أيام وعشر ساعات وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وهي ألف
مائتا دينار، ومائة مدي حنطة وشعيرا، وعن مملكة حماة وهي أربعة آلاف دينار، وعن

شيزار وأفامية وهي في كل سنة على أبواب بقبيس ستمائة دينار مصرية، وعلى عينتاب
خمسمائة دينار صورية، والرسم المعروف بالمفادنة، وهو عن كل فدان مكوكان غلة وستة
دراهم. وسير لإستحلاف مقدم الإسبتار، الأمير فخر الدين المقري والقاضي شمس الدين
بن قريش كاتب الدرج.
فتوح يافا
قال: كان الصالح قد استقر بين السلطان وصاحب يافا جوان ديكين، فصار نوابه يتعدون،
وسيروا مترجمة في زي صيادين إلى قطيا. فاتفق هلاك صاحب يافا وقيام ولده جاك
بعده.
ولما كان السلطان على صفد لعمارتها حضر إليه قسطلان يافا وسأله في هدنة لولد
صاحبها. فامتنع السطان من ذلك. ثم وصلت الأخبار أن أهل يافا يحملون الميرة إلى
عكا، وكانت ممنوعة عنها. وأقاموا في ايفا حانة وأوقفوا فيها عدة من المسلمات، واعتمدوا
أسباب ليست في هدنة.
فلما كان في سنة ست وستين وستمائة، خرج السلطان من الديار المصرية متوجها إلى
الشام، وذلك في مستهل جمادى الآخر ورحل في ثالثه ووصل إلى غزة، وبلغه أن جماعة من
تالجمالي تعرضوا إلى الزروع فقطع أنواعها. وبلغه أن علم الدين سنجر الحموي أحد أمرائه،
ساق في زرع فأنزله عن فرسه وأعطاه "وأعطى" سرجه ولجامه لصاحب الزرع. ونزل
السلطان على العوجاء فأحضر إليه القسطلان وأكابر يافا، فعوقوا إلى أن يخرجوا من
الدعاوى، فبذلوا للسلطان تسليم المدينة والقلعة على أن يطلقوا بأموالهم واولادهم.
فأجيبوا إلى ذلك.
وركب السلطان في العشرين من جمادى الآخرة وساق إليها وما أحسن أهلها إلا والعساكر
قد أطلقت بها. وأخذ الأتابك من حصل معه من حصل معه الحديث منهم وحضر به إلى
يافا، فما تفاوضوا في الحديث إلا والعسكر قد طلعتها من كل جانب، وفتحت أبوابها. ثم
زحفوا على القلعة فسلمها أهلها في اليوم الثاني، ومنع السلطان من نهبها، وطلع إلى القلعة

وجهز أهلها إلى مأمنهم، وجرد معهم الأمير بدر الدين بيسرى، وشرع في هذم القلعة
فهدمت، وأخذ من أخشابها وألواح رخام وجدت فيها ما أوسق بها مركبا وسيرها إلى
القاهرة. ورسم يعمل ذلك الخشب مقصورة في الجامع الظاهري بالحسينية والرخام لمحرابه.
ورتب السلطان الخفراء على السواحل وألزمهم بدركها، ورسم أن المال المتحصل من هذه
البلاد لا يغمس في غيره، وجعل مأكوله ومشروبه منه. وملك الأمير علاء الدين منها قرية،
والأمير علم الدين سنجر الحموي قرية. ورتب إقامة التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها،
وقرر عليها خيلا وعدة. ورسم بتجديد مقام الخليل، عليه الصلاة والسلام، وعمل مكان
الخوان ناحية من الحرم.
وهذه يافا فتحها عمرو بن العاص في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ويقال بل فتحها
معاوية، ذكره البلاذاري. وذكر عز الدين بن عساكر الملك طنكي بناها في سنة ثلاث
وتسعين وأربعمائة، ونزل عليها السلطان الملك الناصر رحمه الله، في سنة ثمان وسبعين
وخمسمائة. وخرج البطرق الصغير وجماعة منها وسألوا السلطان على أنهم يسلموها
بالأمان ويكونوا أسارى، واستمهلوه في التسليم إلى الصبح فأمهلهم. فوصل ملك الأنكتيرر
في تلك الليلة إليها ودخل قلعتها، ونقض ما كان تقرر، فرحل السلطان عنها ونزل اللاطون،
ثم نزل عليها الملك العادل بعساكر ولد أخيه الملك العزيز صاحب مصر ففتحها في سنة
إحدى وسبعين وخمسمائة. هكذا حكاه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في فتحها،
وقد تقدم أنها من الفتوح الناصرية.
قال: وما حضر الأنيرور فرديك في أيام الملك الكامل نزلها وحصن قلعتها وبناها. وما
حضر الريدافرنس بعد خلاصه من الأسر في سنة ثمان واربعين وستمائة، عمر مدينتها وأنفق
عليها أموالا كثيرة.
قال: ولما فرغ السلطان من هدم يافا رحل عنها في ثامن عشر رجب، ووصل إلى صفد ثم
منها إلى الشقيف .

فتوح شقيف أرنون

كان السلطان قد كتب إلى الأمير جمال الدين النجيبي ، نائب السلطنة بالشام ، بتجهيز
العسكر الشامي إلى أن يحضر بريدي يسير قدامهم. ولما خرج إلى الشام في هذه السفرة
توجه البريدي . وكان السلطان قد قرر مع النجيبي أمارة يمسكها البريدي من يده ، فوصل
البريدي وأمسك الأمارة من يده . فأحضر الأمراء للوقت ورسم لهم باتباع البريدي ، فسار
بهم إلى بانياس ، فأخرج لهم بريدي آخر كتبا مختومة في بانياس للأمير علم الدين الحصني
والأمير بدر الدين الأتابكي متضمنة منازلتهم للشقيف ، وأنهم لايجذبون قتالا ولا غيره ،
فما عرف بهم إلا وقد نازلوا الشقيف . وكان جماعة من الفرنج قد توجهوا من الشقيف
إلى عكا وصيدا ، فنازله العسكر إلى جهة صيدا فأسروا وقتلوا . وجهز هذا العسكر
أخشاب المجانيق والستائر . ثم جهز السلطان بعد فتوح يافا الأمير بدر الدين بكتوت من
عكا بعسكر مصري فنزلوا على الشقيف . وتوجه السلطان فوصل إليه يوم الأربعاء تاسع
شهر رجب ، فأقام منجنيقين ورمى بهما في اليوم الثاني من وصوله.
واتفق أن الفرنج الذين بالقيف كانوا سيروا شخصا إلى عكا لما نزل عليها العسكر الشامي
يعلمونهم بحالهم ويذكرون لهم عورات الحصن ، فسيروا الجواب . فلما وصل القاصد
وحضر إلى السلطان وأحضر رسالة أخوية لأ أهل عكا إليهم " تتضمن إعلام النواب
بالقيفين أن المسلمين لايقدرون على أخذالحصن إن احتفظتم به فجدوا في أمركم " .
فحصل التحيل في قراءتها ، وعلم منها أسماء المقدمين الذين بالشقيف ، فكتبت الأمارات
لهم بأسمائهم ورمى بها إلى الحصن بالنشاب. وكتب أحد الترجمة عوض " رسالة " أخوية
عكا، وعكس عليهم فيها القضايا . وكان في الكتاب أن الوزير لا يكون خاطره متغلثا
بسبب المصادرة له ، ففي ساعة يمكن تعويضه عن ذلك ، فعكس ذلك: وقيل للمقدم
بالشقيف يحترز من الوزير كليام، ففي قلبه إحنة من مصادرتنا له ، وأغرى بينهم بهذا
القول وما يناسبه. ورميت هذه الكتب في سهم فحصل الاختلاف بينهم ، ووجدوا

الأمانات التي كانت كتبت للمقدمين ، فأمسكوا جماعة وتوهموا من الوزير. وكان الفرنج لما
تسلموا الشقيف من الملك الصالح إسماعيل ، في سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، هو وصفد ،
عمروا إلى جانبه قلعة أخرى ، فعجزوا في هذا الوقت عن حماية جهتين. فلما كان في ليلة
الأربعاء السادس والعشرين من شهر رجب عمدوا إلى هذه القلعة المستجدة وحرقوا جميع
ما بها من غلة وقماش وغيره، وانتقلوا إلى القلعة المستقرة، وأصبح المسلمون وتسلموها،
وقدمت المجانيق إلى هذه القلعة في سابع وعشرين الشهر ورمى بها. وأقام السلطان في
سطح برج من أبراجها بالقرب من العدو، فعرف الفرنج موضعه فرموا حجرا قريبا منه فقتل
ثلاثة نفر، ولم ينتقل السلطان عن موضعه. وكان باب هذه القلعة تجاه باب القلعة الأخرى،
فعمل السلطان سربا طويلا في أعلى القلعة نازلا إلى أسفلها وصار يتعلق به ويطلع وينزل
وهو لابس عدته.
قال. واشتد القتال، فبينما الناس في ذلك وإذا بالوزير كليام قد خرج مستأمنا، ثم سألوا
الأمان على نفوسهم وأنهم يوخذون أسارى، وسألوا إطلاق الحريم والأطفال، فأجاب
السلطان إلى ذلك. وفي يوم الأحد سلخ شهر رجب سنة ست وستين وستمائة، استدعو
الصناجق فرفعت على القلعة. وسير الأمير بدر الدين الخزندار فتسلمها، وخرج الفرنج إلى
الخنادق فقيدوا، وأخرج النساء والأطفال. وجرد الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي
صحبتهم فاوصلهم إلى جهة صور، وسلم الرجال إلى العساكر.
قال: وهذا الشقيف من أحصن المعاقل وأحسنها وكان مضرة على بلاد الصبيبة. وكان
الملك العادل الكبير قد جدده، وما زال في يد الإسلام إلى أن سلمه الصالح اسماعيل للفرنج
على ما قدمناه.
قال: ولما قدر الله تعالى فتح الشقيف، اتفق "السلطان" في جميع العساكر وخلع على الملوك
الذين في خدمته، مثل: الملك المنصور صاحب حماة وأخيه، وأولاده صاحب الموصل،
والملك الأمجد بن العادل، وغيرهم من أولاد الملوك، وعلى الأمراء والمقدمين، ومن جرت

عادتهم بالخلع. وشرع السلطان في هدم القلعة المستجدة فهدمت إلى الأرض ورتب الأمير
صارم الدين قاريماز الظافري نائبا لهذه القلعة، ورتب فيها الأجناد والرجالة، ورتب بها
قاضيا وخطيبا، وأقيمت شعائر الإسلام بهذه القلعة وجميع تلك البلاد، وولى الأمير سيف
الدين بلبان
الزيني عمارتها، وكان قد خرج منهخا جماعة من المسلمين حالة الحصار فكتب لهم
السلطان فدنا وقفا عليهم.
توجه السلطان إلى طرابلس
وإغارته عليها
كان بيمند صاحب طرابلس قد كثر تعديه على بلاد الإسلام، وأخذ البلاد المجاروة له بعد
زوال الأيام الناصرية واستيلاء التتار على الشام، وكان من أكبر أعوان التتار. فلما رحل
السلطان من الشقيف نزل قريبا من جسر بانياس، وجهز الأثقال إلى دمشق وجرد الأمير
عز الدين غيغان بجماعة توجهوا من جهة، والأمير بدر الدين الأيدمري بجماعة من جهة
أخرى، فحفظت الطرقات وامتلأت بالعساكر، وتوجه إلى طرابلس على جهة جبال الطنين،
وكان البرنس قد وعر الطرقات، فوصل السلطان في نصف شعبان وملك هذه الجبال التي
يقول فيها المتنبي:

وجبال لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها على مسالكي فكأنها ببياضها سوداء

وخيم السلطان قريبا من طرابلس واستمر على الركوب إليها، والعساكر تناوش "أهلها"
القتال ويرامونهم بالنشاب، وافتتح برجا قد عصى فيه جماعة من الفرنج "و" ضرب رقابهم
وجرد جماعة خربوا الحرث ونهبوا تلك الجبال واخذوا عدة مغاير بالسيف، وقطعت
الأشجار وهدمت الكنائس وقنى المياه والقناة الرومانية، وقسم السلطان الغنائم في العساكر
ورحل عن طرابلس في العشر الآخر من شعبان من السنة.
فتوح أنطاكية
لما رحل السلطان عن طربلس لم يطلع أحدا على الجهة التي يقصدها، فتوجه إلى حمص في
سابع وعشرين شعبان، وأمر ببناء مسجد بحمص، ولما وصل إلى حماة رتب العساكر ثلاث

فرق: فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخزندار، وفرقة مع الأمير عز الدين إيغان، وفرقة صحبة
الركاب السلطاني.
فتوجه الأمير بدر الدين الخزندار إلى السويدية، وتوجه الأمير عز الدين إيغان إلى الدرب
ساك، فقتلوا وأسروا. وتوافوا جميعهم بأنطاكية، ونزل السلطان أفامية، ومنها إلى جسر
تحت الشغر وبكاس، وأصبح مغيرا على أنطاكية وذلك في مستهل شهر رمضان.
وتقدم في الجاليش الأمير شمس الدين أفسنقر أستاد الدار، فصادف جماعة من عسكر
أنطاكية وأنتشبت الحرب بينهم، فحمل أحد أجناد الأمير شمس الدين أفسنقر وهو فلان
الدين المظفري على كندا سطيل فأسره وأحضره إلى السلطان، فأمره السلطان واحسن
إليه. واطافت العساكر بأنطاكية من كل جانب. وكان النزول عليها بالخيام والثقل، بكرة يوم
الجمعة ثالث شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة. ولما حضر كندا سطبل إلى
السلطان رآه رجلا عاقلا، فسأل أنه يدخل إلى أنطاكية ويتوسط لأهلها، فجرى السلطان
على عادته في الإنذار قبل المهاجمة. فسير كندا سطبل "من" أحضر ولده رهينة ، ودخل
البلد وتحدث ، وخرج مع جماعة من القسيسين والرهبان ، وأقاموا يترددون ثلاثة أيام فظهر
منهم قوة نفس وخوف من صاحبهم البرنس. وفي بكرة السبت أنذرهم بالزحف ، وصبر
حتى دخل الأقساء والرهبان إلى أنطاكية ، ورسم بالزحف . فزحفت العساكر وأطافت
بالمدينة والقلعة على اتساعها ، وقاتل أهلها قتالا شديدا . فتسور المسلمون الأسوار من
جهة الجبل بالقرب من القلعة ونزلوا المدينة ، فهرب أهلها إلى القلعة. وشرعت الغساكر في
النهب والقتل والأسر ، وما رفع السيف عن أحد من الرجال بالمدينة ، وكان بها فوق المائة
ألف نفر . وأخذ التركمان من النائم مالا يحصى . ثم رسم السلطان بحفظ أبواب المدينة
والإحتراز عليها . وأما القلعة فاجتمع فيها ثمانية آلاف مقاتل غير الحريم والأولاد ،
فتحاشروا بها فمات عالم . وأما البالي والوزير الوالي فإنهم لما شاهدوا هذا الحال هربوا

رجالة في الليل ، تدلوا بالحبال ، وأصبح أهل القلعة فما وجدوا أحدا منهم ، ولم يكن
بالقلعة ماء ولا طواحين تكفيهم . فسيروا يوم الأحد ثاني يوم الفتح يطلبون الأمانة من القتل
وأنهم يؤخذون أسرى . فللوقت طلع السلطان فصادف جميع من في القلعة قد خرج إلى
ظاهرها وعليهم الملابس الحسنة واستغاثوا للسلطان ، فعفا عنهم من القتل ، وأحضرت
الحبال فربطوا بها ، وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى ، وكذلك كل مقدم،
والكتاب ينزلون ذلك ، وكتبت كتب البشائر ، ومن جملتها كتاب إلى صاحب إنطاكية :
نسخته بعد البسملة :
"قد علم القومص الجليل " البجل العزز الهمام ، الأسد الصرغام ، بيمند فخر الأمة
المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية كبير الأمة العيسوية " بيمند المتنقلة مخاطبته بأخذ
أنطاكية "منه " من البرنسية إلى القومصية ، ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل
النصيحة محفوظة عنده . ماكان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده
بعد رحيلنا من إخراب العمائر ، وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط
الأرض،ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل
البحر كالجزائر، وكيف قتلت الرجال، واستخدمت الأولاد، وتملكت الحرائر، وكيف قطعت
الأشجار، ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق "إن شاء الله" والستائر، وكيف نهبت لك
ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم
الخديم وركب الماشي ".
" هذا وأنت تنظر المغشى عليه من الموت، وإذا سمعت صوتا قلت فزها: على هذا
الصوت، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود، وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود.
وكيف فارقنا بلادك، وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي في ملكنا
جارية،ولا سارية إلا و هي في أيدي المعاول سارية، ولا زرع إلا وهو محصود، ولا موجود
لك إلا وهو منك مفقود، ولا منعت تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك

الأدوية التي هي في التخوم مخترقة وللعقول خارفة. وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى
مدينتك أنطاكية خير. وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك، وإن بعدنا
فسنعود على الأمر. وها نحن نبلغك بما تم، ونفهمك بالبلاء الذي عم".
"كان رحيلنا عنك "و" عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشرين شعبان، ونزولنا أنطاكية في
مستهل شهر رمضان. وفي حالة النزول خرجت عساكرك المبارزة فكسروا، وتناصروا فما
نصروا، وأسر من بينه كندا سطبل، فسأل مراجعة أصحابك. فدخل إلى المدينة، فخرج
هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا، فرأيناهم على رأيك في إتلاف
النفوس بالغرض الفاسد، وأن رأيهم في الخير مختلف، وقولهم في الشر واحد، فلما رأيناهم
قد فات فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت رددناهم وقلنا: "نحن الساعة لكم
نحاصر، وهذا هو الأول في الإنذار والآخر" فرجعوا متشبهين بفعلك ومتعقدين إنك تدركهم
بخيلك ورجلك، ففي بعض ساعة مر شأن المرشان، وداخل الرهب الرهبان، ولان للبلاء
القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان".
"وفيحنا بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من
اخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي
أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها. فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل
الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول، والكسابة فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار،
وداماتك وكل أربع منهن تباع، فتشتري من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد
كسرت ونشرت، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت، وقبور البطارقة قد بعثرت. ولو
رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمدبح، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس
والشماس، والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأبناء الملوك وقد دخلوا في المملكة. ولو
شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل الآخرة تحترق، وقصورك

وأحوالها قد حالت، وكنيسة بوليص وكنيسة القسيان قد زلت كل منها وزالت، لكنت
تقول: "يا ليتني كنت ترابا، ويا ليتني لم أوتي بهذا الخبر كتابا"، ولكانت نفسك تذهب من
حسرتك، ولكنت تطفئ تلك النيران بماء عبرتك. ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من
معانيك، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك، فصارت سوانيك من شوانيك،
لتيقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاكية منك استرجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك
قلعها، ومن الأرض اقتلعها. ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من
حصون الإسلام وهو: ديركوش، وشقيف تلميس، وشقيف كفر دنين، وجميع ما كان من
بلاد انطاكية،
"و" استنزلنا أصحابك من الصياصي وأخذناهم بالنواصي، وفرقناهم في الداني
والقاصي، ولم يبق شيء يطلق عليهم اسم العصيان إلا النهر، فلو استطاع لما سمي
بالعاصي، وقد أجرى دموعه ندما، وكان يذرفها عبرة صافية، فهو أجراها بما سفكناه فيه
دما".
"وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر، بكونك لم تكن
لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها ستكون إما قتيلا، وإما أسيرا، وإما
جريحا، وإما كسيرا. وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي، إذا شاهد الأموات، ولعل
الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات. ولما لم يسلم أحد يخبرك بما
جرى خبرناك، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها
باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك، لتحقق الأمر على ما جرى. وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي
أن لك أن تبلغ لنا خيرا، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخيرا."
قال: ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه، ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا
الكتاب.
ولما تسلم السلطان القلعة سلمها للأمير بدر الدين "بيليك" الحزندار والأمير بدر الدين

بيسرى الشمسي. وأما كندا سطبل فإن السلطان أطلقه وأطلق أهله وأقاربه، فاختار
التوجه إلى سيس، ففسح له في ذلك.
أخبار أنطاكية
ذهب المفسرون لكتاب الله تعالى في قوله تعالى: "واضرب لهم مثلا أصحاب اقرية إذ
جاءها المرسلون" أن القرية أنطاكية.
وقال اصحاب الأخبار فيها: إن الملك أنتيوخس قصد بناء مدينة يعمرها ليكون نسبتها
إليه، فسير حكماه ووزراه لاختيار مكان يكون طيب الهواء والماء، قريبا من البحر
والجبل، فوجدوا هذا المكان. فاختاروه لأنه جبلي بحري يحكم عليه الهواء الغربي،
وعيون المياه العذبة حوله والبحيرة الحلوة شرقية، والبحر المقلوب وهو العاصي، خارج
سورها وعليه طواحينها، وفيه المراكب تحمل الغلات إليها وغير ذلك فعرفوا ملكهم هذه
الصفات، فأمر ببنائها، وأخرج النفقات، وطلبوا حجرا جيدا لبنائها، فوجدوه في مسافة
يومين منها. فاستخدم لها من الرجال والبنائين ثمانين ألف رجل وثمانمائة رجل، ومن العجل
ستمائة عجلة، وألف وتسعمائة حمار، ومائة زروق لنقل الحجارة، خارجا عما في ميناء
السويدية من العجل والرجال والزوارق التي تحمل الرخام والعمد والقواعد. فنجزت في ثلاث
سنين ونصف، وبنيب أسوارها وأبراجها وهي مائة وثلاثة وخمسون برجا، ومائة وثلاثة
وخمسون بدنة، وسبعة أبواب، منها خمسة كبار وبابان صغارا. وجعل فيها سبع عوادي
ترمي إلى النهر عند الوادي المسمى الحسكروت، وجعل منه باب في الجبل ينزل منه إلى
المدينة، وعليه قناطر يعبر الناس عليه، وإذا امتلئ يخرج من تحت السور، وساقوا الملء
إليها في قناتين: البوليط والعاوية.
ولما فرغت حضر الملك إليها ورأها فأكرم الصناع ومد لهم طعاما ثلاثة أيام، وأمر ببناء
الأدر والدكاكين، فشرع الناس في بنائها ووهب كل من يحضر إليها وينزل حولها خراج ثلاث
سنين، وبنى الكنائس وبيوت عباداتهم فاجتمع العالم إليها.
واتفق أن الملك جلس في بعض الأيام وهو مسرور فرح، فقال له وزيره: "لو عرفت ما أنفقت

في هذه المدينة ما كنت تفرح" فاستيقظ لنفسه وأمر بعمل حساب ماأنفق فيها سوى
الضيافات والجواميس التي أخذت من المروج والبهائم بغير ثمن، فجاء أربعة آلاف قنطار
وخمسين قنطارا ذهبا، فعظم ذلك عنده، وأمك عن العمارة، وشرع في بناء المدائن تغل،
فبنى سبع مدائن، وأسكن الناس فيها. واستمرت في يد الملك ومن ملك بعده، وعمارتها
تتزايد، وكل ملك يؤثر بها تأثيرا ويجدد بها طلسما إلى أن ظهر المسيح عليه السلام.
وما زالت في يد الروم إلى أن فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه
كما قدمناه في خلافته. ولما ولي معاوية بن ابي سفيان نقل إلى أنطاكية في سنة اثنتين
وأربعين جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص، وكان منهم: مسلم بن عبد الله جد عبد
الله بن حبيب بن مسلم الأنطاكي. ولم تزل بيد عمال الخلفاء في الدولتين الأموية والعباسية،
ثم استقرت في يد بني حمدان. فلما مات سيف الدولة ابن حمدان اتفق أهلها أنهم لا
يمكنون أحدا من الحمدانية يدخلها، وولوا شخصا يسمى بغلوش الكردي، وكان قد ورد
الغزاة من خراسان خمسة آلاف رجل فأمسكهم وتقوى بهم واشتد أمره، وكان منهم رجل
أسود من الصعاليك يعرف بالزعلي قد جمع طائفة وسموا نفوسهم بالغزاة . فدخل يوماً
عليه السلام، فقتل الكردي وهرب أصحابه، واستولى الأسود على المدينة هو ومن معه.
وكان في بغراس نائب للروم اسمه ميخائيل البرجي وبطرس. فحضرا إليها في جمع كبير،
فعجز المسلمون عن حفظها لاتساعها، فملكها الروم في يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من
ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. فطرح المسلمون النار بينهم وبين الروم، وفتحوا باب
البحر وخرجوا منه. وأسر الروم جميع من كان المسلمين، فتقوى الروم بفتحها، وتوجهوا إلى
حلب فصالحهم أهلها وأهل حمص على ما يحمل في كل سنة إلى ملك الروم وهو عشرة
قناطير ذهبا، ومن كل مسلم دينار سوى ذوي العاهات، وأقامت إلى سنة ست وستين
وثلاثمائة، فسير جعفر بن فلاح غلامه "فتوحا" إلى أنطاكية فحاصرها خمسة أشهر فلم يظفر

بها. وحدثت في هذه السنة زلزلة عظيمة هدمت قطعة من سورها فأنفذ ملك روم ثانيا،
أثني عشر ألف دينارا وصناعا لاصلاح ذلك، فبنيت أحسن ما كانت. وبنى فلعتها لاون
بن الفقاس وحصنها، وكان في خدمته جماعة من الأرمن، ومات فكمل عمارتها الملك بسيل
وهو الذي وجد له لما مات ستة آلاف قنطار ذهبا، ولما ولى كان في حاصل بيت المال
أربعة قناطير لا غير، وهو الذي ملك أرجيش من بلاد أرمينية في سنة خمس عشرة
وأربعمائة، وكان ملكه تسعا وأربعين سنة وأحدى عشر شهرا. وبقيت في أيدي الروم إلى
أن فتحها الملك سليمان من قتلمش السلجقي في سنة سبع وسبعين وأربعمائة على ما
أوردناه في أخبار الدولة السلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل في سنة تسع وسبعين
وأربعمائة، فصارت بيد وزيره الحكم بن طاهر الشهر ستاني يتولى أمرها. فلما استرد
السلطان ملكشاه بلاد الشام استردها وضمها إلى الوزير المذكور، فأقام بها إلى سنة إحدى
وثمانين وأربعمائة، ثم فارقها "الوزير" ودخل الروم، فسلمها لباغي شيان بن ألب "أرسلان"
وكانت بنته متزوجة للملك رضوان صاحب حلب.
وحدثت زلزلة بأنطاكية في التاسع عشر من شعبان سنة أرلابعة وثمانين وأربعمائة خربت
دورها وأهلكت خلقا كثيرا، ورمت من أبراجها نحو السبعين برجا، فتقدم السلطان بعمارة
ما انهدم في سنة خمس وثمانين.
واستمرت أنطاكية بيد ملوك الإسلام إلى أن ملكها الفرنج في جمادى الأولى سنة إحدى
وتسعين وأربعمائة على ما قدمناه. وكان قد اجتمع عليها جماعة من ملوك الفرنج والملك
الكبير المشار إليه منهم اسمه كند فري، فقرر أن كل ملك من الملوك يحاصرها عشرة أيام،
ومن فتحت في نوبته فهي له، ففتح في نوبة ملك منهم اسمه ميمون. فلما اتصل ذلك بملوك
الإسلام بالشام اجتمعوا ومقدميهم ظهير الدين طغرتكين صاحب دمشق، وجناح الدولة
حسن صاحب حمص، وكربغا صاحب الموصل، وحاصروا أنطاكية، وكان الفرنج في قل،
فسألوا الأمان ليخرجوا منها فلم يجيبوهم، ووقع تنافس بين المسلمين فخرج الفرنج إليهم

فانهزموا من غير قتال. وبقي ميمون مالكها حتى كسره الدانشمند وأسره وقتل أكثر
عسكره، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، فاشترى نفسه بعد ذلك بمائة ألف دينار
واستخلف ميمون فيها ولد أخيه طنكري، وركب في البحر وسار إلى بلاده ليستنجد
الفرنج ويعود، فأهلكه الله تعالى. واستمر طنكري ملكا لأنطاكية وأعمالها إلى أن أهلكه
الله تعالى في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ست وخمسمائة، وملكها بعده روجار. وكان
طنكي قد استدعاه من بلده وجعله ولي عهده، وهو الذي حضر إلى بيت المقدس في ملك
بغدوين، وكان بغدوين شيخا كبيرا، فاجتمعا بالبيت المقدس وقررا عهدا: أن من مات
منهم قبل الآخر انتقل ملكه إلى الباقي منهما. وتزوج بنت بغدوين، فقتل روجار في حرب
كانت بينه وبين نجم الدين إيلغازي بن أرتق في يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة
ثلاث عشرة وخمسمائة. فقتل روجار وجميع من معه، فسار بغدوين إلى أنطاكية وملكها،
وأقام بها إلى أن وصل شاب، في ثامن عشر شهر رمضان سنة ست وعشرين وخمسمائة،
من الفرنج في البحر وادعى أنه ميمون بن ميمون الذي كان صاحب أنطاكية، فسلم بغدوين
أنطاكيه له فملكها، وكان شجاعا مقداما، وأقام بها إلى أن سار نحو الدروب فلقيه ابن
الدانشمند فكسره وقتل جماعة من عسكره بأرض عين زرية، وذلك في نصف شهر رمضان
سنة أربع وثلاثين وخمسمائة. ومثلك بعده الأبرنس، ولقي الملك العادل نور الدين محمود بن
زنكي على حصن الأكراد في شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فكسر المسلمون
وقتل جماعة منهم، واستولى الفرنج على أثقالهم. فجمع نور الدين العساكر، والتقاه في يوم
الأربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين وخمسمائة فقتله فرسانه واستولى
على خيامه. وولى أنطاكية بعده الأبرنس أرناط، فأقام إلى أن لقيه مجد الدين أبو بكر الملك
العادل في المملكة الحلبية، وذلك في صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة فكسره وقتل
أصحابه وأخذه أسيرا، فأقام في حبس الملك العادل وملك أنطاكية وهو في الأسر رجل من

ذريته اسمه بيمند وخلص أرناد، وتزوج صاحبة الكرك وأقام بالحصن حتى ملكه السلطان
الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وقتله.
وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة عقد السلطان الملك الناصر الكبير مبيمند صاحب
أنطاكية هدنة لمدة ثمانية مائة أشهر من تشرين الأول إلى آخر آيار، وحلفا على ذلك، ورحل
الناصر عنها وتوجه إلى حلب على ما ذكرناه في أخباره. ثم ملكها الإبرنس المعروف
بالأسير، وملكها ابنه بعده، ثم ملكها بيمنده ولده أيضا، وهو الذي أخذت منه الآن في
الدولة الظاهرية.
هذا تلخيص خبر أنطاكية من حين عمرت إلى حين فتحت هذا الفتح.
ما اعتمده السلطان في قسمة غنائم وأنطاكية وإحراقه قلعتها وما افتتحه مما هو مضاف إليها وهو: دير كوش
وشقيق كفر دنين وشقيف كفر تلميس
قال ولما فتحت أنطاكية وفرغ الناس من نهبها، رسم السلطان بإحضار المكاسب للقسمة،
وركب وأبعد عن الخيام وحمل ما غنمه وما غنمه من مماليكه وخواصه. وقال للأمراء:
"ينبغي أن تخلصوا ذمتكم وتحضروا ما غنمتوه، وأنا أحلف الأمراء والمقدمين، وهم يحلفون
أجنادهم ومضافيهم". فأحضر الناس الأموال والمصاغ من الذهب والفضة، فطال الوزن،
فقسمت النقود بالكاسات والشربوشات، ولم يبقى غلام إلا أخذ. وتقاسم الناس النسوان
والبنات والأطفال وبيع الصغير بأثني عشر درهما، والجارية بخمسة دراهم وباشر السلطان
القسمة بنفسه، وما ترك شيئا حتى قسمه من الأموال والمصوغ والدواب والمواشي. ثم
ركب إلى قلعة أنطاكية وأحرقها وعم الحريق أنطاكية.
وكان صاحب طرابلس قد استولى على عند أخذ التتار حلب على ديركوش، وهو من
أمنع الحصون وعلى شقيف كفر دنين وعلى شقيف كفر تلميس، وكانت هذه الحصون
شجى في حلق المسلمين. فلما فتحت أنطاكية انقطعت حيلة هذه الحصون فطلبوا الأمان
على أنهم يسلمون الحصون ويؤسرون، فسير الأمير بدر الدين بيليك الأشرفي الظاهري،
فتسلم دركوش في ليلة الجمعة حادي عشر شهر رمضان ، وتسلم بقية هذه الحصون.

صلح القصير على المناصفة
كان القصير للبطرك الكبير خاصة، وزعموا أن بأيديهم خط عمر بن الخطاب رضي الله
عنه، فلما نزل السلطان في هذه الجهات بذلوا نصف البلاد للسلطان، فكتبت لهم هدنة،
وانضاف إلى مملكة الإسلام نصف بلاد القصير.
فتوح حصن بغراس من الديوية
قال: ولما فتح الله تعالى هذه الحصون والجهات على السلطان ولم يبقى بتلك الجهات سوى
بغراس، وخاف من بها من الديوية، فانهزموا وتركوا. فجهز السلطان الأمير أقسنقر
"الفرقاني" أستاد الدار العالية بعسكر فتسلمه في يوم السبت ثالث عشر شهر رمضان من
السنة، ولم يجد به سوى امرأة عجوز، ووجده عامر بالحواصل والذخائر.
وقال البلاذري: كانت أرض بغراس بمسلمة بن عبد الملك فوقفها في سهيل البر، ولما قصد
المسلمون غزاة عمورية صحبة مسلمة، حمل هو والعسكر النساء معهم للجد في القتال.
فلما صاروا في عقبة بغراس عند الطريق المستدقة التي تشرف على الوادي سقط جمل
عليه امرأة، فأمر مسلم النساء أن يمشين فسميت تلك العقبة عقبة النساء. قال: وكان في
تلك الطريق سباع لا يسلك فيها بسببها، فشكا الناس ذلك إلى الوليد بن عبد الملك
فبعثت أربعة آلاف جاموسة وفحولها، فانكفأت السباع. ثم بناها بعد ذلك وحصنها أتم
تحصين الملك نقفور ملك الروم الذي خرج إلى بلاد الشام في آخر سنة سبع وخمسين
وثلاثمائةوقتل وسبى. ولما بنى هذه الحصن، الذي هو حصن بغراس. رتب فيه نائبا له
يعرف بالبرجي، ورتب معه ألف رجل، وحصت بغراس. ثم ملكه الفرنج وما زالوا
يتداولونه ويحصنونه على طول المدد، إلى أن ملكه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن
أيوب، في ثاني شعبان سنة أربع وثمانين وخمسمائة، على ما قدمناه، ثم ملكه الديوية بعد
ذلك.
الإغارة على صور
كانت قد تقررت مهادنة بين السلطان وبين صاحب صور، فلما توجهت الرسل إليه حلف

على بعضها، واسقط فصولا لم يحلف عليها. فلما كان السلطان بالشام، في سنة سبع
وستين وستمائة، ووقفت له امرأة ذكرت أنها كانت أسيرة في صور، وأنها اشترت نفسها ثم
قطعت على بنت لها قطيعة، وحصلت من أوقاف دمشق مبلغا اشترتها به من صور
بمكاتبة عليها خط الفرنج، ولما خرجت بها إلى قرب بلاد صفد سير خلفها جماعة من
صور أخذوا البنت منها ونصروها. فلما سمع السلطان كلامها غضب الله تعالى وكتب
يطلب هذه البنت، فاعتذروا بأنها تنصرت. وكان بالنواقير من جهة صفد جماعة "من
المسلمين" سير صاحب صور أمسكهم وقتل منهم نفرين واعتقل الباقيين. وطلبهم السلطان
فأصروا على منعهم، فركب السلطان في العشرين من شهر رمضان، وساق بنفسه ومن معه
من العسكر الخفيف، وتوجه الأمير جمال الدين المحمدي من جهة، والأتابك من جهة،
ووصلوا إلى صور، فأمسكوا جماعة من الرجال والنساء والصغار، وهرب في ذلك الوقت
للأمير جمال الدين أقش الرومي فنصره صاحب صور بوقته. وطلب منه فدافع عنه،
وأمسك السلطان عن إتلاف زرعه ورد الحريم والأطفال ورجع إلى المخيم وأمهل عليه
مدة، فلما استمر على منع البنت والملوك، جرد السلطان جماعة لاستغلال بلاده.

الإغارة على بلاد كركر وأخذ شرموشاك

وفي هذه السنة توجهت الغيارة في البيرة وغيرها إلى جهة كركر فأحرقوا بلدها وأخذوا
مواشي، وتوجهوا إلى قلعة بين كركر والكختا اسمها شرموشاك، فزحفوا عليها وأخذوها
وقتلوا رجالها ونهبوا من المواشي شيئا كثيرا، وأخرجوا من الفلاحين إلى البلاد السلطانية
خلقا كثيرا، وأخذ الخميس من الغنيمة للديوان ورسم بترتيب الناجعين في البلاد الحمصية
والشيزرية وجهة أنطاكية.

الإغارة على عكا

وفي سنة ثمان وستين وستمائة، توجه السلطان جريدة إلى الشام، وكان الفرنج بعكا
اعتمدوا أشياء لا يصبر عليها: منها أن أربعة من مماليك السلطان هربوا ودخلوا عكا،

فلما طلبهم منهم طلبوا العوض عنهم، فأنكر السلطان ذلك عليهم، فنصروهم، وذلك في
سنة سبع وستين. فكتب السلطان إلى النواب بوقوع الفسخ، فأغار عليهم الأمير جمال
الدين أقش الشمسي فقتل وأسر منهم جماعة. واتفقت حركة للسلطان إلى الحجاز فأطلق
الذين أسروا، وعوق رسل الفرنج على إحضار المماليك، وأطلق منهم وزير الاستبار
خاصة، لأنه كان يخدم السلطان. فلما كان في هذه السنة بلغ السلطان أن الفرنج وصل
إليهم سفائن من جهة الردراكون، أحد ملوك الغرب فيها جماعة من أصحابه وأقاربه وكتبه،
يقول فيها: إنه واعد أبعى بن هولاكو أنه يوافيه بالبلاد الإسلامية، وأنه واصل لمواعدته "من
جهة سيس في سفن كثيرة"، فأرسل الله تعالى ريحا مزعجة كسر عدة من سفائنه ولم يسمه
لها خبر. وأما أهل عكا فإنهم خرجوا هم ومن وصل ليهم من الغرب إلى ظاهر عكا
وخيموا وصاروا يركبون "وتوجهت طائفة منهم إلى عسكر جينين وعسكر صفد"، وبلغهم
أن السلطان وصل جريدة فتوهموا أنه لا يقصدهم. واتفق أن السلطان خرج متصيدا إلى
جهة الحارسة، وعاد مسرعا وتوجه على أنه يتصيد في مرج برغوث. ولما وصل في أثناء
الطريق إلى برج الفلوس سير الأمير عز الدين معن الظاهري السلاح دار لاحضار السلاح،
وسير الأمير ركن الدين إياجي لإحضار العسكر الشامي كله، فتكامل الناس عنده في مرج
برغوث في بكرة نهار الثلاثاء الحادي والعشرين في شهر ربيع، وركب وساق ووصل جسر
يعقوب عشية النهار، فساق فأصبح الصبح وهو بأول المرج. وكان قد سير إلى الأمير جمال
الدين الشمسي مقدم عسكر عين جالوت، والأمير علاء الدين إيدغدي مقدم عسكر صفد
بالإغارة في ثاني وعشرين، وأنهم ينهزمون قدام الفرنج. فخرج جماعة من الفرنج مقدمهم
كندلوفير المسمى زيتون، وفيهم أقارب الريداركون وغيرهم، ودخل السلطان الكمين فعندما
خرج الفرنج لقتال العسكر الصفدي تقدم الأمير عز الدين إيغان الركني، وبعده الأمير جمال
الدين الحاجبي، ومعهما أمراء الشام. وساق قدام السلطان الأمير شمس الدين إيتمش

السعدي، والأمير علاء الدين كندغدي الظاهري أمير مجلس ومعهما مقدموا الحلقة. وقاتل
الأمراء الشاميون أحسن قتال، وأمسك الأمير عز الدين إيغان فارسا اسمه ريمون دكوك.
وأما السلطان ومن كان قدامه من الأمراء فما وصلوا إلى الأمراء المقدمين إلا والعدو قد
انكسر فلم يحصل لهم اختلاط. وكان القتال شديدا تماسكوا فيه بالأيدي، وأكمن زيتون
فجال العسكر بينهم واخذوا عليه وعلى أكابر الفرنج حلقة وقتل أخو زيتون وابن أخت
الريدراكون، وجماعة من الخيالة، ونائب فرنسيس بعكا، ولم يعدم من عسكر الإسلام إلا
الأمير فخر الدين الطونبا الفائزي. وعاد السلطان ورؤوس القتلى بين يديه إلى صفد، وتوجه
منها إلى دمشق، فدخلها في يوم الأحد سادس وعشرين الشهر، والأسرى والرؤوس بين
يديه.

فتوح قلعة صافيتا

وفي سنة تسع وستين وستمائة، توجه السلطان من الديار المصرية في عاشر جمادى الآخرة
وصحبته ولده الملك السعيد، ودخل الملك السعيد إلى دمشق في ثامن شهر رجب، وخرج
هو والأمير بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة. وكان السلطان قد توجه من جهة بعلبك
وتوجه من جهة بعلبك وتوجه إلى طرابلس، فقتل من رعاياها وأسر، واتصلت الغارة
بصافيتا، فطلب من فيها الأمان، ثم نكثوا، فرحل عنهم السلطان وأنزل جماعة حولهم.
فسير كمندور أنطرطوس إلى السلطان يشفع الإخوة الديوية بصافيتا، على أنه يأمرهم
بالتسليم، فأجابهم الشسلطان إلى ذلك، فأرسل إليهم فنزلوا، وكانوا سبعمائة رجل، خارجا
عن النساء والأطفال، وأحضروا إلى السلطان وهو على حصن الأكراد، فأطلقهم وجهز
معهم من أوصلهم إلى مأمنهم، وتسلم السلطان صافيتا وبلادها، وتسلمت الحصون
والأبراج المجاورة لحصن الأكراد، مثل تل خليفة وغيره.
وقد ذكرنا ما كان وقع من المهادنة على حصن الأكراد والمرقب، ثم اتفق من بيت الاسبتار
أمور أوجبت فسخ الهدنة: منها أن السلطان لما أغار على طرابلس في سنة وست وستين

وستمائة، وكتب إلى النائب بحمص بأن يقيم بحدود حصن الأكراد لدفع الضرر عن بلاد
الهدنة وكتب إلى عدة جهات بالوصية بهم، وحر رسول حصن الأكراد يسأل الوصية،
فأعطاهم علما برنكة.
ولما عبرت الأثقال من جهة القصب، عبر أحد الحرافشة ومعه رفقه له على بستان بقرب
تل خليفة المجاور للحصن فأخذوا منه شيئا لا قيمة له، فأخذهم المقدم "الفرنجي" بتل
خليفة وضرب رقاب بعضهم وأسر البعض. فنزل النائب بحمص على تل خليفة وطلب
الخصوم. فامتنع النائب بها عن تسليمهم وقال: "أنا قتلت"، واساء في القول. فحاصرهم
"نائب حمص" وسير إليهم شجاع الدين عنبر، فاحتال إلى أن استنزل الخصوم، وسيروا إلى
السلطان. فحضرت رسل من حصن الأكراد تطلبهم، فأجابهم السلطان إنه لا بد من
تحقيق هذه الواقعة؛ فقوت نفوس الذين في الحصن. وغلق النائب "الفرنجي" باب الحصن
ومنع الميرة، وألبس جماعة العدد.
ولما رجع السلطان من طرابلس عند توجهه إلى أنطاكية ومر تحت الحصن متوجها إلى
حمص، فسير يقول: "ما كان ينبغي لكم تعبرون من ههنا إلا بأمري". وقيل لهم: "لأي معنى
غلقتم الأبواب ولبستم العدد، وأنتم صلح؟". فقال: "ما غلقناها إلا شفقة على عسكر
السلطان من الفرنج الغرب الذين عندنا، لأنهم لا يخافون الموت". فعز ذلك على السلطان
لأن الغرب الذين عنده عدتهم دون المائة نفر. وكان هذا الأمر مقدمة انحراف السلطان
عليهم؛ وبقي ذلك في خاطره. فلما توجه إلى الشام جريدة في سنة ثمان وستين وتوجه إلى
حماة ثم رحل عنها في ثالث جمادى الآخرة توجه إلى حصن الأكراد بمقدار ما ثنى فارس
بغير عدة، وصعد جبل الحصن في أربعين فارسا، فخرج له جماعة من الفرنج ملبسين، فحمل
عليهم وكسرهم، وقتل منهم جماعة ووصل إلى الخندق، وقال - وهو متنكر لا يعرف من
هو -: "قولوا لذلك الرسول الذي حضر سنة طرابلس يخلي الفرنج الغرب يخرجوا، فما نحن
أكثر من أربعين فارسا بأقبية بيض". وعاد إلى مخيمه، ورعت الخيول المروج والزروع،

فكان ذلك أحد أسباب الإستيلاء على الحصن لأنه ليس له مادة إلا من زرع بلده. فلما
توجه السلطان، وفي سنة تسع وتسعين وستمائة إلى الشام، وأغار على طرابلس كما قدمنا
نازل حصن الأكراد، في تاسع شهر رجب من السنة وملك أرباض الحصن في العشرين منه،
وحضر الملك المنصور صاحب حماة، فتلقاه السلطان وترجل لترجله،وساق السلطان تحت
صناجق صاحب حماة بغير جمدارية ولا سلاح دارية أدبا معه، وسير إليه دهليزا أمره
بنصبه. ووصل الأمير سيف الدين صاحب صهيون، والصاحب نجم الدين صاحب
الدعوة. وفي أواخر شهر رجب، تكمل نصب عدة مجانيق، وفي سابع شعبان، أخذت
الباشورة بالسيف، وفي سادس عشر الشهر، تشقق برج من أبارج القلعة، وزحف العسكر
وطلع الناس إلى القلعة وتسلموها، وطلع الفرنج القلعة "الأخرى" وأحضرت جماعة من
الفرنج والنصارى، فأطلقهم السلطان، نقلت المجانيق إلى القلعة ونصبت على القلة. وكتب
السلطان كتابا على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالقلعة يأمرهم بالتسليم. ثم طلبوا
الأمان، فكتب لهم أمان على أنهم يتوجهون إلى بلادهم. وفي يوم الثلاثاء رابع عشرين
شعبان، خرج الفرنج من القلعة وجهزوا إلى بلادهم، وتيلم السلطان الحصن. ورتب الأمير
صارم الدين الكافري نائبا بحصن الأكراد، وفوض أمر عمارة الحصن إلى الأمير عز الدين
أيبك الأفرم وعز الدين أيبك الشيخ.
وهذا الحصن كان قديما يبد المسلمين، فلما نازل صنجيل طرابلس كان يشن الغارات على
هذا الحصن وما قاربه من الحصون، ثم قصده في سنة ست وتسعين وأربعمائة وحاصره
وضيق على من به وأشرف على أخذه، فاتفق قتل جناح الدولة صاحب حمص فطمع فيها
ورحل عنه. وهلك صنجيل وملك ابنه، فجرى على عادة أبيه في أذية أهل هذا الحصن
وإفساد أعماله، ثم فارقه وتوجه لحصار بيروت. فجاء طنكلي صاحب أنطاكية ونازله،
وأهله في غاية الضعف، فسلمه صاحبه إليه، وكان يرجو أنه يبقيه فيه لأنه اختاره على

صنجيل فأنزله وأهله منه، وأخذه صحبته، ورتب فيه من يحفظه من الفرنج؛ وحكى ذلك
ابن عساكر.
وذكر ابن منقد في كتاب البلدان أن: نور الدين محمود بن زنكي، رحمه الله تعالى، كان قد
عامل بغض رجالة التركمان المستخدمين من جهة الفرنج بهذا الحصن، إلى أنه إ ذا قصده
نور الدين يثور هو وجماعة من أصحابه في الحصن ويرفعون علم نور الدين على الحصن
وينادون باسمه. وكان هذا التركماني له أولاد وإخوة قد وثق بهم الفرنج، وكان الإنفاق بينه
وبين نور الدين أن يقف على رأس الباشورة، فكتم نور الدين هذا الأمر عن أصحابه وتقدم
أوائل العسكر النوري فرأوا التركماني على الباشورة فرموه بالنشاب فمات، واشتغل أهله
بوفاته، فلم يتم لنور الدين ما دبره. ولم يفتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين. وكان
فتحه على يد السلطان الملك الظاهر الآن.

ذكر صلح أنطرطوس والمرقب

قال: وسأل كمندور أنطرطوس ومقدم بيت الإسبتار السلطان على الصلح، فأجابهم على
أنطرطوس خاصة، خارجا عن صفيتا وبلادها، وعلى المرقب. واسترجع منهم بلدة
وأعمالها وما أخذوه في الأيام الناصرية، وعلى أن جميع مالهم من المناصفات والحقوق على
بلاد الإسلام يتركونه. وعلى أن تكون بلاد المرقب، وحلف لهم السلطان على ذلك، وتوجه
لتحليف المقدم المذكور بأنطرطوس الأمير فخر الدين المقري الحاجب، وأخلى الفرنج برج
قرميص، وأحرقوا ما لا أمكنهم حمله من موجدوهم، وتسلم البرج المذكور في هذه الأيام،
وكذلك البرج الذي في بلدة هدم الفرنج بعضه الفرنج بعضه وحرقوه، ورسم السلطان بهدم
باقية.

فتوح حصن عكار

قال: ولما رتب السلطان أمور حصن الأكراد توجه إلى حصن عكار ونازله، وفي يوم
الأربعاء سابع عشر رمضان، ورتب طلوع المجانيق، وركب بنفسه على الأخشاب فوق
العجل في تلك الجبال إلى أن أوصلها إلى مكان نصبت به، وشرع في نصيب المجانيق الكبار

في العشرين من الشهر. وفي هذا اليوم، استشهد الأمير ركن الدين منكورس الدواراري،
وكان يصلي في خيمته فجاء حجر منجنيق فمات، رحمه الله تعالى. وفي التاسع والعشرين
من الشهر، طلب أهل الحصن الأمان ورفعت الصناجق السلطانية على أبراجه، وفي يوم
الثلاثاء سلخ الشهر، خرج أهل حصن عكار منه، جهزوا إلى مأمنهم، وعيد السلطان
بالحصن" ورحل إلى مخيمه بالمرج.
وهذا الحصن يعرف بابن عكار، وكان بيد المسلمين، فلما ملك الفرنج طرابلس وغيرها
ترددت الرسائل بينهم وبين طغتكين وهو بحمص، فوقع الاتفاق على أن يكون للفرنج ثلث
بلاد البقاع ويتسلمون حصن المنيطرة وحصن عكار، وإلا يتعرضوا إلى البلاد بغارة. وتقرر
معهم أن مصياف وحصن الوادي وحصن الطوبان وحصن الأكراد في الصلح، ويحمل إلى
الفرنج مال عنها. فلما تسلم الفرنج الحصنين عادوا إلى ما كانوا عليه الغارات، وصار هذا
الحصن لما تسلمه الفرنج من أضر شيء على المسلمين المارين من حمص إلى بعلبك، ولم
يكن له كبير ذكر فيما مضى، إلى ان وصل ريدافرنس إلى الساحل بعد فكاكه من الأأسر
بمصر فرآه حصنا صغيرا، فأشار على صاحبه الأبرنس أن يزيد فيه وهو يساعده في
عمارته، فزاد فيه زيادة كثيرة من جهة الجنوب. وهو في واد بين جبال محيطو به من أربع
جهاته.
ولما فتحه السلطان الملك الظاهر كتب إلى صاحب طرابلس ما مثاله قبل البسملة:
"قد علم القومص يمند - جعله الله ممن ينظر لنفسه ويفكر في عاقبة يومه من أمسه -
نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها في جبال
تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في جرها على مناكدة الأوحال ومكابدة
الأمطار، وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى، وكيف هبطنا
تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها ما كان غير جبالها رشا، وكيف صارت
رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم، وحسنت بهم استعانة نائبك الذي انتحى بهم".

وكتابنا هذا يبشرك أن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس
صار عوضه الله أكبر، ومن بقي من رجاله أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا
ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوايح، وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذروا
أهل طرابلس أنهم يغترون بحديثك المفتري، وليروهم الجراح التي أريناهم بها نفادا، ولينذروه
لقاء يومهم هذا، ويفهموكم أنه ما بقي من حياتكم إلا القليل، وأنهم ما تركونا إلا على
رحيل، فتعرف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن
قريب، ونعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول إنها عن الضيافة لا تغيب، لآن أهل عكار
ما سدوا لها جوعا، ولا قضت من ريها بدمائهم الوطر، وما أطلقوا إلا لما عاقب شرب
دمائهم. وكيف لا، وثلاثة أرباع عكار عكر. يعلم القومص هذه الجملة المسرودة ويعمل
بها، وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده.
وقال المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر:

يا مليك الأرض بشرا ك فقد نلت الإرادة
إن عكار يقينا هي عكا وزيادته

صلح طرابلس
قال: ولما استقر أمر حصن عكار رحل السلطان من منزلته بالأرزوية هو وجميع العساكر
والأثقال، وساق على عزم حصار طرابلس، فوردت الأخبار أن ملك الإنكتار وصل إلأى
عكا، في أواخر شهر رمضان من هذه السنة، وصحبته ثلاثمائة فرس، وثماني بطس وشواني
ومراكب تكملة ثلاثين مركبا، غير ما كان سبقه صحبة استاد داره، وأنه يقصد الحج. ففتر
عزم السلطان ونزل قريبا من طرابلس جريدة، وتردد الأتابك إلى جهة طرابلس، والأمير
سيف الدين الدوادار واجتمعا بصاحبها. وأراد السلطان قدر ما بقي من الأشجار، فسير
البرنس يطلب الصلح وخرج وزراؤه، وكتبت الهدنة لمدة عشر سنين. وجهز السلطان فخر
الدين من جلبان، وشمس الدين الأخنائي شاهد الخزانة ومعهما ثلاثة آلاف دينار مصرية
لفكاك الأسرى وتوجه السلطان إلى حصن عكار، ثم عاد إلى مخيمه بالأرزونية، ثم توجه

إلى حصن الأكراد، ثم رحل فوصل إلى دمشق في نصف شوال.
فتوح القرين
كان حصن القرين إسبتار الأرمن، ولم يكن لهم بالساحل غيره، وكان من أمنع الحصون
وأضرها على صفد، فتوجه السلطان إليه من دمشق، في الرابع والعشرين من شوال سنة
تسع وستين وستمائة ووصل إلى صفد وجهز منها المجانيق وسار إلى القرين ونازله. وبينما
السلطان واقف لنصر المجانيق وردت رسل عكار. واتفق أن السلطان "كان" يرمي نشابا
على القلعة فمر به طائر فرماه فإذا فيه بطاقة من جاسوس في العسكر للفرنج مضمونها
أخبار السلطان، وذلك بحضور الرسل، فسلم السلطان الطائر لهم وقال: "واستصحبوه
معكم لتقرأ الفرنج هذه البطاقة، ونحن نفرح بمن نخبركم بأخبارنا". وفي مستهل ذي القعدة
ملك الربض، وفي ثانيه أخذ الباشورة، وأخذت النقوب في السور، وشرط السلطان
للحجارين عن كل حجر ألف درهم. واشتد القتال، فحضر رسلهم، وتقرر خروجهم
وتوجههم حيث شاءوا، وأنهم لا يستصحبون مالا ولا سلاحا. وكتب الأمان بذلك،
ورفعت الصناجق السلطانية عليها، وركب السلطان وأصبح على أبواب عكا مطلبا، فما
ترك أحد من الفرنج، وعاد إلى مخيمه بالقرين، وأمر بهدم القلعة فتكمل هدمها في رابع
وعشرين ذي القعدة من السنة.
صلح صور وما تقرر من المناصفة
وحضرت رسل صاحب صور، وحصل الاتفاق على أن يكون لهم من بلاد صور عشرة
بلاد خاصا، وللسلطان خمسة بلاد يختارها تخصه، وبقية البلاد مناصفة، وحلف السلطان
على ذلك.وجهز الرسل فحلفوا صاحب صور على ما تقرر.

منازلة التتار البيرة وكسرهم على الفرات
وقتل مقدمهم جنقر
وفي تاسع شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وستمائة وردت الأخبار بحركة التتار،
فجرد السلطان الأمير فخر الدين الحمصي بجماعة من العساكر المصرية والشامية إلى جهة
حارم، ثم جهز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيري بجماعة من العساكر وجماعة من

العربان وعد التتار البر الشامي لقصد الرحبة فتقسم فكر السلطان ليقسمهم على البيرة
والرحبة، ورحل من ظاهر دمشق، فبلغه رحيل العدو عن الرحبة، فجد في مسيره ووصل
إلى الفرات إلى مخاضة تعرف بمخاضة الحمام، فوجد التتار قد وقفوا على شط الفرات،
وعدتهم قريب الخمسة آلاف فارس، ومقدمهم جنقر أحد مقدميهم الكبار وحفظوا فم
المخاضة. وكان السلطان قد استصحب عدة مراكب من دمشق وحمص فرست في
الفرات، وركب فيها الرجالة الاقجية لكشف البر. وعمل التتار مكيدة: وهي أنهم تركوا
المخاضة السهلة ووقفوا على مكان بعيد الغور وعملوا الستائر، فاعتقد المسلمون أن
المكان الذي حفظوه هو المخاضة السهلة فخاضوا منه، وكان العدو قد عملوا سيبا على
البر من جانبهم ليقاتلوا من ورائها، فرتبت العساكر الإسلامية نفوسها بخيولها، وعاموا
أطلابا، الفارس إلى جانب الفارس، متماسكين بالأعنة معتمدين على الرماح، كما قال القائل:

فعمنا إليهم بالحديد سباحة ومن عجب أن الحديد يعوم

وازدحم الناس وانسكر الماء بهم فصار كالجبال. وطلع المسلمون، والسلطان في أوائل
القوم، فلم يلبث التتار أن انهزموا أقبح هزيمة، وقتل مقدمهم جنقر وجماعة كثيرة منهم
وأسرت جماعة، وأقام السلطان إلى العصر وجمع الأسرى ورؤوس القتلى وبات في مكان
النصر، والعساكر لابسة والخيل ملجمة، وأصبح يوم الاثنين بمنزلته حتى عاد من كان قد
ساق خلف العدو، واستبرئ أمر العدو، ثم عادت العساكر، وكان العود عليهم أشق.
ولما صار السلطان بالبر الشامي بلغه أن التتار الذين كانوا نازلوا البيرة ومقدمهم درباي قد
هربوا وتركوا أزوادهم والمجانيق التي معهم، ورموا النار في بعض ذلك، ونزل أهل البيرة
وحملوا من ذاك شيئا كثيرا. فنزل السلطان على جبل مشرف قرب البيرة من الجانب
الشامي، وتوجه إليها على الجسر الذي مده العدو وهو جسر كبير تحته المراكب
والصواري والسلاسل، ومعه جماعة من الأمراء، وأنعم على النائب بها بألف دينار، و

"الأمير سيف الدين" الصروي المجرد بها بألف دينار، وعم من بها بالتشاريف، وأنعم على
أهل الثغر بمائة ألف درهم، وجرد بها جماعة زيادة من بها، وعاد إلى مخيمه، وسار إلى
دمشق فدخلها في ثالث جمادى الآخرة والأسرى بين يديه.

فتوح كينوك
كان قد كثر فساد أهل كينوك وتعديهم على التجار والقصاد، وكتب إلى صاحب سيس
في ذلك فلم تفد فيه المكاتبة، فجرد الأمير حسام الدين العين تأبى مقدم العسكر الحلبي إلى
كينوك، فوصل إليها في ثالث المحرم، فأخذوا الحوش البراني، ودخل الأرمن إلى القلعة،
فقاتلهم المسلمون وملكوها وقتلوا الرجال وسبوا الحريم، وأغار العسكر على أطراف
طرطوس ونهبوا وسبوا. وهذه كينوك هي الحدث الحمراء التي بناها سيف الدولة على بن
حمدان، ومعنى تسميها كينوك أي المحترقة. وكان قسطنطين صاحب سيس قد أخذها
من ملوك الروم السلجقية وأحرقها. وهي التي يقول فيها المتنبي عند بنائها يمدح سيف
الدولة في قصيدته التي أولها: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم"

سل الحدث الحمراء يعرف لونها ويعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها على والقنا تقرع وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن حيث القتلى عليها تمائم أن الحد أ

وكان من خبرها: أن سيف الدولة بن حمدان سار لبنائها، وكان أهلها سلموها بالأمان
للدمستق ملك الروم، وفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فنزلها سيف الدولة في يوم الأربعاء
ثاني جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، فحط الأساس من يومه، وحفر أول
الأساس بيده، وأقام حتى كمل بناؤها في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رجب من السنة.

إغارة عيسى بن مهنا على الأنبار
وفي سنة لثنتين "وسبعين" وستمائة: رسم السلطان للأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا
"أمير العرب" بالإغارة على بلاد العراق، فوصل إلى الأنبار فوجد بها جماعة من التتار،

وكان السلطان قد اختفى أمره، فلما وصل عيسى إلى الأنبار توهموا أن السلطان دهمهم، فعدوا إلى البر الآخر، واقتتل عيسى وخفاجة، ودام القتال نصف نهار، وكانت هذه الإغارة في ثامن عشر شعبان.

الإغارة على مرعش

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة: توجه عسكر حلب صحبة الأمير حسام الدين العين تابي إلى جهة مرعش، وأغاروا على بلاد سيس، وحازوا غنائم كثيرة، وقلعوا أبواب ربض مرعش، وغرق ربيعة بن الظاهر بن غنام في نهر هناك.

غزوة سيس

كان صاحب سيس قد اعتمدوا ما يقتضي فسخ الهدنة التي وقع الإتفاق عليها في سنة ست ستين عند إطلاق ولده ليفون، وقطع الهدايا المقررة عليه، وخالف الشروط من أنه لا يجدد بناء ولا يحصن قلعة، وصار لا يطالع بخبر صحيح كما تقرر معه، ثم لم يقتصر على ذلك إلى أن صار يلبس الأرمن السراقوجات ويخيف القوافل ويدعى أنهم من عسكر التتار، فاقتضى ذلك أخذ كينوك وإخرابها كما ذكرنا، فتصور صاحب سيس من ذلك.

فذكر السلطان لرسوله سوء اعتماده،وأرسل إليه يعرفه أنه عزم على قصد سيس، ثم أسر السلطان في نفسه قصده ولم يبده لأحد، بل أظهر الحركة إلى الشام وعرض العساكر في يوم واحد تحت القلعة، وخرج ثالث شعبان سنة ثلاث وسبعين وستمائة، ووصل إلى دمشق في سلخ الشهر، وخرج منها في سابع شهر رمضان بجميع العساكر.

ولما وصل إلى حماة خرج الملك المنصور صاحب حماة بعساكره، ثم سار وفي خدمته العساكر والعربان. فجرد الأمير شرف الدين بن مهنا، والأمير حسام الدين العين تابي إلى جهة البيرة بصورة جاليش العسكر المنصور فوصلوا إليها. ولما وصل السلطان إلى سرمين رحل منها إلى جهة الدربساك، وآخر الأثقال وبعض العسكر صحبة الأمير شمس الدين سنقر جاه بسرمين، وجرد الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار، والأمير مبارز الدين الطوري لتمهيد جوانب النهر الأسود، فقطعته العساكر بمشقة. ونزل السلطان بين الدربساك وبغراس، وأمر جماعة من

مقدمي الألوف أن يتوجه كل منهم إلى جهة وطلعوا تلك الجبال، وأمر الناس بوقود الشموع
فقطعوا تلك الجبال والأوعار والمضايق. وكان السلطان قد حمل ثلاثين مركبا لأجل التعدية،
ونزل السلطان داخل باب اسكندرونة خلف السور الذي بناه الملك هيتوم والد ليفون
صاحب سيس، ثم رحل إلى قرب المثقب، وملكت العساكر جسر المصيصة وملكوا
المصيصة، وغلبت العساكر على ما فيها، وقتلوا من وجدوا بها، وغنم الناس ما لا يحصى
كثرة من البقر والجاموس والغنم، وحضر إلى الطاعة جماعة كبيرة من التركمان والعربان
بمواشيهم وخيولهم، فجهزهم السلطان إلأى البلاد الإسلامية، وساق مطلبا في تاسع
وعشرين شهر رمضان، فوصل إلى سيس، فعدل عنها ووصل دربند الروم، ووجد بقايا من
حريم التتار فسبين، وعاد فبات في تلك الجبال، وعيد بمدينة سيس، وهي كرسي ملك
الأرمن، وبها بستان متملكها ومناظره.فانتهبت مدينة سيس وهدمت وأحرقت وتحصن
أهلها بقلعتها ولما فرغ من إحراق المدينة وهدم قصور التكفور وعادت الجاليشية بما سبوه
من حريم المغول وأولادهم، وسيقت الغنائم، وعاد السلطان ورعت العساكر الزروع.
ووصل الأمير جمال الدين المحمدي، والأمير عز الدين الدمياطي إلى طرسوس ووجدوا بها
من الخيل والبغال مقدار ثلاثمائة رأس فاستاقوها. وتوجه الأمير مبارز الدين الطوري،
والأمير عز الدين كرجي إلى قريب البحر وقاتلوا جماعة من العدو، ووجدوا مراكب في
البحر فدخلوا إليها وأخذوها وقتلوا من فيها. ووصل الأمير سيف الدين الزيني إلى قلعة
البرزين، ووصل الأمير بدر الدين الأيدمري إلى أذنة، وغنموا نساء وأطفال. وأغارت
العساكر في تلك الجبال وقتلوا رجالا كثيرة ووصل الأمير بدر الدين بيسرى والأمير سيف
الدين أيتمش السعدي إلى أياس، وكان خبر العسكر قد وصل إلى من بها من الفرنج فنقلوا
أموالهم إلى المراكب فاحرقت العساكر وقتلت جماعة كبيرة في البر والبحر، وحضر بعد
ذلك كتاب وإلى اسكندرونة يتضمن: أن العساكر لما قصدت أياس ركب جماعة منها من

الفرنج والأرمن قريب ألفي نفس هاربين فغرقوا جميعهم، وأخذ الأمير بدر الدين أمير سلاح
جشارات خيول. هذا ما يتعلق بغزوة سيس.
وأما العسكر والعربان الذين توجهوا إلى جهة البيرة فوصلوا إلى رأس عين وغنموا غنائم
كثيرة، وانهزم من كان في تلك الجهة من التتار، وعاد العسكر سالما منصورا. ووصل
السلطان إلى المصيصة وأحرقت من الجانبين.
ولما تكامل حضور الأمراء بالغنائم وخروج التركمان والعربان الواصلين إلى الطاعة من
الدربندات، رحل السلطان وعبر على بحيرة بها أغصان ملتفة مثل الغابة وبها جزائر قد
تحصن بها جماعة من تلك البلاد ونقلوا إليها حريمهم وأموالهم، فرمى العسكر نفوسهم فيها
عوما بالخيل فقتلوا وسبوا. ثم عبروا على تل حمدون، وقلعة النقير فعاثت العساكر فيهما،
وخرج العسكر من الدربندات فشاهدوا الغنائم قد ملأت المروج طولا وعرضا، فوقف
السلطان بنفسه وفرق الغنائم وعم بها الناس، وما أخذ لنفسه شيئا منها. ثم سار بعد
القسمة فنزل دهليزه بحارم.
فقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

يا ملك الأرض الذي عزمه كم عامر للكفر منه خرب
قلبت سيسا فوقها تحتها والناس قالوا سيس لا تنقلب

أخبار بلاد سيس
وسبب استيلاء الأرمن عليها
المصيصة بناها عبد الملك بن مروان في أيام أبيه، في سنة أربع وثمانين من الهجرة النبوية.
وأما طرسوس فهمي من المدن القديمة، وفيها دفن الخليفة عبد الله المأمون بن الرشيد كما
ذكرنا.
وطرسوس وأذنة وما يليهما تسمى قيليقيا، وتعرف هذه البلاد بالدروب والعواصم، وبها
كان الغزو والرباط والجهاد والمثاغرة، وكانت مضافة إلى مملكة مصر في إمارة أحمد بن
طولون ومن بعده، حتى استولى الروم عليها كما قدمنا
واستمرت بيد الروم إلى أن استولى
عليها مليح بن ولان الأرمني، وذلك في أيام العادل نور الدين الشهيد، بمساعدته، وهزم
"مليح" جيش الروم فقوى عند ذلك البلاد، وكانت هزيمته للروم في يوم الأحد سلخ شهر

ربيع الآخر سنة ثمان وستين وخمسمائة، وأسر من مقدميهم ثلاثين أسيرا، فأحسن إليه نور
الدين وخلع عليه، وكتب إلى بغداد يعظم أمر الروم ويذكر أن هذا مليح الأرمني من جملة
غلمانه، وأنه كسر الروم، ومن بذلك على أهل بغداد.
واستمر ملك هذه البلاد في هذا البيت إلى الآن.
نعود إلى أخبار السلطان الملك الظاهر.
قال: ثم رحل السلطان وخيم بمرج أنطاكية، وانبثت العساكر في تلك المروج ورعت
الأعشاب، ثم رحل.
ذكر منازلة حصن القصير وفتحه
هذا الحصن مما لم يفتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف بن أيوب رحمه
الله، وقيل إنه صالح عليه، وما زال لمن يكون بابا برومية؛ والبابا خليفة عند الفرنج ينفذ
أمره وحكمه في سائر ملوك الفرنج.
وأمر الحصن راجع إلى بترك أنطاكية، والفرنج تميزه وتؤثره.
وأهله أهل شره ومنعه وفساد،
وكان مضرة على الفرعة وتلك الجهات. ولما فتح السلطان أنطاكية سأل أهل القصير الهدنة
والمناصفة، فأجيبوا إلى ذلك كما قدمناه. فما وفوا وأخفوا في المناصفة. ولما وصل
صمغار "مقدم التتار" إلى جهة حارم ضرب أهل القصير البشائر، ودلوا على الطريق وأمثال
ذلك مما يقتضي فسخ الهدنة. وكان السلطان قد رسم للأمير سيف الدين الدوادار بالتردد
إلى كليام النائب بالقصير وإظهار مصافاته.واعتمد ذلك وتوجه المذكور إليه في خامس
عشر شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة، ومعه جماعة من السلاح دارية بصورة أصحابه،
فوصلوا إلى القصير وأظهر الأمير سيف الدين غضبا كون كليام ما خرج للقائه وقصد
الرجوع فبلغه ذلك فخرج مسرعاً ليسترضيه ويرده، فأدركه فامتنع من الرجوع.
واستدراجه حتى أبعد عن الحصن، ثم قتل من كان معه وأخذ كليام وأحضره إلى
السلطان. فكتب إلى أصحابه بالتسليم فما رجعوا إلى كلامه.
فجرد السلطان جماعة من
أمراء حلب وهم: سيف الدين الصروي وشهاب الدين مروان وإلى أنطاكية وجماعة من
الرجال، فنازلوا القصير.

وتوجه السلطان إلى دمشق واستصحب كليام معه، وكان شيخا كبيرا وكان ابنه في
الأسر، فمات كليام في الأسر بعد اجتماعه بابنه. ولما اشتد الحصار على القصير وعدموا
الأقوات سلموا الحصن المذكور في يوم الأربعاء ثالث وعشرين جمادى الأولى سنة أربع
وسبعين. وحمل أهله إلى الجهات التي قصدوها.
وفاة الأبرنس صاحب طرابلس
وما انفق بعد وفاته
وفي تاسع شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وستمائة: توفي الأبرنس بيمند بن بيمند
صاحب طرابلس. ووصل ملك قبرص، وهو ابن عم الأبرنس إلى طرابلس لتعزية ولده،
وكان السلطان قد كتب إلى البرنس يقول: "إن اللاذقية النصف، فتترك النصف الآخر فإنه
من حقوق المسلمين". فلما سمع الفرنج ذلك قووا البرج، وخاف المسلمون عاديتهم. فرسم
السلطان لركن الدين النائب ببلاطنس بنقل من باللاذقية من المسلمين إلى البلاد السلطانية.
فوصل كتاب نائب البرنس الذي باللاذقية يذكر أنهم ما برحوا في الطاعة، وقد عز عليهم
خروج من عندهم. ووردت رسل ملك عكا وهو يشفع عند السلطان قد سير عسكرا
للحوطة على عرقا ومغل بلادها، فسير ملك عكا وقبرص يتوسل في أمرهم، وسأل إنفاد من
يوثق به لأجل الدعاوى، ويكون منه إلى نواب السلطان ومن ملك عكا إلى نواب البرنس.
فسير الأمير سيف الدين الدوادار فتوجه إلى عرقا. وأقام بها، فاجتمع عنده نائب بعلبك،
وولاه البر ومشايخ البلاد ومستخدميها ونواب الفرنجية. وكتبت الدعاوى وترددت الرسل.
واتفقت وفاة الأمير صارم الدين الظافري النائب بحصن الأكراد، فبقي الفرنج يعتذرون به
وأنكروا الدعاوى ثم سأل الملك حضور الأمير سيف تالدين إلى طرابلس فدخلها في ثامن
المحرم في تجمل كثير من المماليك السلطانية ومماليكه وأجناده، وتلقاه أبناء الملوك بها،
واجتمع بالملك وسلم إليه كتاب السلطان، وتقرر على الفرنج القيام بعشرين ألف دينار
صورية وعشرين أسيرا من المسلمين.
غزوة النوبة

وفي سنة أربع وسبعين وستمائة: كثر تعدي داود متملك النوبة، وحضر إلى قريب أسوان
وأحرق سواقي. وكان قبل ذلك قد حضر إلى عيذاب، وفعل الأفعال الشنيعة. وتوجه
الأمير علاء الدين الخزندار وإلى قوص إلى أسوان فلم يدركه وظفر بنائبه الأمير قمر الدين
"بقلعة" الدو المسمى صاحب الجبل وجماعة معه، فجهزهم إلى السلطان فوسطوا. وأمر
السلطان بتجريد الأمير شمس الدين أفسنقر استاد الدار، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير
جاندار، وصحبتهم جماعة من العسكر ومن أجناد الولايات والعربان بالوجه القبلي.وكان
قد حضر ابن أخت ملك النوبة مرمشكد الذي أخذ داود الملك منه. فجهز العسكر
المنصور وتوجه "مرمشكد" صحبتهم. فأغار الأمير عز الدين على قلعة الدو وقتل وسبى،
وسار الأمير شمس الدين في أثره يستأصل شأفه من بقي، ونزل الأمير شمس الدين بجزيرة
ميكائيل وهي رأس جنادل النوبة، وهي كثيرة الأوعار وفي وسط البحر، فقتلوا وأسروا.
وكان نائب قلعة الدو الذي ولى عوض الموسط قد هرب إلى الجزائر، فأعطى أمانا واستمر
على نيابته، وحلف لمرمشكد المتوجه صحبة العسكر ما دام على الطاعة. وخاص الأمير
عز الدين في وسط البحر إلى برج فحاصره،وأخذه وقتل به مائتين وخمسين نفرا.
ثم ساق العسكر والتقوا الملك داود، ومازال السيف يعمل فيهم حتى أفناهم وما سلم إلا
من ألقى نفسه في البحر. وهرب داود، وأسر أخوه سنكوا. وجرد جماعة من العسكر
وساقوا ثلاثة أيام وأمسكوا أم الملك داود وأخته.
وقرروا على الملك مومشكد المتوجه صحبة العسكر قطيعة في كل سنة وعرض على أهل
النوبة الإسلام أو القيام بالجزية أو القتل، فاختاروا القيام بالجزية وأن يقوم كل واحد بدينار
عينا، وحرقت كنيسة سوس التي كان داود يزعم أنها تحدثه بما يؤديه. وكان داود قد بنى
مكانا سماه عيذاب عمره على أكتاف المسلمين " الذين أسرهم من عيذاب وأسوان" وفيه
منازل وكنائس، وميدان صور فيه قتلى المسلمين بعيذاب وأسرهم بأسوان، فمحيت لك

النصاوير منه وخرب وتقرر حمل ما هو مخلف عن الملك داود واقاربه. وكانت إقامة
العسكر بدنقلة سبعة عشر يوما حتى تمهدت البلاد واستنقذت أسرى المسامين المأسورين
من أسوان وعيذاب، وألبس مركشد التاج على عادة ملوك النوبة، وأجلس بمكان الملك
"داود" وحلف اليمين العظيمة عندهم على ما تقرر وهي:
"والله، والله والله، وحق الثالوث المقدس، والإنجيل الطاهر: والسيدة الطاهرة العذراء أم
النور والمعمورية، والأنبياء المرسلين والحواريين والقدسيين، والشهداء الأبرار. وألا أجحد
المسيح كما أجحده بودس، وأقول فيه ما يقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه. وألا أكون بودس
الذي طعن المكسيح بالحربة، أنني أخلصت نيتي وطويتي من وقتي هذا وساعتي هذه
للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس، وأنى أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل
مرضاته، وأني ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على في كل سنة تمضي، وهو ما يفضل من
مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من
المتحصل للسلطان مخلصا من كل حق، والنصف الآخر أرصده لعمارة البلاد وحفظها من
عدو يطرقها، وأن يكون على كل سنة: من الأفيلةثلاثة، ومن الزرافات ثلاث، ومن إناث
الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، ومن الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة. وأنني أقرر
على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا، وأن تفرد
بلاد العلي والحيل خاصا للسلطان. وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه سنكوا ولأمة
وأقاربه، من قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة، أحمله إلى الباب العالي مع من
يرصد لذلك. وأثنى لا أترك شيئا منه قل ولا جل، ولا أخفيه ولا أخفيه ولا أمكن أحدا
من إخفائه، ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو شيء من هذا المذكور أعلاه كله كنت
بريئا من الله تعالى، ومن المسيح، ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلى إلى
غيره الشرق، وأكفر بالصليب، وأعتقد ما تعقد اليهود، وإني لا أترك أحدا من العربان ببلاد

النوبة، ومن وجدته منهم أرسلته إلى الباب السلطاني، ومهما سمعت من الأخبار السارة
والنافعة طالعت به السلطان في وقته وساعته، ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم تكن
مصلحة، وأنني ولي من والي السلطان وعدو من عاداه، والله على ما تقول وكيل."
"ثم هذا عهد آخر صادر من أمير بطاعة مرمشكد وبطاعة بيبرس."
"وحلفت الرعية أيضا بتلك الجهات بأنهم يطيعون نائب السلطان، وهو الملك مرمشكد
المقيم برنقلة، وكل نائب يكون للسلطان أطيعه ولا أرى عليه برأي، ولا أخبي عنه مصلحة،
وكل ما أسمعه من الأخبار الجيدة والردية أطالع نائبه به، ومتى علمت على نائبه الملك
مرمشكد أمرا يخالف المصلحة لا أطيعه فيه وأطالع السلطان به في الوقت والساعة. وأنني
لا أدخل في حكم داود، ولا أكون معه، ولا أطالعه بخبر من الأخبار، ولا أرتضي به ملكا،
ورضيت بأن أقوم بدينار عينا في كل سنة خالية على".
وعاد العسكر وأحضر من النوبة ما نذكر، وهو ما وجد في كنيسته سوس من الصلبان
الذهب وغيرها: أربعة آلاف وستمائة وأربعون دينارا ونصف، وأواني فضيات ثمانية آلاف
وستمائة وستون دينارا، والذي أحضر من الرقيق، وسبعمائة رأس.
وأما الملك دواد فإنه هرب إلى جهة الأبواب، فقاتله صاحبها الملك أدر، وقتل ولده،
وأمسكه وسيره إلى السلطان.
غزوات النوبة في الإسلام
أول ما غربت النوبة في سنة إحدى وثلاثين للهجرة النبوية، غزاها عبد الله بن سعد في
خمية آلاف فارس، وأصيب في ذلك اليوم معاوية بن حديج في عينه، وأصيب أبرهة
الصباح في عينه، واصيب أبرهة الصباح في عينه، وكانوا يسمون النوبة: رماة الحدق.
وهادنهم عبد الله بن سعد بعد أن وصل دنفلة.
وفي ذلك يقول الشاعر:

لم تر عيني مثل يوم دنفلة والخيل تعدو بالدروع مثقلة
ترى الحماة حولها مجدلة كأن أرواح الجميع مهملة

وقال يزيد بن أبي حبيب: "ليست الموادعة بين أهل مصر والنوبة موادعة هدنة، وإنما هي

هدنة أمان، نعطيهم سيئا من قمح وعدس، ويعطونا رقيقا، ولا بأس بما يشترب من
رقيقهم".
وكان البقط المرتب على النوبة وهو الرسم على ما قرر:
في كل سنة أربعمائة رأس من الرقيق، وزرافة واحدة. لأمير المؤمنين ثلاثمائة وستون رأسا،
وللنائب بمصر أربعون رأسا.
ويطلق لرسله، إذا وصلوا بالقبط تاما، ألف وثلاثمائة أردب قمح، لرسله منها ثلاثمائة.
وقال البلاذري في كتاب الفتوحات: "إن المقرر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعاما
أي غلة".
وألزمهم المهدي العباسي بثلاثمائة وستين رأسا ورزافة.
ثم غزيت في زمن عبد الملك بن مروان، ولم تفتح وإنما كان قتال ونهب وسبي.
وغزاها يزيد بن أبي حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، على يد عبد الأعلى بن
حميد
وغزاها أبو منصور تكين التركي هي وبرقة في عام واحد، ولم تفتح النوبة.
ثم غزاها كافور الإخشيدي، وكان أكثر جيشه السودان.
فقال الشاعر:
ولما غزا كافور دنقلة غدا بجيش لطول الأرض من مثله عرض
غز الأسود السودان في رونق الضحى فلما التقى الجمعان أظلمت الأرض
ثم غزاها ناصر الدولة بن حمدان، فكبسه السودان، ونهب جيشه، وأخذت أثقاله، وذلك
في سنة تسع وخمسين وأربعمائة في أيام المستنصر العبيدي.
ثم غزاها بعد ذلك شمس الدولة توران بن أيوب أخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في
سنة ثمان وستين وخمسمائة، ولم يصل إلا إلى أبريم.
وكل هذه غزوات، وإنما الفتح هذا.
غزوة الروم وقتل التتار
قد ذكرنا في أخبار السلطان في سنة خمس وسبعين وستمائة؛ طاعة أمراء الروم ووصولهم
إلى خدمة السلطان، وإكرامه لهم وإحسانه إليهم وما عاملهم به. ولما وصل السلطان إلى
الديار المصرية في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة. أقام بها إلى
شهر رمضان منها ثم عزم على السفر. وجهز من وصل إليه من أمراء الروم بالخيول والخيام

وغير ذلك وتوجه من قلعة الجبل المحروسة، بعساكر الديار المصرية في يوم الخميس العشرين
من شهر رمضان من السنة. ورتب الأمير شمس الدين أفسنقر أستاد الدار في النيابة عنه
بقلعة الجبل والصاحب بهاء الدين وجعلهما في خدمة ولده الملك السعيد. واستصحب
معه الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين وزير
الصحبة، وهي أول سفرة سافرها صحبته، واستصحب أكثر كتاب الإنشاء، وفوض في
هذا اليوم نظر الجيوش للقاضي عز الدين إبراهيم بن الوزير الأعز فخر الدين مقدام بن
شكر، والشهادة به للقاضي شمس الدين الأرمني، واستصحبها صحبته.
ثم رحل يوم السبت ثاني عشرين الشهر وصحبته أمراء الروم، وسار فما مر بمملكة إلا
واستصحب عسكرها وخزائنها وأسلحتها، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الأربعاء سابع
عشر شوال، وخرج منها متوجها إلى حلب في يوم السبت العشرين من الشهر، وكان وصوله
إلى حلب في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة، وخرج منها في يوم الخميس ثاني الشهر إلى
حيلان فترك بها بعض الثقل، وتقدم إلى الأمير نور الدين علي بن مجلي نائب السلطة بحلب
أن يتوجه إلى الساجور، ويقيم على الفرات بمن معه من عسكر حلب، لحفظ معابر الفرات،
خشية أن يعبر منها أحد من التتار إلى الشام. ووصل إلى الأمير نور الدين، الأمير شرف
الدين عيسى بن مهنا.
ولما اتصل خبر نزول هذا الجيش بالتتار المقدمين بالعراق جهزوا إليهم جماعة من عرب
خفاجة لينالوا من العسكر غرة، فاتصل خبرهم بالأمير نور الدين "نائب حلب وهو على
الفرات" فركب إليهم وقاتلهم وهزمهم، وأخذ منهم ألفا ومائتي جمل. ورحل السلطان من
حيلان يوم الجمعة ثالث الشهر إلى عين تاب ثم إلى دلوك، ثم إلى مرج الديباج ثم إلى كينوك،
ثم رحل منها إلى كراصوا، ثم إلى أقجا دربند، فوصله يوم الثلاثاء سابع الشهر فقطعه في
نصف نهار، وبات في وطأة هناك. وقدم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في جماعة من

العسكر جاليشا، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار مقدمهم كرأي، فهزمهم وأسر منهم
وقتل، وذلك في يوم الخميس تاسع الشهر. ثم ورد الخبر على السلطان أن عسكر المغل
ومقدمهم تتاون وعسكر الروم ومقدمهم "معين الدين" البرواناه قد قربوا من العسكر، فرتب
السلطان وطلعت العساكر على جبال مشرفة على صحراء هوني من بلد أبلستين، وكان
العدو في تلك الليلة قد بات على نهر جهان، وهو نهر جيحان، فأقبل المسلمون من علو
الجبل، وترتبت المغل أحد عشر طلبا بمفرده "لئلا يكون مخامرا عليهم".
وكان أبغا بن هولاكو قد انتخب هذا الجيش من عسكره، وكان فيه جماعة من أكابر
مقدمي المغل. فوقف السلطان وتقدم إليهم جماعة من مماليكه وخواصه، فأخلدت فرقة
منهم إلى الأرض وقاتلوا قتالا شديدا، وحملت فرقة منهم من ميسرتهم واستدارت خلف
الصناجق السلطانية، فحمل السلطان عليهم، فانجلت الحرب عن قتل التتار، وكان من بقي
منهم كما قيل:

فلزهم الطراد إلى قتال أحد سلاحهم فيه القذاره

وكانت وقعة
عظيمة مشهورة فثبت فيها المغل.
واستشهد من المسلمين في هذا اليوم شرف الدين قيران العلائي أحد مقدمي الحلقة، وعز
الدين أخو المحمدي.
ونزل السلطان في المنزلة التي كان العدو نازلا بها، وأحضرت بين يديه الأسارى من المغل،
فاستبقى السلطان بعض أكابرهم وقتل من بقي منهم، وأسر جماعة من أكابر أمراء الروم،
ووصل جماعة منهم إلى الخدمة. وكان ممن أسر ووصل من الروم بكلاء بن البرواناه ومعه
ولد أخته، وولد خواجا يونس، والأمير نور الدين بن جاجا،والأمير قطب الدين أخو
الأتابك، والأمير سراج الدين جاجا، وسيف الدين سنقر جاه الزوباشي، ونصرة الدين
صاحب سيواس، والأمير كمال الدين، عارض الجيش بالروم، وحسام بركاول، قريب
البرواناه، وسيف الدين بن عليشير التركماني، والأمير سيف الدين جاليش النائب بالروم،

وهو أمير داد، ومعناه أمير العدل، وظهير الدين فتوح مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة،
والأمير نظام الدين أوحد بن الأمير شرف الدين بن الخطير وإخواته، وقاضي القضاة حسام
الدين قاضي الروم، ومظفر الدين بن حجاف، وأولاد الأمير صارم الدين بن الخطير، وجماعة
من أصحابهم، وسيف الدين كجكنا الجاشنكير، ونور الدين المنجنيقي، واولاد رشيد
الدين صاحب ملطية كمال الدين وإخوته، وأمير على صاحب كركر، وأكثر هؤلاء حضروا
بيوتهم وأولادهم، وأما البرواناه فإنه هرب.
قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: وأما البرواناه فإنه
شمر الذيل وامتطى هربا أشهب الصبح وأحمر الشفق وأصفر الأصيل وأدهم الليل، ودخل
قيسارية في وقت السحر من يوم الأحد ثاني عشر الشهر، فأفهم سلطانها غياث الدين
كيكاوس بن كيخسرو والصاحب فخر الدين وزيرها، والأتابك مجد الدين والأمير جلال
الدين المستوفي، والأمير بدر الدين ميكائيل النائب، والطغرائي وهو ولد أخي البرواناه: أن
جيش الإسلام كسر بعض المغل، وأن بقية المغل انهزموا ويخشى أن يدخل المغل قيسارية
ويقتلون من بها حنقاً على الإسلام، فأخذهم وأخذ زوجته بنت غياث الدين صاحب
أرزن الروم، وتوجهوا كلهم إلى توقات. ولهذه كرجي خاتون "امرأة البرواناه" أربعمائة جارية
استصحبن معها. وكانت أم هذه كرجي خاتون ملكة الكرج.
وتوقات مكان حصين مسيرة أربعة أيام من قيسارية.
وجرد السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بجماعة لإدراك من انهزم من المغل،
والتوجه أمامه إلى قيسارية، وكتب بتأمين أهلها. فمر بفرقة من التتار معهم البيوت، فأخذ
عنهم جانبا. وحال بينهم الليل، فمر كل منهم في جهة.
ورحل السلطان يوم السبت حادي عشر الشهر من مكان المعركة ونزل قريبا من قرية
رمان، وهي قريب الكهف والرقيم حقيقة كما نقل، لا ما يقال إن الكهف والرقيم من عمل
بيسان والبلقاء.
وقرية رمان هذه بيوتها مبنية حول سن جبل قائم كالهرم ويطوف بها جبال كأنها أسوار،
ويخرج منها أنهار عليها قناطر لا تسع غير راكب.

واشتدت الأمطار، ثم سار بكرة النهار إلى الليل، ونزل بوطأة من أعمال صاروس العتيق،
وبقربها معدن الفضة. فأتى السلطان مخبر أن التتار في فجوة هناك بالعساكر فعاقته كثرة
الأمطار فعاد وبات في تلك المنزلة. واصبح فسلك جبالا وعرة، ومر على قرية أوترال
ومنها إلى خان قريب من حصن سمندو، وكان السلطان قد سير كتابا إلى نائبها، فقبله
وأذعن إلى النزول عنها إن أمره السلطان، فشكره وأحسن إليه، وكذلك متولي قلعة درندا،
ووالى دوالوا، أجابوا كلهم إلى الطاعة. ثم نزل السلطان قرية قريبة من قيسارية شرقي جبل
عسيب، وركب يوم الأربعاء، نصف ذي القعدة سنة خمس وسبعين وستمائة، والعساكر في
خدمته، وخرج أهل قيسارية، العلماء والأكابر وغيرهم حتى النساء والأطفال فتلقوا
السلطان، وكان دهليز صاحب الروم وخيامه قد نصبت في وطأة كينجسرو قريبا من
المناظر التي لملوك الروم، فنزل السلطان به، وارتفعت أصوات العالم بالتهليل والتكبير،
وضربت به نوبة آل سلجق على العادة، وحضر أصحاب الملاهي فردوا، واعتمد السلطان
على الأمير سيف الدين جاليش في النيابة، وكان أولاد قرمان " أمراء التركمان" قد رهنوا
أخاهم الصغير على بك بالروم، فخرج إلى السلطان فأكرمه، وطلب منه توافيع وصناجق له
ولأخوته فأعطاه وتوجه، وكتب السلطان إليهم في الحضور إلى خدمته، وأكد في ذلك.
فكان من خبرهم في الوصول إلى بلاد الروم بعد رحيل السلطان ما نذكره إن شاء الله
تعالى.
قال: ثم ركب السلطان في يوم الجمعة سابع عشر الشهر، وعلى رأسه جتر بني سلجق
ودخل قيسارية. وكانت دار السلطانة قد هيئت لنزوله، وتحت آل سلجق قد نصب لحلوله،
فجلس في مرتبة السلطنة بكرة النهار، وحضر القضاة والفقهاء والوعاظ والقراء والصوفية
وأعيان قيسارية، وذوو المراتب على العادة السلجقية في أيام الجمع، ووقف له أمير المحفل -
وهو عندهم ذو حرمة ومكانه، وعليه أكبر ثوب وأكبر عمامة - فرتب المحفل، وقرأ القراء،

ثم أنشد أمير المحفل بالعربية والعجمية مدائح في السلطان.
ومد السماط، فأكل من حضر
وانصرفوا. وتهيأ السلطان السلطان لصلاة الجمعة وحضر إلى الجامع وصلى، وخطب
الخطباء في جوامع قيسارية باسمه، وهي سبعة جوامع. ثم عاد إلى دار السلطنة وأحضر
بين يديه دراهم عليها السكة الظاهرية.
وظهر لمعين الدين سليمان البرواناه ولزوجته كرجى خاتون موجود عظيم، فحمل إلأى
السلطان وكذلك موجود من نزح؛ ففرق أكثره على أمرائه.
وحكى الصاحب عز الدين بن شداد في السيرة الظاهرية قال: حكى لي من أثق به أن
البرواناه بعث إلى السلطان لما دخل قيسارية يهنئه بالجلوس على التخت، فكتب إليه يأمره
بالوفود عليه ليوليه فكتب إليه يسأله أن ينتظره خمسة عشر يوما، وكان مراده أن يصل إلى
أبغا ويحثه على المسير "بنفسه" والسلطان بالبلاد، فسلم يدر ذلك في حدس السلطان.
فاجتمع تتاون بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر وعرفه قصد البرواناه في طلبه الانتظار، وأن
مقصده أن السلطان يتربص حتى يدركه أبغا في البلاد، فكان ذلك سبب رحيل السلطان
عن قيسارية.
ذكر رحيل السلطان عن قيسارية وهرب عز الدين أيبك الشيخي ولحاقة بأبغا وعود السلطان إلى ممالكه
كان رحيل السلطان من قيسارية في يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة، وقيل في الثاني
والعشرين منه، لقلة الأقوات، وقيل للسبب الذي تقدم ذكره، وجعل على يزكه الأمير عز
الدين أيبك الشيخي، وكان السلطان قد ضربه لسبقه الناس وتقدمه، فحقد ذلك.
وتسحب يومئذ والتحق بأبغا بن هولاكو.
ونزل السلطان بقيرلو فورد عليه فيها رسول البرواناه، ومعه رجل آخر اسمه ظهير الدين
الترجمان، وهو يستوقف السلطان من الحركة، وما كانوا علموا بقصد السلطان في مسيره إلى
أية جهة، وكان الخبر قد شاع أن حركة السلطان إلى سيواس، فأجاب السلطان البرواناه:
"أن كتبك وكتب غيرك كانت تأتيني واشترطتم شروطا لم تفوا بها ولا فقتم عندها، وقد
عرفت الروم وطريقة، وما كان جلوسنا على التخت رغية فيه إلا لنعلمكم أنه لا عائق لنا

عن شيء نريده بحول الله وقوته، ويكفينا أخذنا أمك وابنك وابن بنتك وما منحناه من
النصر الوجيز، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز."
ثم رحل، ونزل خان كيقباد فلما نزل به بعث الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى قرية
رمانة فحرقها، وقتل من كان بها من الأرمن وسبى حريمهم، لأنهم كانوا قد أخفوا جماعة
من المغل.
ولما رحل السلطان من منزلة روزان كودلوا مر في وطأة خلف حصن سمندر من طريق
غير الطريق الذي كان توجه عليها إلى قيسارية. ويعرف هذا المكان بقزل صو، ومعناء
النهر الأحمر، وهو بعيد المستقى، كثير الزلق والوحل، فوقف السلطان وجرد سيفه حتى
بسطت جملة من اللبابيد الحمر تحت حوافر الخيل وأخفاف الجمال، ووقف راجلا حتى
عبر الناس أولا فأولا، ثم ركب وعبر ونزل في واد فيه مرعى، ثم رحل إلى صحراء فراحا
بالقرب من بازاريلوا. وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض،
ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم.
ثم رحل يوم السبت وسار إلى وطأة أبلستين ومر بمكان المعركة لمشاهدة رمم التتار،
وحضر جماعة من أهل أبلستين، وسئلوا عن قتلى التتار، فقال رجل منهم: "عددت ستة
آلاف وسبعمائة وسبعين من المغل خاصة في المعركة غير من قتل خارجها". ولما بلغ
السلطان أقجا دربند بعث الأثقال والخزائن والصناجق صحبة الأمير بدر الدين بيليك
الخزندار ليعبر بها الدربند، وتأخر السلطان ساقة العسكر يوم الأحد، ورحل يوم الاثنين
فدخل الدربند، وحصل للناس مشقة، ولما خرجوا منه قطعوا النهر الأزرق، وبات.
ثم رحل السلطان فنزل قريبا من كينوك، ثم نزل يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة قريبا من
حارم، ونزل بعساكره هناك وعيد عيدَ الأضحى، ووصلت إليه رسل الأمير شمس الدين
محمد بن قرمان أمير التركمان وكتبه بما اعتمده بالروم بعد عود السلطان، وأنه حضر في
عشرين ألف فارس من التركمان وثلاثين ألف راجل متركشة إلى خدمة السلطان فلم
يدركه.

ما اعتمده الأمير شمس الدين محمد بك بن قرمان
أمير التركمان في البلاد الرومية
كان الأمير شمس الدين المذكور قد باين التتار ونابذهم، وخرج عن طاعتهم وطاعة الروم،
وانحاز إلى السواحل. فلما بلغه خبر كسرة التتار ووصول السلطان إلى قيسارية جمع
جموعا كثيرة من التركمان وقصد أقصرا، فلم ينل منها طائلا فرحل عنها وقصد قونية في
ثلاثة آلاف فارس ونازلها، فغلق أهلها أبوابها في وجهه، فرفع على رأسه صناجق السلطان
التي سيرها مع أخيه علي بك، وبعث إليهم يعرفهم أن السلطان الملك الظاهر كسر التتار
ودخل قيسارية وملكها، فقال أهل البلد: "أما الأبواب فنحن لا نفتحها، ولكن أحرقوها
وأدخلوا فنحن لا نمنعكم"، فأحرقوا باب الفاخراني، وباب سوق الخيل ودخلوا قونية يوم
عرفة، وهو يوم الخميس. وكان النائب بها إذ ذاك أمين الدين ميخائيل. فقصد من معه داره
ودار غيره من الأمراء، والأسواق والخانات فنهبوها، ثم ظفروا بأمين الدين، فأخرجوه إلى
ظاهر البلد وعذبوه إلى أن استأصلوا ماله ثم قتلوه وعلقوا رأسه داخل البلد، وامتنع أهل
البلد من تسليمها، فاعملوا الحيلة، ورتبوا رجلا على أن يتوجه إلى قمين من أقمنة حملم
عينوه له، فإذا رأى هناك شابا رمى نفسه عليه وقبل رجليه، فإذا قال له الشاب: "من اين
تعرفني؟" فيقول: ما أنت علاء الدين كيخسروا بن السلطان عز الدين كيقباذ" أنسيت
تربيتي لك وحملك على كتفي؟" وليكن ذلك بمشهد من العامة، فلما فعل ذلك وسمعت
العامة ما دار بين الرجل والشاب ازدحموا عليه، وإذا جماعة من التركمان كان قد رتب
معهم أنهم إذا رأوا العامة قد أحدقوا به فيأخذونه من بين أيديهم ويحملونه إلى الأمير شمس
الدين محمد بك، ففعلوا ذلك، فلما رآه أقبل عليه وضمه إليه، وعقد له لواء السلطنة وحمل
االصناجق على رأسه، وذلك في الرابع عشرين ذي الحجة، فلما رأى أهل قونية ما فعلوه
حملتهم المحبة في آل سلجوق على متابعتهم، ثم نازلوا القلعة، فامتنع من فيها من تسليمها،
فحاصروها، ثم تقرر بينهم الصلح على تسليمها ويعطى من فيها سبعون ألف درهم،

فدخلوها وأجلسوا علاء الدين فيها على تخت الملك، ثم بلغ ابن قرمان والتركمان أن تاج
الدين محمدا، ونصرة الدين محمود، ابنا الصاحب فخر الدين خواجا على، قد حشدا
وقصداهم، فسار "ابن قرمان" إليهما وعلاء الدين معه، فالتقوا على آمد شهر، فكسرها
وقتلهما، وقتل خواجا سعد الدين يونس بن سعد الدين خسرو بك بن شمس الدين يوناس
بكلارتسي، وأخذوا رؤوسهم وعادوا بهم إلأى قونية في آخر ذي الحجة. واستمروا بقونية
إلى ان دخلوا سنة ست وسبعين وستمائة، فبلغهم أن أبغا وصل بعد خروج الملك الظاهر
من الروم إلى مكان الوقعة، فرحلوا عن قونية إلى جبالهم. وكانت مدة مقامهم بقونية سبعة
وثلاثين يوما.
وصول أبغا إلى بلاد الروم ومشاهدته مكان الوقعة وما فعله بأهل الروم من القتل والنهب
كان البرواناه معين الدين لما تمت الهزيمة على التتار وعليه، قد كتب إلى أبغا يستنصر به
ويستحثه على الوصول إلى بلاد الروم، فتوجه أبغا إلى الروم، ولما شارف البلاد خرج إليه
البرواناه بمن معه، وتوجه في خدمته بالعساكر إلى أن وصل إلى البلستين، ووقف على موضع
المعركة، فتأسف على المغل وبكى، ثم قصد منزلة السلطان الملك الظاهر، فقاسها بعصا
الدبوس فعلم عدة من كان نازلا بها من العساكر وأنكر على البرواناه كونه لم يغرفه جلية
حال العسكر ، فاعتذر بأنه ما علم بذلك، وأن العسكر حضر بغتة، فلم يقبل عذره. وكان
الأمير عز الدين آيبك الشيخ في خدمة أبغا، فقال له: أرني مكان الميمنة والقلب والميسرة
فأقام له في كل منزلة رمحا، فلما رأى بعد ما بين الرماح قال: " ما هذا العسكر الذي حضر
معي يكفي هؤلاء "، وكان في خدمته من عسكره ثلاثون ألف ، وكان قد سيرهم إلى الشام
فأعادهم من كينوك، وتوجه إلى قيسارية وسأل أهلها فقال: " هل كان مع صاحب مصر
جمال ؟ " ، فقالوا: " لم يكن معه إلا خيل وبغال "، فقال: " هل نهب منكم شيئا؟ "،
قالوا :"لا، إلا مشتري بالذهب"، فقال: "منذ كم فارقكم؟"
قالوا: "منذ خمسة وعشرين

يوما" فقال: "هم الآن عند جمالهم". ثم عزم على قتل من بقيسارية من المسلمين، فاجتمع
إليه القضاة والفقهاء، وقالوا: "هؤلاء رعية ولا طاقة لهم بدفع عسكرنا إذا نزل عليهم، وهم
مع الزمان عبيد من ملك"، فسلم يرجع إلى ذلك، وأمر بقتل جماعة من أهل البلد، وقتل
قاضي القضاة جلال الدين حبيب، وأمر عسكره أن يبسط في المملكة الرومية، فقتل من
الرعايا ما يزيد على مائتي ألف، وقيل بلغت عدة من قتل من الرعايا والفلاحين وغيرهم
خمسمائة ألف من قيسارية إلى أرزن الروم ولمن يقتل أحداً من النصارى، ثم عاد أبغا إلى
الأردو، وكان من خبر قتل البرواناه معين الدين ما قدمناه.
نعود إلى سياقة أخبار السلطان الملك الظاهر
قد قدمنا أن السلطان نزل بالقرب من حارم، وعيّد عيد الأضحى هناك، وحضر إلى
خدمته أمراء بني كلاب، ثم نزل السلطان بالقرب من أنطاكية في مروجها ورحل إلى دمشق،
فكان دخوله إليها في خامس المحرم سنة ست وسبعين وستمائة وقيل في سابعه.
قال المؤرخ: كان السلطان لما توجه إلى الروم كلف أهل دمشق جباية مال يسبب إقامة
الخيل، فحضر إليه الشيخ محيي الدين النواوي وكلمه في ذلك بكلام خشن، فلاطفه
السلطان، وقال له: "يا سيدي: مد يدك أعاهدك أنني متى كسرت العدو في هذه السفرة
أبطل الجباية ويكون خاطرك معي"، فعاهده على ذلك. فلما فتح البلاد وكتب إلى الشام
بالبشارة، وكتب إلى الشام بالبشارة، كتب إلى الأمير بدر الدين بكتوب الأقرعي، شاد
الدواوين بدمشق، كتابا مضمونه: أنه لا يحل ركابا إلا وقد استخرجت من أهل دمشق
مائتي ألف درهم، ومن برها ثلاثمائة ألف درهم، ومن قراها ثلاثمائة ألف درهم، ومن البلاد
القبلية تكملة ألف ألف درهم، فتبدل فرح أهل الشام لذلك حزناً، وتمنوا زوال الدولة، فما
كملت خباية نصف المال حتى مات السلطان.
واستهلت سنة ست وسبعين وستمائة
وفاة السلطان الملك الظاهر
ركن الدين بيبرس الصالحي رحمه الله تعالى
قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: ودخل السلطان

دمشق في خامس المحرم وقد رنح النصر أعطافه، وروى من دماء الأعداء أسيافه، وقدامه
مقدمو التتار قد ركبوا وهم في القيود عوض شهب الجياد، وبعد أن كانوا مقترنين صاروا
مقرنين في الأصفاد. ونزل بقصره في الميدان الأخضر، معتقدا أن الدنيا في يده قد حصلت،
والبلاد التي حلها ركابه عنه انفصلت، وأن سعده استخلص له الأيام وأصفاها، والممالك
شرفا وغربا لو لم يكن بها غيره لكفاها، وإذا بالمنية قد أنشبت أظفارها، والأمنية وقد
وضعت حوبها "و" أوزارها والعافية وقد شمرت الذيل، والصحة وقد قالت لطيبه: "أهلك
والليل"، ورماح الخط وقد قالت لأقلام الخط: "أصبت في لبس الحداد من المداد"، والقلوب
وقد قالت عند شق الجيوب: "نحن أحق منك بهذا المراد"، والحصون وقد قالت لقصره
الأبلق: "ما كان بناؤك على هذه الصورة إلا فألا بما تسود الجدران به عند الفجائع من
السواد".
قال: وكان ابتداء مرضه الذي اعتل به الوجود، وتباشرت به الأكفان واللحود: ليلة السبت
خامس عشر المحرم. فإنه ركب وقت العصر من يوم الجمعة رابع عشرة وكأنه مودع لأخدانه
ورؤية موكبه وركوب حصانه، ونزل والتاث جسمه بعض النيات، وأصبح وليس عنده ذلك
الانبعاث. فلما انقضت مدة أجله، وانطوت صحيفة عمله، قبض الله روحه الزكية،
ورجعت إلى ربها راضية مرضية، وذلك بعد الزوال من يوم الخميس سابع عشرين المحرم
سنة ست وسبعين وستمائة.
وكأن نفوس العالم كانت نفسا، وأنزل الله السكينة فلا تسمع إلا همسا، واستصحب مهابته
السكون وخادعت العقول حتى أن ما كان من وفاته كاد كل يحلف إنه ما يكون.
وحمل في محفة إلى قلعة دمشق في تلك الليلة، وسكنت الشفاة والألسنة، وتناومت العقول
من غير نوم ولا سنة. وجعل في بعض القاعات بالقلعة على سرير يوما إليه بالترحم والسلام،
ولا يزوره غير الملائكة الكرام.
قال المؤرخ: وتولى غسله وتحنيطه وتصبيره وتكفينه المهتار شجاع الدين عنبر، والفقيه

كمال الذين الإسكندري المعروف بابن المنبجي، والأمير عز الدين أيبك الأفرم جاندار، ثم
جعل في تابوت وعلق في بيت من بيوت قاعة البحرة بقلعة دمشق. وكانت مدة مرضه،
رحمه الله تعالى، ثلاثة عشر يوما، وهي مدة مرض الشهيد الناصر صلاح الدين يوسف بن
أيوب، رحمه الله تعالى.
وأول ما فتحه السلطان بنفسه: قيسارية الساحل، وآخر ما فتحه قيسارية الروم، واستمر
بقلعة دمشق إلى أن اتباع ولده السلطان الملك السعيد دار العقيقي بدمشق بستين ألف
درهم، وحصل الشروع في عمارتها ووضع الأساس في يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة
من السنة، وكانت النفقة على العمارة من ربع أملاكه. وحمل إليها ليلة الرغائب الخامس من
شهر رجب سنة ست وسبعين وستمائة، "و" بعد أن صلى عليه في صحن جامع دمشق
ليلا، أدخل من باب البريد وخرجوا به من باب النطاقين إلى تربته وتولى حمله الأمير عز
الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام والأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام والأمير عز
الدين الدوادار والطواشي صفى الدين جوهر الهندي، وألحد القاضي عز الدين الشافعي.
ولما تمت له سنة من يوم وفاته عملت له الأعزية بالقرانين، ومدت الأسمطة للقراء والفقراء
وفرقت على الزوايا، وحضر الناس على اختلاف طبقاتهم. وقرئ له عدة ختمات، وعمل
له بعد ذلك عدة أعزية بمدرسة الشافعي، والجامع الطولوني، والجامع الظاهري، والمدارس
الظاهرية، والصالحية، ودار الحديث الكاملية، والخانقاه الصلاحية، والجامع الحاكمي، وعمل
للتكاررة خوان حضره جماعة من الفقراء والصالحين.
مدة حكمه
وكانت مدة ملكه، رحمه الله تعالى سبع عشرة سنة واثني عشرة يوما. وكان له من
الأولاد: السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد قاءان بركة، وأمه ابنة الأمير حسام الدين
بركة خان بن دولة خان الخوارزمي، والملك المسعود نجم الدين الخضر، والملك العادل بدر
الدين سلامش، وسبع بنات.
وتزوج أيضا ابنة الأمير سيف الدين نوكبة التتاري، وابنة الأمير سيف الدين كراي التتاري،

وابنة الأمير سيف الدين تماجي التتاري، وامرأة شهرزورية تزوجها لما قدم غزة وحالف
الشهرزورية، ثم طلقها لما ملك الديار المصرية.
نائبه: مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخزندار.
وزراءه: الصاحب زين الدين بن الزبير مدة يسيرة، ثم استوزره بعده
الصاحب: بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن حنا
قضاته: وقد تقدم ذكر قضاته في أخبار دولته.
الملك السعيد ناصر الدين محمد
بركة قاءان
ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدار الصالحي
وهو الخامس من ملوك دولة الترك
ملك الديار المصرية والبلاد الشامية، بعد وفاة والده السلطان الملك الظاهر، في يوم الخميس
سابع عشرين المحرم سنة ست وسبعين وستمائة، وكان ولي عهد أبيه، على ما قدمناه في
أخبار الدولة الظاهرية، في يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة اثنتين وستين وستمائة،
وجدد له الحلف، في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة.
قال: ولما توفي السلطان بدمشق كان الملك السعيد بمصر، وكان الأمير بدر الدين بيليك
الخزندار إلى الملك السعيد كتابا بخطة يخبره بوفاة السلطان، ويعلمه بما دبره من كتمان ذلك
إلى أن يصل بالعساكر والخزائن إلى خدمته، وسأله كتمان الحال إلى أن يصل بالعساكر
والخزائن إلى خدمته، وسأله كتمان الحال إلى أن يصل إليه، وسير إليه المطالعة على يد الأمير
بدر الدين الجوكان دار الحموي، والأمير علاء الدين أيدغمش الحكمي الجاشنكير، فلما
وصلا بالمطالعة وأنهيا ما معهما من المشافهة خلع عليهما وأنعم على كل منهما بخمسة
آلاف درهم، وأظهر أن ذلك بسبب بشارتهما بعود السلطان إلى دمشق. ثم ركب الأمراء
في بكرة يوم السبت تاسع عشرين الشهر على العادة إلى سوق الخيل بدمشق.
ثم رحلوا من دمشق في صفر بالجيوش والعساكر، وبينهم محفة محمولة، وجماعة من
المماليك السلطانية في خدمتها يظهرون أن السلطان الملك الظاهر فيها وهو ضعيف، كل

ذلك حفظا للمهابة، وما زال الأمر كذلك إلى أن وصلوا إلى الديار المصرية، وكان وصول
المحفة والأمراء إلى قلعة الجبل في يوم الخميس خامس عشرين صفر سنة ست وبعين
وستمائة، وسلم الأمير بدر الدين الخزندار الخزائن والعساكر للسلطان الملك السعيد،
وأظهروا عند ذلك وفاة السلطان وحلف الناس للملك السعيد، واستقر له الملك وعمره
يومئذ تسع عشرة سنة.
وكتب "الملك السعيد" إلى دمشق وسائر الممالك الشامية يخبر "النواب" بوفاة السلطان
وسلطنته، ويطلب منهم اليمين، فوصل الأمر في البريد بذلك إلى دمشق في يوم الأحد ثالث
عشر ربيع الأول، فجمع النائب عن السلطنة بها وهو الأمير عز الدين أيدمر الظاهري،
الأمراء والمقدمين، وقرئ عليهم كتاب السلطنة فحلفوا، وحلف جميع العسكر والقضاة
والأعيان، ثم رسم لمتولي دمشق أن يحلف أهل دمشق، فحلف أهل حارة بحضور عدلين،
ورسم لمتولي البريد بذلك، فحلف أهل القرى والضياع، ودامت مدة الحلف بدمشق أحد
عشر يوما حتى كملت. ثم خلع على الأمراء والمقدمين والقضاة والأعيان والنظار وكتاب
الإنشاء بدمشق في سادس عشر الشهر، وخلع على الأعيان والأكابر بالطرحات، وما كان
قبل ذلك يخلع بالطرحة، إلا على قاضي القضاة، وحلف أيضا صاحب حماة وأهل بلده،
ونائب حلب وأمراؤها وجندها وأهلها، وسائر الممالك الشامية لم يختلف منهم أحد ولا
توقف عن اليمين.
وفاة الأمير بدر الدين بيليك الخزندار
كانت وفاته: رحمه الله تعالى، بقلعة الجبل في ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ست
وسبعين وستمائة، وذلك أنه لما وصل إلى خدمة السلطان الملك السعيد وقف وحلف
الأمراء والخواص والأجناد وغيرهم للملك السعيد، فلما تكامل ذلك توجه إلى والدة
السلطان زوجة مخدومه ليغريها بالسلطان ويهنيها بسلطنة ابنها، فشكرت فعله وما اعتمده
من حق ولدها من حفظ السلطنة عليه، ثم أخرجت له هنابا فيه مشروب، وقالت له:

"اشرب هذا فأنك قد تعبت في هذا اليوم وما أكلت شيئا. "فقال لها: "والله لي ثلاثة أيام
ما آكل في كل يوم نصف أوقية طعام خوفا على السلطان الملك السعيد، ولم أزل أداري
الأمراء منذ وفاة السلطان إلى أن كمل هذا الحلف المبارك".
وتناول الهناب وشرب منه
جرعتين وأعادة في الثالثة لكثرة إلحاحهم عليه، وتوجه إلى داره فحصل له قولنج، وانقطع
وتزايد به الأمر، فمات، رحمه الله تعالى. وهذا الفضل الذي دبرته والدة الملك السعيد من
سوء التدبير وقبح المكافأة، فأنه وقع الخيال عندها وعند ابنها منه، ولعل هذا الخيال كان
غير صحيح: فإنه أحسن السياسة وأجمل التدبير ووفى لمخدومه، وكان رحمه الله تعالى،
تربية السلطان، اشتراه وهو مفردي ورباه من صغره، وكان خزنداره، ثم أستاد داره في
الإمره، ونائبه في السلطنة وكانت مكانته عنده مكينة، يرجع إلى رأيه ويعتمد عليه في سائر
أحواله ويثق بنصحه، وتمكن في الدولة الظاهرية تمكنا عظيما، وكان له بالديار المصرية إمرة
مائة فارس وبالشام إمرة خمسين فارسا، وجعل له السلطان عند زواجه بابنة الملك الرحيم
بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قلعة الصبيبة وبانياس وأعمالها والشغر وغير ذلك.
ولما مات وقعت الأوهام في نفوس الأمراء وتخيلوا، فإنهم علموا ما أسلفة المذكور من
الخدمة للملك السعيد وحفظ الخزائن والعساكر، وأنه أدى الأمانة في طاعته.
واستناب السلطان بعد وفاته الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني الظاهري أستاد الدار
ونائب السلطنة بالديار المصرية في غيبة السلطان، وأقر الصاحب بهاء الدين على وزارته.
وركب السلطان في يوم الأربعاء سادس عشر شهر ربيع الأول بشعار السلطنة والأمراء في
خدمته، وتوجه صوب الجبل الأحمر، وذلك أول ركوبه، وخلع على الأمراء والأعيان.
القبض على من يذكر من الأمراء
والإفراج عنهم ومن مات منهم
كان من سوء التدبير الذي اعتمده السلطان الملك السعيد: أنه قبض على الأمير شمس
الدين سنقر الأشقر،والأمير يدر الدين بيسرى الشمسي قي يوم الجمعة حادي عشرين شهر

ربيع الأول، واعتقلهما بقلعة الجبل، وكانا من أكبر الأمراء، وأخصهم بصحبة السلطان
والده، فتغيرت لذلك قلوب الأمراء، ثم اجتمع مماليكه ومماليك الأمير بدر الدين بيليك
الخزندار، وحسنوا له القبض على نائبه الأمير شمس الدين أقسنقر الفاراقاني واستعانوا
بالأمير سيف الدين كوندك الساقي، وأمسكوه وهو جالس عند باب القلعة وسحبوه إلى
الدور وضربوه ونتفوا لحيته، وذلك في يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر، واعتقل فلم يلبث
إلا قليلا ومات.
ثم أفرج عن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بيسرى في يوم السبت ثاني
جمادى الأولى وخلع عليهما وأعادهما إلى ما كانا عليه.
ثم قبض على خاله الأمير بدر الدين محمد بي بن الأمير حسام الدين بركة خان في يوم
الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة، واعتقله بقلعة الجبل، فغضبت أخته والدة السلطان
لذلك، وأنكرته على ابنها، فأفرج عنه في ليلة الثلاثاء خامس عشرين الشهر وخلع عليه
وأعاده إلى ما كان عليه. وشرع في خلال ذلك في تقديم مماليكه وترجيحهم وسماع آرائهم.
قال: ولما صدرت منه هذه الأفعال اجتمع الأمراء وتشاورا، وقصدوا أن يتوجهوا إلى
الشام، ثم رجعوا عن ذلك وبعثوا إلى السلطان وقد اجتمعوا في يوم الخميس، وامتلأت بهم
القلعة، وأنكروا فعله، وحذروه عاقبة ما يطرق إليه، فلاطفهم وحلف لهم أنه لا يريد بهم
سوءا، وتولى الأمير بدر الدين الأيدمري اليمين، فسكنت خواطرهم، واستقر الحال مدة
لطيفة.
وكان السلطان لما قبض على الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني رتب في النيابة بعده
الأمير شمس الدين آقسنقر الألفي المظفري، فلم يرضه الخاصكية لأنه غير ظاهري. واتفق
أنه ولى خوشداشه الأمير علم الدين سنجر المظفري، المعروف بأبي خرص، نيابة المملكة
الصفدية، وزاده على إقطاع النيابة نواحي من الخاص السلطاني، وهي أريحا وكفرين ونمرين
من الغور، فأوهموا السلطان منه وزعموا أنه يقصد إقامة المظفرية ولا تؤمن غائلته، فعزله عن

قريب، وولى الأمير سيف الدين كوندك الساقي نيابة السلطنة "لأنه ربى معه في المكتب"
وقيل إن ولايته كانت في سنة سبع وسبعين. ولما فوضت إليه النيابة أمر الوزير الصاحب
بهاء الدين أن يجلس بين يديه وألا يوقع إلا بأمره.
وتقدم من المماليك السعيدية الأمير حسام الدين لا جين الزيني، وانضم إليه الخاصكية،
وقويت شوكته وأخذ لخواشداشيته الإقطاعات، ونافس النائب.
فضم النائب إليه الأمراء
الأكابر، ومال إليهم واستجلبهم، هذا كله في سنة ست وسبعين وستمائة، وبعضه في سنة
سبع على ما قيل.
وفي سنة ست وسبعين وستمائة أيضا في يوم السبت سابع ذي القعدة: برز السلطان الملك
السعيد بالعساكر إلى منزلة مسجد التبن لقصد الشام، ثم انتقل بخواصه من هذه المنزلة في
يوم السبت حادي عشر الشهر ونزل بالميدان السعيدي وعادت العساكر إلى منازلهم
وبطلت الحركة.
وفيها: في شهر رمضان طلعت سحابة عظيمة بصفد، لمع منها برق عظيم خارق، وسطع
منها لسان كالنار، وسمع صوت رعد هائل، ووقع على منارة جامعها صاعقة شقت المنارة
من رأسها إلى أسفلها شقا يدخل فيه الكف.
وفيها: سأل قاضي القضاة صدر الدين سليمان "بن أبي العز" الحنفي أن يؤذن له في الإقامة
بدمشق مدرسا ومجاورا لتربة السلطان، فأذن له، فأقام بدمشق. وفوض قضاء الحنفية
بالديار المصرية لنلئبه القاضي معز الدين.
ذكر عزل قاضي القضاة محيي الدين عبد الله بن محمد بن عين الدولة
وإضافة عمله إلى قاضي القضاة تقي الدين بن زرين
وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة من هذه السنة، عزل القاضي محيي الدين أبو
الصلاح عبد الله بن قاضي القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة الصفرواي عن القضاء
بمصر والوجه القبلي. وسبب ذلك أنه كان قد حصل له فالج منذ خمس سنين، فأقعد
وعجز عن الكتابة، وكان يعلم عنه كاتب الحكم، فعزل الآن.
وأضيفت ولايته إلى القاضي
تقي الدين بن رزين، وعطل القاضي محيي الدين وانقطع بمنزلة إلى أن مات، وكانت وفاته

بمصر في رابع شهر رجب، وقيل في خامسه من سنة ثمان وسبعين وستمائة، رحمه الله
تعالى.
وفيها: فوض السلطان الملك السعيد قضاء القضاة بدمشق والشام أجمع من العريش إلى
سلمية لقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان الشافعي، وعزل القاضي عز الدين بن
الصايغ، وتوجه القاضي شمس الدين إلى دمشق في سابع وعشرين ذي الحجة، فوصل إليها
في ثالث عشرين المحرم، وخرج الناس للقائه إلى غزة. ومنهم من وصل إلى الصالحية، وكانت
الشفاعة قد قويت بولايته قبل وقوعها.
وفيها: كانت وفاة قاضي القضاة الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ العماد
إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي، في يوم السبت ثاني عشرين
المحرم سنة ست وسبعين، ودفن يوم الأحد بتربة عمه الحافظ عبد الغني. وكان مولده في يوم
الأحد رابع عشر صفر سنة ثلاث وستمائة بدمشق، ولما أفرج عنه بعد القبض عليه كما
تقدم لزم بيته بالمدرسة الصالحية وتوفر على اشتغال الطلبة إلى أن توفي. وكان كريما سمحا
كثير العبادة والذكر وولى أيضا مشيخه الخانقاه الصلاحية بالقاهرة، رحمه الله تعالى.
وفاة الشيخ خضر وشيء من اخباره
وفي سابع المحرم سنة ست وسبعين وستمائة: كانت وفاة الشيخ خضر ابن أبي بكر بن
موسى العدوي المهراني شيخ الملك الظاهر في معتقله بقلعة الجبل ودفن بسفح المقطم.
وقد حكى الشيخ شمس الدين محمد بن مجد الدين إبراهيم الجزري في تاريخه، "حوادث
الزمان وأنبائه"، مبدأ أمره، وكيف تنقلت به الحال، فقال: كان في مبدأ أمره يخدم الأكابر
ببلد الجزيرة، ثم استخدم لشيل زبائل دور السلطنة والقلعة بجامكية وجراية. ثم ذكر عنه
أنه أفسد بعض جواري الدور، فرسم بخصبه، فهرب إلى حلب، وخدم بابا عند ابن
قراطابا فأحبل جارية، فطلب فهرب إلى دمشق، والتجأ إلى الأمير ضياء الدين القيمري،
وأقام بمغارة في زاويته بجبل المزة، فيقال إنه اجتمع بجماعة من الصالحين وبشروه بما يكون

منه ومن السلطان الملك الظاهر. واتفق اجتماع الملك الظاهر. واتفق اجتماع الملك
الظاهر به في مدة مقامه بدمشق في خدمة الملك الملك الناصر فبشره بالملك. وكان الشيخ
خضر قد احتوى على عقل الأمير سيف الدين قشتمر العجمي أحد الأمراء البحرية، فكان
يخبره بسلطنة الملك الظاهر قبل وقوعها، ويخبره بأكثرما وقع، ثم اجتمع به الأمير سيف
الدين ايتامش السغدي فأخبره أيضا بخبر الملك الظاهر، ثم كان من سلطنة الملك الظاهر
فأقدمناه وصار هو في صحبة قشتمر العجمي وخرج معه عند خروج السلطان إلى الشام
بسبب الملك الغيث صاحب الكرك فلما نزل السلطان ففأعلى الطور سأل عنه الأمير
سيف الدين قشتمر العجمي فأخبره أنه قد انقطع في مغارة عند قبر أبي هريرة، رضي الله
عنه، فتوجه السلطان إليه واجتمع به، فأخبره بوقائع كثيرة لم يحزم، فاغتبط به ولازمه، وبقي
السلطان إذا حاصر بلدا من البلاد الساحلية والجبلية يخبره الشيخ بما يكون من أمره فيها،
وبالوقت الذي يفتح فيه، فلا يخرم ذلك، ولما قصد السلطان أن يتوجه إلى الكرك في سنة
خمس وستين وستمائة استشاره في ذلك فأشار عليه ألا يتوجه إليها في هذه السفرة، وأن
يتوجه إلى الديار المصرية فخالفه وتوجه إليها، فانكسرت فخذه ببركة زيرا قبل وصوله كما
قدمنا ذكر ذلك. ولما رأى السلطان ذلك منه عظم عنده وبنى له زاوية بظاهر القاهرة
بالحسينية بجوار أرض الطبالة، ووقف عليها أحكارا بجملة كثيرة، وبالقدس زاوية،
وبدمشق زاوية بالمزة، وببعلبك زاوية، وبحماة زاوية، ثم هدم كنيسة اليهود بدمشق، وهي
الكنيسة العظمى عندهم، وجعلها زاوية كما تقدم، وهدم كنيسة النصارى بالقدس، وقتل
فسيسها بيده وعملها زاوية، وهدم كنيسة الروم بالإسكندرية، وهي كرسي كنائسهم
يعقدون فيها البتركية، ويزعمون أن رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام فيها، وهو عندهم
يحنا المعمداني الذي عمد المسيح بن مريم وجعلها مسجدا وبنى فيها المحاريب وسماها
المدرسة الخضراء، وفتح لها شباكا إلى الطريق، ورتب فيها فقراء من جهته، كذلك في جميع

زواياه: جعل بكل زاوية منها فقراء يقطعون المصانعات ويحمون أرباب الجرائم من اللصوص
وغيرهم، ويتعاطون الفسق.
قال: ولقد سأله مرة والدي إبراهيم فقال: "يا أخبي، أشتهي أعرف كيف كان سبب
وصلتك إلى هذه المنزلة؟"، فقال له: "والله لا أقول لك حتى تقول لي الذي تعرف مني" فقال
له: "أعرفك شيخ نحس نفوك من الجزيرة ثم من حلب ومن دمشق، وما رأيتك إلا وقد
صرت في هذه المنزلة"، فقال: "والله العظيم صدقت، وما صدقني أحد في الحديث إلا أنت
يا أخي، لما هربت من الجزيرة طلعت إلى جبل الجودي، فيقيت احتطب في كل يوم جرزة
حطب أبيعها بدرهم ونصف، فلما كان في بعض الأيام إذا أنا بفقير عريان ليس عليه لباس،
وقد أنبت الله له شعرا على جسده، يستر عورته،
فقال لي: "يا خضر، ايش تعمل؟" ، قلت: " أحتطب" فقال: "تعالى غدا إلى هذا المكان
وخذ منه جرزتين حطب، بع الواحدة لنفسك والأخرى اشتر لي بثمنها موسى ومقصا
ومشطا،" فقلت: نعم. فلما كان الغد قصدت ذلك المكان فوجدت به جرزتين حطبا،
فبعت إحداهما واشتريت له ما طلب، وبعث الأخرى لنفسي، قلما اجتمعت به قال لي:
"اذهب إلى الشام، فسوف يكون لك مع ملكه شأن عظيم".
فقدر الله تعالى أنني سكنت
هذه المغارة بالمزة، فحصل لي اجتماع بالسلطان الملك الظاهر لما كان في خدمته الملك
الناصر، وفتح علي بأن بشرته بالملك، فلما ملك كان سبب الوصلة بيني وبينه الأمير سيف
الدين قشتمر العجمي. قال: "وكان ذلك الفقير قد أخبرني بجميع ما يقع لي في عمري وبجميع
ما يقع للسلطان واقعة بعد أخرى".
قال: قال والدي: وكان في ذلك الوقت قد حصل لي وجع في ظهري، فقلت له: إن ظهري
يؤلمني فمسح بيده على ظهري، فسكن الوجع، فقال: "يا مجد الدين، سكن الوجع أم لا؟".
أما الوجع فقد سكن، وأما أنني اعتقد أنك رجل صالح فلا، وإنما هذا من جملة السعادة
التي حصلت لك. ثم كان من قبض السلطان عليه واعتقاله ما تقدم ذكره، ولم يزل في اعتقاله

إلى أن مات. قال: ولما عاد السلطان من غزاة الروم إلى دمشق كتب بإطلاقه فورد البريد
بعد وفاته.
وكان واسع الصدر كريم النفس، يعطى الدراهم والذهب الكثير، ويصنع له الطعام في قدور
كبيرة مفرطة في الكبر، وكانت أحواله غير متناسبة والأقوال فيه مختلفة، فمن الناس من
يثبت صلاحه، منهم من يرميه بالعظائم، وكان يكتب إلى صاحب حماة وغيره من الأمراء
في أوراقه إليهم: خضر نياك الحمارة، وكتب بذلك إلى قاضي القضاة تاج الدين بن بنت
الأعز ورقة، فأغضى عنها، ثم أخرى كذلك، فلما وصلت إليه الورقة الثالثة أحضر رسوله
وقال له: "قل له، والله لئن وصل إلى ورقة بعد هذه فيها مثل هذا: أحضرته إلى مجلس
الحكم وقابلته بما يستحقه بمقتضى ما كتب به خطه"، فامتنع بعد ذلك من مكاتبته. ومات
ولخ نيف وخمسون سنة، وكان ربع القامة، كث اللحية، في لسانه عجمة سامحه الله وإيانا.
وفيها: كانت وفاة الأمير جمال الدين أقش المحمدي الصالحي بالقاهرة في ليلة الخمسين ثالث
عشر ربيع الأول ودفن من الغد بتربته بالقرافة الصغرى، وقد ناهز سبعين سنة. وكان
السلطان قد نقم عليه وحبسه مدة ثم أفرج عنه وأعاده إلى الإمرة، وكان رحمه الله تعالى
عديم الشر.
وفيها: توفي الأمير عز الدين أيبك الدمياطي الصالحي النجمي أحد الأمراء الأكابر
المقدمين، وكان السلطان الملك الظاهر قد اعتقله كما تقدم ثم أفرج عنه، وكانت وفاته
بالقاهرة في ليلة الاربعاء تاسع شعبان، ودفن بتربته التي أنشأها بين القاهرة ومصر، المجاورة
لحوض السبيل المعروف به، وقد ناف على سبعين سنة، وكان كريما جدا، له مروءة تامة،
رحمه الله تعالى.
وفيها: توفي الأمير عز الدين أيدمر العلائي، وكان ينوب عن السلطنة في قلعة صفد فجرى
بينه وبين النواب مفاوضة أدت إلى أن طلب الدستور من السلطان لينهي مصالح، فأذن له
فحضر إلى الديار المصرية فأدركته منيته، فتوفى في ليلة الأربعاء سابع عشر شهر رجب،

ودفن في يوم الأربعاء بالقرافة الصغرى. كان عفيفا أمينا محبا للعلماء والفقراء، وهو أخو
الأمير علاء الدين أيدكن الصالحي العمادي، رحمه الله تعالى.
وفيها: توفي الأمير شمس الدين بهادر المعروف بابن صاحب صهيون، وكان قد قدم إلى
خدمة السلطان الملك الظاهر قبل وفاته بثلاثة سنين، فأحسن إليه وأكرمه، وكانت وفاته
بالقاهرة في ليلة الأحد العشرين من شعبان، ودفن من الغد بتربته التي أنشأها خارج باب
النصر، وقد ناف على أربعين سنة، رحمه الله تعالى.
وفيها، كانت وفاة الملك القاهر بهاء الدين أبي محمد عبد الملك بن الملك المعظم شرف
الدين عيسى بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، فجأه في يوم
السبت خامس عشر المحرم من غير مرض، بل كان راكبا بسوق الخيل بدمشق فاشتكى
ألما في فؤاده، فعاد إلى منزل كريمته زوجة الملك الزاهذ مجير الدين داود بن صاحب حمص،
فأدركته منيته، فمات عند دخوله إليها، وقيل أنه مات في باب الدار قبل الدخول إليها،
ودفن بسفح قاسيون. وكان مولده في سنة اثنتي وعشرين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى
رجلا جيدا شجاعا بطلا مقداما، سليم الصدر حسن الأوصاف كريم الأخلاق، لين
الكلمة كثير التواضع، حسن الاعتقاد في الفقراء والصالحين، وكان يلبس ملابس العرب
ويتزين بزيهم ويركب كمركبهم ويتخلق بأخلاقهم في كثير من أفعاله، رحمه الله.
وقد حكى الشيخ قطب الدين اليونيني، نفع الله به، في تاريخه، في سبب وفاته، قال: حكى
لي تاج الدين نوح بن شيخ السلامية حكاية غريبة معناها: أن الأميرعز الدين أيدمر العلائي
نائب السلطنة بقلعة صفد حدثه بها، قال: كان السلطان الملك الظاهر مولعا بالنجوم وما
يقوله أرباب التقاويم، فأخبر أن يموت بدمشق في هذه السنة، سنة سبع وستين وستمائة،
بالسم ملك، فحل عنده من ذلك أثر كبير.قال: وكان الملك الظاهر عنده حسد شديد لمن
يوصف بالشجاعة أو بذكر جميل، ولما دخل الملك القاهر له صحبة السلطان ظهر يوم
المصاف عن شجاعة، وظهرت نكايته في العدو حتى تعجب من فعله من شاهده، ورآه

الملك الظاهر فتأثر منه وانضاف إلى ذلك أن السلطان حصل منه في ذلك اليوم فتور على
خلاف عادته، وظهر عليه الندم كونه تورط في بلاد الروم - بكلمة الملك القاهر في ذلك
الوقت - بكلام فيه إشارة إلى الإنكار وتقبيح فعله، فأثر ذلك عنده أثرا آخر، فلما عاد من
غزاته وسمع الناس يلهجون بما فعله الملك القاهر تأثر من ذلك أيضا، وتخيل في ذهنه أنه إذ
سمه فمات هو الذي ذكره أرباب النجوم لأنه يطلق عليه اسم ملك وله ذكر، فأحضره
السلطان عنده لشرب القمز، وأعد له سما في ورقة وجعلها إلى جانبه، من غير أن يطلع
على ذلك أحد، وللسلطان هنايات ثلاثة تختص به مع ثلاثة من سقاته، لا يشرف فيها غيره
إلا من يكرمه ويناوله أحدها من يده، وانفق قيام الملك القاهر لقضاء الحاجة، فجعل
السلطان ما في الورقة في هناب وأمسكه في يده فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه فقبل الأرض
وتناوله وشرب ما فيه، وقام الملك الظاهر لقضاء الحاجة فأخذ الساقي الهناب من يد الملك
القاهر وملأه على العادة وهو لا يشعر بما وضعه السلطان فيه، فلما عاد السلطان تناول
ذلك الهناب فشرب ما فيه وهو لا يظن أنه الذي جعل فيه ما جعل، فلما شربه أحس
واستشعر وعلم أنه قد شرب من ذلك الهناب الذي في أثار السم وبقاياه وتخيل وامتد به
المرض ومات كما تقدم. وأما الملك القاهر فمات من غد ذلك اليوم. وذكر الأمير عز الدين
العلائي أنه بلغة ذلك من مطلع لا يشك في أخباره، والله تعالى أعلم.
وفيها: قتل الأمير عز الدين أيبك الموصلي الظاهري، كان نائب السلطنة بحمص ثم نقله
السلطان إلى نيابة السلطنة بحصن الأكرد وما معه، وكان ذا صرامة ونهضة وذكاء ومعرفة،
وكان يتشيع، قتل غيلة ليلة الأربعاء سابع عشرين شهر رجب.
وفيها: كانت وفاة الشيخ الإمام العالم الزاهد الورع محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف
الدين بن مري بن الحسن بن الحسين بن حرام بن محمد النواوي الشافعي وكانت وفاته عند
أبيه بنوى في يوم الأربعاء خامس عشر شهر رجب سنة ست وسبعين وستمائة، ومولده

بنوى في سنة إحدى وثلاثين وستمائة، فيكون مدة عمره خمسا وأربعين سنة تقريبا. وكان
رحمه الله تعالى كثير الورع والزهد واسع العلم له مصنفات مشهورة مفيدة منه: كتاب
الروضة في الفقه، عليه تعتمد الشافعية وبه يحتجون غالباً، وشرح مسلم، ورياض الصالحين،
وكتاب الأذكار، وشرح التنبيه، ومات قبل أن يكمله. ولم يكن في زمانه مثله في روعه
وزهده، وكان لا يأكل إلا مما يأتي من جهة أبيه من نوى، فكان يخبز له الخبز بها ويقمر
ويرسل إليه فيأكل منه، وما كان يجمع بين إدامين، فيأكل إما بالدبس أو الخل أو الزيت أو
الزبيب، ويأكل اللحم في كل شهر مرة. وكان يتولى دار الحديث الأشرفية، ويجمع المباشر
للوقف جامكيته بها، ثم يستأذنه فيما يفعل بها إذا اجتمعت، فتارة يشتري بها ملكا ويوقفه
على المكان، وتارة يشتري بها كتبا ويوقفها ويجعلها في خزانة المدرسة المذكورة. وكان لا
يقبل لأحد هدية، ولا يأكل أحد من أهل دمشق طعاما ولا غيره، وكان رحمه الله تعالى
يواجه السلطان الملك الظاهر بالإنكار عليه في أفعاله، ويلاطفه السلطان ويحمل جفوة كلامه
ويخاطبه يا سيدي، رحمه الله تعالى. وعاش والده الحاج شرف بعده إلى سنة إحدى
وثمانين فمات في سابع عشر شهر صفر، وقيل فية سنة اثنتين وثمانين، ودفن بنوى، رحمه الله
تعالى.

واستهلت سنة سبع وسبعين وستمائة

توجه السلطان إلى الشام وإقامته بدمشق

وتجريد العساكر

في هذه السنة: توجه الملك السعيد إلى الشام وصحبته أخوه الملك المسعود نجم الدين
خضر، ووالدته ابنة الأمير حسام الدين بركة خان، واستصحب الأمراء والعساكر. وكان
رحيله من قلعة الجبل في ذي القعدة، ووصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة
من السنة. ولما حل ركابه بدمشق أمر بأبطال الجبايات والمظالم التي كانت حدثت في الدولة
الظاهرية، فاستبشر الناس بذلك.

ولما استقر السلطان لدمشق جرد العساكر المصرية والشامية، وجرد الأمير سيف الدين

قلاون الألفي الصالحي في عشرة آلاف، وأمره أن يتوجه إلى جهة سيس، وجرد الأمير بدر
الدين بيسرى الشمسي في عشرة آلاف وأمره أن يتوجه إلى قلعة الروم، وأقام هو بدمشق في
مماليكه وخواصه، ونائبه الأمير سيف الدين كوندك. وأقام بدمشق من الأمراء الأكابر الأمير
شمس الدين سنقر الاشقر، والأمير علم الدين سنجر الحلبي، وكان السلطان قد أفرج عنه
بعد وفاة والده الملك الظاهر وأحسن إليه.
قالوا: نوأراد السلطان بتجريد الأمراء الأكابر وإبعادهم عنه أن يتمكن في غيبتهم من التدبير
عليهم، وعزم أنهم إذا عادوا قبض عليهم وأقطع أخبازهم لمماليكه، وظن أن ذلك يتم له،
والمقادير بخلاف ظنه. فتوجه الأمراء إلى الغزاة "وفي نفوسهم من ذلك إحن" وكان من
أمرهم عند عودهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.
"ذكر" أمر شاد الدواوين
وفي هذه السنة في رابع عشرين ذي الحجة: حصل بين الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعي
شاد الواوين بدمشق، وبين نائب السلطنة بها، مفاوضة أدت إلى شكواه إلى السلطان
فانتصر الأمراء لنائب السلطنة، فرسم بتفويض شاد الدواوين بالشام إلى الأمير علم الدين
سنجر الدواداري، وكان من جملة الأمراء بحلب، وخلع عليه وأقطع خبز الأقرعي، ونقل
الأقرعي إلى حلب على إقطاع الدواداري.
وفي هذه السنة، في ليلة بسفر صاحبها عن يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي القعدة
وهي سنة سبع وسبعين وستمائة: ولد مؤلف هذا الكتاب وجامعه، فقير رحمة ربه أحمد
بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم بن عبادة بن علي بن طراد بن خطاب بن نصر بن
إسماعيل ابن إبراهيم بن جعفر بن هلال بن الحسين بن ليث بن طلحة بن عبد الله بن عبد
الرحمن بن أبي بكر الصديق عبد الله بن عتيق، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وابن صاحبه، وأبي أصحابه، وجد صاحبه، والخليفة من بعده، وهو ثاني اثنين ابن أبي
قحافة عثمان، رضوان الله عليهم، ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن
كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس

بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان، عرف مؤلفه بالنويري، عفا الله عنه ولطف به، وكان
مولده بمدينة أخميم من صعيد مصر في التاريخ المذكور.
وفي هذه السنة: كانت حوادث ووفاة جماعة من أرباب المناصب، وولاية غيرهم، نذكرها
الآن في هذا الموضع. ولا نشترط في إيرادها الترتيب، بل نوردها بمقتضى المناصب، فمن
ذلك:
"ذكر" وفاة الأمير جمال الدين أقش النجيبي الصالحي
كانت وفاته بالقاهرة في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر.
وكان يلي أستار دارية
السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. وتولى أستاد دارية السلطان الملك الظاهر في ابتداء
سلطنته، ثم نقله إلى نيابة السلطنة بالشام كما تقدم. وكان رحمه الله تعالى، دينا كثير
الإحسان إلى الرعية والرفق بهم. وكان يكره السعاية في الناس ومن سعى عنده بأحد
أبعده، وكان يحب أهل الخير ويقربهم. وأنشأ بدمشق للشافعية وخانقاه للصوفية على
الميدان بالشرف الأعلى، وخانا للسبيل بميدان الحصا. ووقف بالديار المصرية وقفا على
المجاورين. ولم يرزق في عصره ولدا. وكان عظيم الشكل والخلقة، كبير البطن، جهوري
الصوت، أكولا رحمه الله تعالى.
وفاة الصاحب بهاء الدين
وفي هذه السنة: كانت وفاة الصاحب الوزير بهاء الدين "أبو الحسن" علي بن محمد بن
سليم المعروف بابن حنا، بمصر وقت آذان العصر من يوم الخميس سلخ ذي القعدة. ودفن
يوم الجمعة قبل الصلاة وتربته بالقرافة. ومولده بمصر في سنة ثلاث وستمائة، ومات وهو جد
جدَ. وكان في ابتداء أمره في دكان يبيع الخام، ثم تنقلت به الأحوال وباشر في الديوان
السلطاني حتى انتهى إلى هذه الغاية. وكان من رجال الدهر حزما وعزما وتدبيرا، وكتابة
وتحصيلا للأموال وقياما بمصالح الدولة، وكان شديد الغيرة على منصبه، فإذا تعرض أحد
من المتعممين المباشرين إلى الاجتماع بالسلطان عمل على إتلاقه، وكذلك من يجتمع بأكابر
الأمراء من هذه الطائفة، ويحسن إلى من يتصل بخدمته وخدمة أولاده، وينتمي إليهم

ويقدمهم وكان حسن الظن بالفقراء والمشايخ كثير الإكرام لهم ولا يمل من حوائجهم، ويتشفع
الناس عنده بهم فلا يردهم، وكان أمينا في وزارته، ما تكلم عليه ولا على أولاده بخيانة
وإنما كانوا كلهم يتجهون تجاه الغل ويزرعون فاتسعت بذلك أحوالهم وكثرت أموالهم،
وعمروا الأبنية العظيمة والمساكن البديعة والمنزهات ، وعمر هو مدرسة بزقاق القناديل
بمصر، ووقف عليها أوقافا، وكان كثير الصدقة والتزم صوم الدهر في وزارته. وكان يثيب
الشعراء على مدائحهم، وامتدحه الشيخ رشيد الدين الفارقي فقال:

وقايل في الورى نبه لها عمرا فقلت إن علينا قد تنبه لي
مالي إذا كنت محتاجا إلى عمرا من حاجة فليتم حسبي

انتباه علي
وكا متمكنا من السلطان الملك الظاهر، يصرح باعتقاد بركته، حتى رام جماعة من الأمراء
الأكابر خوشداشية السلطان أذاه عند السلطان وذكر معايبه في أوقات، فكان السلطان إذا
تنسم ذلك منهم أو من أحد بادره السلطان بذكر محاسنه وأنه في بركته، فيقف من يقصد
أذاه عن ذلك. ولما مات وصل الخبر إلى السلطان وهو بمنزلة الكسوة، فأمر بإيقاع الحوطة
على الصاحب تاج الدين ولد وولده، وكان صحبته، وأخذ خطه بمائة ألف دينار، وأرسله
إلى مصر، ورسم أن يستخرج من أخيه الصاحب زين الدين مائة ألف دينار، ومن
الصاحب عز الدين بن الصاحب محيي الدين مائة ألف دينار.
وفوض السلطان وزارته
للصاحب برهان الدين الخضر السنجاري، وفوضت وزارة الصحبة للصاحب فخر الدين
إبراهيم بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء في هذا التاريخ ودخل إلى دمشق متوليا.
"ذكر" وفاة مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم
وفيها: توفي القاضي مجد الدين "أبو محمد" عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن
العدين قاضي الحنفية بدمشق، وكانت وفاته بدمشق في يوم الثلاثاء سادس شهر بيع الآخر،
ومولده بحلب في جمادى الأولى سنة أربع عشرة وستمائة.
وكان رجلا دينا صالحا فاضلا

لطيفا، وتولى تدريس المدرسة الظاهرية بالقاهرة كما تقدم، وخطابة الجامع الظاهري بظاهر
القاهرة، ثم نقل إلى قضاء دمشق كما تقدم. ولما مات فوض قضاء القضاة الحنيفة بدمشق
لقاضي القضاة الشيخ صدر الدين أبي الربيع سليمان بن أبي العز بن وهيب الحنفي، وكان
قاضي القضاة الحنفية بالديار المصرية، وتوجه في الصحبة الظاهرية إلى غزوة الروم، فلما
عاد واتفقت وفاة السلطان سأل أن يكون مدرسا بدمشق ومجاورا لتربة السلطان ففوض
إليه تدريس المدرسة الظاهرية بدمشق، وكان ابتداء جلوس المدرسين بها في ثالث صفر من
هذه السنة، وولى تدريس الشافعية بها الشيخ رشيد الدين الفارقي، واستمر القاضي صدر
الدين في القضاء أربعة أشهر ومات. وكانت وفاته بدمشق في ليلة الجمعة سادس شعبان،
ودفن بسفح قاسيون بتربته وكان له، رحمه الله، التصانيف المفيدة في مذهبه، ولما مات
فوض الاقضاء بعده بدمشق لقاضي القضاة حسم الدين الحسن بن أحمد بن الحسن بن
أنوشروان قاضي ملطية، وكان قد حضروا إلى الشام صحبة السلطان الملك الظاهر،
ففوض إليه القضاء بدمشق في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وسبعين
وستمائة، وقيل في شوال منها.
وفيها: كانت وفاة الشيخ تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن شاها نشاه بن غسيان بن
محمد بن جلب راغب المعروف بابن ميسر المصري، وكان فاضلا جمع تاريخا لمصر، وقد
نقلنا عنه مواضع فيما سلف من كتابنا هذا، وكانت وفاته بمصر في يوم السبت ثاني عشر
المحرم، وذفن بسفح المقطم. ومولده في يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأول سنة ثمان وعشرين
وستمائة بمصر، رحمه الله تعالى.
"ذكر" وفاة الشيخ العارف نجم الدين أبو المعالي
محمد بن الخضر الشيباني الحريري
وفيها في ليلة الأحد رابع عشر شهر ربيع الآخر: توفي الشيخ العارف المحقق نجم الدين أبو
المعالي محمد بن الخضر بن سوار بن اسرائيل الشيباني الحريري بدمشق، ودفن بقبة الشيخ
أرسلان بمقبرة باب توما. ومولده في يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث

وستمائة بدمشق، وكان دينا صالحا كريما متواضعا فاضلا أديبا ناظما وله ديوان شعر،
وشعره كثير المعاني، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثمان وسبعين وستمائة
"استهلت" والسلطان الملك السعيد بدمشق، وفي خدمته من الأمراء من ذكر والعساكر
مجردة كما تقدم.
وفي هذه السنة في ثامن المحرم: فوضت وزارة دمشق للصاحب فتح الدين عبد الله بن
القيسراني الحلبي، وركب والرؤساء والأكابر في خدمته وباشر من يومه
وفيها في شهر ربيع الأول: وقع بين الأمراء الخاصكية وبين الأمير سيف الدين كوندك نائب
السلطنة فتنه، وكان سببها أن السلطان الملك السعيد أكثر من الأنعام على الخاصكية
وأوسع في العطاء لهم، فاتفق إنه أنعم على بعضهم بألف دينار، فتوقف النائب في إمضاء
المرسوم، فاجتمع المنعم عليه بيقيه خواشدشيته وعرفهم ذلك، فاجتمعوا وحضروا إلى
الأمير سيف الدين كوندك وأسمعوه ما يكره، ودخلوا إلى السلطان وصمموا على عزله،
فأجابهم إلى ذلك.فخرجوا إليه ليوقعوا به ويقبضوا عليه أو يقتلوه. وكان ذلك بحضور
الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، فمنعهم من ذلك وأخذه وضمه إليه. فخرج منشور
السلطان له في اليوم الثاني بإمرة أربعين فارسا بحلب، فاستمر عند الأمير شمس الدين سنقر
الأشقر سبعة أيام. ووردت الأخبار بعود الأمراء.
عود الأمراء من الغزاة
وظهور الوحشة والمنافرة بينهم وبين السلطان الملك السعيد وتوجيههم إلى الديار المصرية
قال: ولما عاد الأمراء من الغزاة وقصدوا العبور إلى دمشق، أرسل إليهم الأمير سيف
الدين كوندك يخبرهم بجلية الخبر ويعلمهم بما تقرر سرا. ثم ركب وخرج إليهم وتلقاهم،
واجتمع بالأمير سيف الدين قلاون الألفي، وبدر الدين بيسرى الشمسي، وتحدث معهما
فأقاما بالمرج بمن معهما من الأمراء ولم يعبرا "إلى" دمشق، وسير إلى السلطان يقولان له: "إن
الأمير سيف الدين كوندك حضر إلينا وشكى من لاجين الزيني شكاوي كثيرة، ولا بد لنا

من الكشف عنها، فييسره السلطان إلينا لنسمع كل منهما وننصف بينهما". فلم يعبأ
"السلطان" بقولهما، وكتب إلى الأمراء الظاهرية التي معهما أن يفارقوهما ويعبروا إلى
دمشق. فوقع القاصد بالكتب إلى الأمير سيف الدين كوندك فأحضره إلى الأمراء وأوقفهم
على الكتب، فتحققوا سوء رأيه فيهم. ورحلوا من وقتهم من المرج ونزلوا بالجسورا
وأظهروا الأمور الدالة على الخلاف. وندم السلطان وبعث الأمير شمس الدين سنقر
الأشقر، والأمير شمس الدين سنقر التكريتي الظاهري استاد الدار إليهم، وتلطف بهم
وقصد رجوعهم، فما وافقوا على الرجوع. ثم خرجت إليهم والدة السلطان إلى منزلة
الكسوة، واجتمعت بالأمراء وسألتهم الرجوع فما رجعوا. وساروا إلى الديار المصرية،
فوصلوا إليها ونزلوا تحت الجبل في شهر ربيع الآخر، فاتصل بالأمراء المقيمين بالقلعة
قدومهم، وكان بها الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جاندار، والأمير علاء الدين
أقطوان الساقي، وسيف الدين بلبان الزريقي، فتقدموا إلى متولي القاهرة بغلق أبوابها
فغلقت، وبنى خلف أكثرها الحيطان. فأرسلوا إلى الأمراء الذين بالقلعة في فتح الأبواب
ليعبر العسكر إلى بيوتهم، فنزل الأمير عز الدين الأفرم، والأمير علاء الدين أقطوان إلى
الأمراء ليجتمعا بهم، فقبض عليهما الأمير سيف الدين كوندك، وأرسل الأمراء ففتحوا
أبواب المدينة. ودخل الناس إلى بيوتهم بأثقالهم. ولما قبض على الأمير عز الدين الأفرم
وعلاء الدين أقطوان نقلان إلى دار الأمير سيف الدين قلاون بالقاهرة. وأغلق الأمير سيف
الدين بلبان الزريقي أبواب القلعة واستعد للحصار.

وصول السلطان إلى قلعة الجبل وما كان من أمره إلى أن انخلع من السلطنة

قال المؤرخ: ولما رأى السلطان توجه الأمراء إلى الديار المصرية وانفرادهم عنه، جمع من
كان بدمشق من بقايا العسكر المصري والعساكر الشامية، واستدعى العربان وأنفق الأموال
فيهم بدمشق، وسار إلى الديار المصرية. وكان رحيله من دمشق في يوم الجمعة ثاني شهر

ربيع الآخر، وسلم قلعة دمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري وجعله نائبا إلى حين
عود الأمير عز الدين أيدمر النائب، فلما وصل السلطان إلى غزة تسلل أكثر العربان وتفرقوا،
ولم يصل إلى بلبيس ومعه من العسكر الشامي إلا اليسير.
فأعطى من بقي منهم دستورا،
فعادوا صحبة الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الشام، وكان وصولهم في مستهل
جمادى الأول. وكان الأمير سيف الدين قلاون لما عاد من غزاة سيس جرد من العسكر
الشامي بحلب الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق الصالحي، والأمير عز الدين أزدمر
العلائي، والأمير شمس الدين قراسنقر المعزي، والأمير جمال الدين أقش الشمسي وغيرهم
من نحو ألفي فارس، فلما اتصل بهم خبر هذا الاختلاف رجعوا إلى دمشق في شهر ربيع
الآخر وقدموا عليهم الأمير جمال الدين أقش الشمسي. ووصل الأمير عز الدين أيدمر
النائب بالشام إلى دمشق هو ومن معه فخرج الأمراء الذين وصلوا من حلب يتلقونه. فلما
التقوه سبه الأمير ركن الدين الجالق والأمير عز الدين أزدمر العلائي وقالا له: "كيف فارقت
السلطان". فلما وصلوا إلى باب الجابية أخذه الأمير جمال الدين أقش الشمسي إلى داره
وقال له: "تكون بداري إلى أن يرد مرسوم السلطان، ولا تكون سبب إقامة فتنة". فتوجه
معه إلى داره فأقام عنده إلى عشية النهار، وجاء الأمير ركن الدين الجالق وازدمر العلائي
إلى الأمير جمال الدين أقش الشمسي بعد صلاة العصر وأخذ الأمير عز الدين النائب من
عنده وتوجها به إلى القلعة وسلماه إلى الأمير علم الدين سنقر الدواداري فتسلمه منهما
وجعله بقاعة البحرة، ورسم عليه ومكنه من دخول الحمام. فجاء الأميران إلى القلعة في يوم
الاثنين. بعد العصر واجتمعا بالدواداري وانكرا عليه كونه مكنه من دخول الحمام، وقالوا:
تسلمه إلينا نتوجه به إلى الديار المصرية.
فقال: إنه ما جاءني ولا جاءكم مرسوم بالقبض عليه. وقد قبضتم عليه ووصل إلى
عندي، فكيف أسلمه إليكما وبأي عذر أعتذر إلى السلطان".
فأغلظوا له في القول. فلما

أنكر حالهم وثب من بينهما وأمر رجاله بالقلعة بغلق أبوابها.
فوثب الأميران وجردا
سيوفهما وخرجا على حمية، وأغلق الدوادري باب قلعة دمشق.
هذا ما كان بالشام
أما الملك السعيد فإنه لم يبق معه من الأمراء الأكابر إلا الأمير
شمس الدين سنقر الأشقر
والأمير علم الدين الحلبي، والبقية من المماليك السعيدية،
كلاجين الزيني ومن يجري مجراه،
فلما وصل إلى قرب المطرية فارقه الأمير شمس الدين سنقر
الأشقر وانفرد عنه وعن
الأمراء.
قال: ولما بلغ الأمراء أن السلطان يقصد طلوع القلعة من وراء
الجبل الأحمر ركبوا ليمنعوه
من الوصول إلى القلعة، فجاء سحاب أسود وأظلم الوقت حتى
أن الإنسان لا يرى رفيقه
الذي يسايره، فطلع السلطان إلى القلعة، وما رأوه. ولما
استقر بها حاصره الأمراء وأحاطوا
بالقلعو، واتفقا أن لاجين الزيني أنكر على الأمير سيف الدين
بلبان الزريقي وشتمه، فتغير
خاطره ونزل من القلعو وانحاز إلى الأمراء؛ وتسلل المماليك
من القلعة واحدا بعد واحد
ونزلوا إلى الأمراء. وأشار الأمير علم الدين سنقر الحلبي على
السلطان بالإفراج عن
المعتقلين، فأفرج عن الأمراء الشهرزورية وغيرهم، واستشار
السلطان الأمير المشار إليه
فيما يفعل، فقال:
"أرى أن أخذ المماليك السلطانية واهجم بهم على الأمراء
وأفرق شملهم". فلم يوافقه
على ذلك وتمادى الأمر اسبوعا، فأرسل السلطان إلى الأمراء
وسألهم أن يكون الشام
بكماله لهم، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه من الملك. فالتمس من
الأمير سيف الدين قلاون
والأمير بدر الدين بيسرى أن يعطوه قلعة الكرك فأجاباه إلى
ذلك. ونزل من القلعة بعد أن
حلفوه ألا يتطرق إلى غيرها وأن لا يكاتب أحدا من النواب ولا
يستميل أحدا من الجند.
وحلفوا له أنهم لا يؤذونه في نفسه ولا يغيرون عليه. وسفروه
لوقته صحبة الأمير سيف
الدين بيغان الركني وجماعة يوصلونه إلى الكرك فأوصلوه إليها
وتسلمها من الأمير علاء الدين
أيدكين الفخري النائب بها، وتسلم ما بها من الأموال والذخائر.
وكان خروجه من السلطنة

في شهر ربيع الآخر ثمان وسبعين وستمائة. فكانت مدة سلطنته بعد وفاة والده سنتين
وشهرين وأياما.
ثم ملك بعد أخوه السلطان الملك العادل بدر الديم سلامش بن السلطان الملك الظاهر
ركن الدين بيبرس الصالحي وهو السادس من ملوك دولة الترك بالديار المصرية.
ملك بعد خلع أخيه السلطان الملك السعيد في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين
وستمائة. وذلك أنه لما سفر الملك السعيد إلى الكرك عرضت السلطنة على الأمير سيف
الدين قلاون فأبى ذلك، وقال: "لم أخلع الملك طمعا في السلطنة إلا حفظا للنظام، وألفه
لأكابر الأمراء أن يتقدم عليهم الاصاغر، والأولى إلا تخرج السلطنة عن الذرية الظاهرية،
فأقام بدر الدين سلامش هذا وله من العمر سبع سنين، وخطب له على المنابر، وضربت
السكتة باسمه، ودبر الأمر سيف الدين قلاون أتابكية الدولة. ولم يكن للملك العادل معه
غير مجرد الاسم. وأقر الصاحب برهان الدين السناجري على الوزارة وعزل قاضي القضاة
تقي الدين محمد بن الحسين بن زين على القضاء بالديار المصرية، وفوضه إلى القاضي صدر
الدين عمر بن قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وذلك في جمادى الأولى سنة ثمان
وسبعين وستمائة. وعزل القاضي شمس الدين بن شكر المالكي، والقاضي معز الدين
الحنفي عن القضاء. ثم أعيد بعد مدة يسيرة. وفوض قضاء الحنابلة للقاضي عز الدين
المقدس الحنبلي. واستناب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بالشام وسيره إلى دمشق.
وكان وصوله إليها. في يوم الأربعاء ثاني جمادى الأخرى. وحال وصوله طلب الأمير علم
الدين سنجر الدواداري نائب قلعة دمشق وأمره بتسليم القلعة للأمير سيف الدين
الصالحي. حسب ما رسم به، فتسلمها واستمر نائبا بها.
وفي يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة أمر الأمير شمس الدين بالقبض على الصاحب فتح
الدين ابن القيسراني وإيقاع الحوطة على موجوده وسير إلى الأبواب السلطانية تحت
الاحتياط.

قال: وأخذ الأمير سيف الدين قلاون في القبض على الأمراء الظاهرية وهو في أثناء ذلك
يدير الأحوال ويفرق الأموال ويوس المماليك ويمهد لنفسه المسالك.
وأما الأمير بدر الدين بيسرى فإنه اشتغل بالشرب واللهو.
فاجتمعت آراء الأمراء على
استقلال
الأمير سيف الدين قلاون بالسلطنة، فأجابهم إلى ذلك، وخلع الملك سلامش من
السلطنة. فكان "كذا" مدة وقوع اسم السلطنة عليه مائة يوم.
وكان حسن الصورة جميل الهيئة، كثير السكون والحياء والعقل والأدب والتأني على صغر
سنه
الملك المنصور سيف الدين قلاوون
الألفي الصالحي النجمي
وهو السابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية. وهو من خالصة القفجاق، من قبيلة بُرْج
أغلي. وكان مملوك الأمير علاء الدين أقسنقر الساقي العادلي. اشتراه بألف دينار، فعرف
بالألفي. واتفقت وفاة أستاذه في الأيام الصالحية، في يوم الجمعة، الثامن والعشرين، من شهر
رجب، سنة ثمان وسبعين وستمائة؛ فارتجع الى المماليك السلطانية هو وجماعة من
خشداشيته، فهم يعرفون بالعلائية.
وكان السلطان الملك المنصور هذا، في جملة البحرية الذين خرجوا من الديار المصرية، بعد
مقتل الأمير فارس الدين أقطاي. ثم تنقلت به الحال الى هذه الغاية. ملك الديار المصرية
والبلاد الشامية، وما مع ذلك. وجلس على تخت السلطنة، بقلعة الجبل، في يوم الأحد،
العشرين من شهر رجب الفرد، سنة ثمان وسبعين وستمائة. واستحلف الأمراء والمقدمين،
ومن جرت العادة باستحلافه. وخُطِب له على المنابر، وكتب الى دمشق، والى سائر
الممالك يخبرهم بذلك. فوصل البريد الى دمشق في الثامن والعشرين من الشهر. وساق
بعض مماليك الملك المنصور من باب الإسطبل السلطاني، بظاهر قلعة الجبل الى دمشق، في
يومين وسبع ساعات. وحلف الناس له بالشام. وخطب له على منابر دمشق، في يوم
الجمعة ثاني شعبان.

وكان من أول ما اعتمده السلطان عند جلوسه على تخت السلطنة، أنه أمر بإبطال زكاء
الدولية، بالديار المصرية، وكانت قد أجحفت بالرعية. وأفرج عن الأمير عز الدين أيبك
الأفرم الصالحي، ورتبه في نهاية السلطنة. فتولاها مدة يسيرة، ثم استعفى منها فأعفاه،
وفوض نيابة السلطنة بعده، لمملوكه الأمير حسان الدين طرنطاي، وذلك في يوم السبت
الثالث والعشرين من شهر رمضان من السنة. وأقر الصاحب برهان الدين السنجاري على
الوزارة، ورتب مملوكه الأمير علم الدين سنجر الشجاعي في شد الدولة.
وكان أول ركوب السلطان الملك المنصور بشعار السلطنة، في يوم السبت الثالث من
شعبان. وكتب الى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بركوبه، والكتاب بخط القاضي تاج
الدين بن الأثير، جاء منه:
ولازالت أيامه بمحابّها تهنى، وترى من النصر ما كانت تتمنى، وتتأمل آثارها فتملأها
حسنا. وتشاهد من أماير الظفر ما يوسع على العباد أمنا.
ويستزيد الحمد على ما وهب
من الملك، الذي أولى كُلاً منّا منّا.
المملوك يهدي من لطيف أنبائه، ووظائف دعائه، وما استقر من عوارف الله لديه، وما
حباه به من النعم، التي ملأت يديه، ما يستروح بنسيمه؛
ويستفتح لسان الحمد بتقديمه،
وتزداد به مسرة نفسه وابتهاجها، وتزدان عقود السعود، وإنما يزين اللآلئ في العقود
ازدواجها، وتقوى به قوى العزائم، وتمثله الأعداء في أفكارها، فتكاد تجر ذيول العزائم،
وتبعث الآمال على تمسكها بالنصر، وتظهر منه المحاب التي لو قصدت الأقلام لحصرها،
لعجزت عن الحصر. وهو أن العلم الكريم، قد أحاط بالصورة التي استقرت، من دخول
الناس في طاعة المملوك، واجتماع الكلمة عليه، واستقلاله بأمر السلطنة المعظمة.
ولما كان يوم السبت، الثالث من شعبان المبارك، سنة ثمان وسبعين وستمائة، ركب
المملوك بشعار السلطنة، وأبهة الملك؛ وسلك المجالس العالية، الأمراء والمقدمون والمفاردة
والعساكر المنصورة، من آداب الخدمة، وإخلاص النية، وحسن الطاعة كل ما دلّ على

انتظام الأمر واتساق عقد النصر.
ولما قضينا من أمر الركوب وطرا، وأنجزنا للأولياء وعداً من السعادة منظرا، عدنا الى قلعة
الجبل المحروسة، والأيدي بالأدعية الصالحة لنا مرتفعة، والقلوب على محبة أيامنا مجتمعة،
والآمال قد توقفت بالعدل واستمراره، والأبصار قد استشرفت من التأييد مطالع أنواره.
وشرعنا من الآن في أسباب الجهاد، وأخذنا في كل ما يؤذن، إن شاء الله تعالى، بفتح ما
بأيدي العدو من البلاد. ولم يبق إلا أن تتثنى الأعنة، وتسدد الأسنة، ويظهر ما في النفوس،
من مضمرات المقاصد المستكنة.
ورسمنا بأن تزين دمشق المحروسة، وتضرب البشائر في البلاد، وأن يسمعها كل حاضر
وباد. والله تعالى، يجعل أوقاته بالتهاني مفتتحة، ويشكر مساعيه، التي مازالت في كل موقف
ممتدحة، إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده.
عزل الصاحب برهان الدين السنجاري عن الوزارة، وتفويضها للصاحب فخر الدين ابراهيم بن لقمان وغير ذلك
وفي هذه السنة، في السادس والعشرين، من شهر رمضان، عزل السلطان، الصاحب برهان
الدين الخضر السنجاري عن الوزارة، ولزم مدرسة أخيه قاضي القضاة بدر الدين، بالقرافة
الصغرى. واستوزر السلطان بعده، الصاحب فخر الدين ابراهيم بن لقمان.
وفيها، في شعبان، رسم السلطان بإعفاء تقي الدين توبة التكريتي بيع الخزانة بدمشق، من
هذه الوظيفة؛ وأن يسامح بما عليه من البواقي. وفوض إليه نظر الخزانة بدمشق فباشرها،
واستمر الى خامس شوال منها. ثم فوض إليه وزارة الشام، وخلع عليه خلع الوزراء.
وفيها، في أواخر شوال، حضر الأمير عز الدين أيدمر الظاهري، من دمشق، تحت
الاحتياط، وجرد معه جماعة، فلما وصل الى قلعة الجبل اعتقل بها.
وفيها، فوض السلطان قلعة دمشق لمملوكه الأمير حسام الدين لاجين السلاح دار، وهو
المعروف بلاجين الصغير، فوصل إليها وسكنها، وذلك في العشرين من ذي الحجة من هذه
السنة، فتخيل منه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، نائب السلطنة بالشام. وكان من
خروجه عن طاعة السلطان، وسلطنته بدمشق ما نذكره.

وقد رأينا أن نذكر أخباره، وما كان من أخبار أولاد السلطان الملك الظاهر بالكرك في
هذا الموضع الى آخر أخبارهم، ليكون ذلك سياقة. ثم نذكر الغزوات والفتوحات في الأيام
المنصورية بجملتها، على توال واتساق. بمقتضى ما يقدمه التاريخ. ثم نشرح بعد ذلك
حوادث السنين، وما وقع فيها من الولاية والعزل والأخبار، والوفيات، الى انقضاء الدولة،
على ما تقف على ذلك إن شاء الله تعالى في مواضعه.
أخبار الأمير شمس الدين سنقر الأشقر
وخروجه عن طاعة السلطان، وسلطنته بدمشق، وما كان من أمره الى أن عاد للطاعة،
ورجع الى الخدمة السلطانية
قد قدمنا أن السلطان الملك المنصور، في زمن أتابكيته، في سلطنة الملك العادل بدر الدين
سلامش. جهزه الى الشام، نائباً عن السلطنة بدمشق، وكان قد نقل الأمير جمال الدين أفش
الشمسي من دمشق الى نيابة السلطنة بحلب. فلما ملك السلطان الملك المنصور، واستقر
بالسلطنة، خطر ببال الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، أن يستبد بسلطنة الشام، ويصير
الأمر على ما كان عليه في أواخر الدولة الأيوبية. فجمع الأمراء الذين عنده، وأوهمهم أن
الأخبار وصلت إليه، أن السلطان الملك المنصور قد قتل، وهو يشرب الخمر. ودعاهم الى
طاعته، واستحلفهم لنفسه. فأجابوه، وحلفوا له، وتلقب بالملك الكامل، وركب بشعار
السلطنة، وأبّهة الملك، بدمشق، وذلك في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وسبعين
وستمائة. وفي الوقت، قبض على الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، نائب السلطنة بقلعة
دمشق، وعلى الصاحب تقي الدين توبة. وجهز الأمير سيف الدين بلبان الحبيشي، الى
سائر الممالك الشامية والقلاع، ليحلف من بها من النواب وغيرهم. واستوزر الصدر مجد
الدين أبا الفدا اسماعيل بن كسيرات الموصلي، وجعل وزير الصحبة الصدر عز الدين أحمد
بن ميسّر المصري، وانتقل بأهله من دار السعادة، التي يسكنها نواب السلطنة بدمشق، الى
القلعة. وأمر عند انتقال أهله، بغلق باب النصر، وفتح باب سر القلعة، المقابل لدار

السعادة، بجوار باب النصر، ففعلوا ذلك. فتطاير الناس له بأشياء، وقالوا: أغلق باب
النصر، وانتقل من دار السعادة، وسكن القلعة، وولى وزارته ابن كسيرات، فهذا لا يتم أمره،
وكان كذلك.
التقاء العسكر المصري والعسكر الشامي
وانهزام عسكر الشام، وأسر من يذكر من أمرائه في المرة الأولى
كان السلطان الملك المنصور، قد جهّز الأمير عز الدين أيبك الأفرم الى الكرك على سبيل
الإرهاب، عندما بلغه وفاة الملك السعيد، على ما نذكر ذلك، إن شاء الله. فبلغ الأمير
شمس الدين سنقر الأشقر، أنه خرج من الديار المصرية، في طائفة من عساكرها، فظن أنه
يقصده. فكتب إليه ينهاه عن التقدم، ويقول: إنني مهدت الشام، وفتحت القلاع، وخدمت
السلطان، وكان الاتفاق بيني وبنيه، أن أكون حاكماً على ما بين الفرات والعريش، فاستتاب
أقوش الشمسي بحلب، وعلاء الدين الكبكي بصفد، وسيف الدين بلبان الطباخي بحصن
الأكراد. وآخر الحال أنه يسيّر إلي من يقصد مسكي.
واتبع سنقر الأشقار كتابه، بتجريد العساكر. فلما وصل الكتاب الى الأمير عز الدين
الأفرم، كتبت مطالعة الى السلطان، وجهّز الكتاب الذي أرسله سنقر الأشقر عطفها.
فكتب السلطان الى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وكتب إليه أيضاً الأمراء
خوشداشيته، يقبحون عليه فعله، ويحضونه على الرجوع الى الطاعة. وتوجه بالكتب
الأمير سيف الدين بلبان الكريمي العلائي خوشداشة، فوصل الى دمشق في ثامن المحرم سنة
تسع وسبعين وستمائة. فخرج إليه سنقر الأشقر، وتلقاه وأنزله عنده، بقلعة دمشق
وأكرمه. ومع ذلك، لم يصغ الى قوله، ولا رجعل الى ما أشار به خوشداشيته.
قال: ولما وصل كتاب سنقر الأشقر الى الأمير عز الدين الأفرم، رجع الى غزة. وعاد الأمير
بدر الدين الأيدمري من الشوبك، بعد أخذها، على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، فاجتمعا
على غزة.
وجمع سنقر الأشقر العساكر، من حلب وحماه وحمص.
واستدعى علي الكبكي من

صفد، والعربان من البلاد، وجهز جماعة من عسكر الشام، وقدم عليهم الأمير شمس الدين
قراسنقر المعزي، فتوجه الى غزة. والتقوا هم والعسكر المصري. فانكسر عسكر الشام،
وأسر جماعة من أعيان الأمراء، منهم بدر الدين كنجك الخوارزمي، وبهاء الدين يحك
الناصري، وناصر الدين باشقرد الناصري، وبدر الدين بيليك الحلبي، وعلم الدين سنجر
التكريتي، وسنجر البدري، وسابق الدين سليمان صاحب صهيون، وسُيّروا الى السلطان،
فأحسن إليهم، وخلع عليهم، ولم يؤاخذهم.
تجريد العساكر الى دمشق، وحرب سنقر الأشقر وانهزامه وإخلائه دمشق، ودخول العسكر المصري إليها
قال: ولما وصل خبر الكسرة، الى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، المنعوت بالملك
الكامل، بدمشق، أخذ في الاهتمام وجمع العساكر. وكتب الى الأمراء الذين بغزة، من جهة
الملك المنصور، يعدهم ويستميلهم، وعين لكل منهم قلعة. وعسكر بظاهر دمشق. فجرّد
السلطان، الأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح،
بالعساكر ومن معهما من مضافيهما. فاجتمعا بالأميرين عز الدين الأفرم، وبدر الدين
الأيدمري ومن معهما. وساروا، والمقدم عليهم الأمير علم الدين سنجر الحلبي.
وكان سنقر الأشقر، قد برز من قلعة دمشق، بعساكر الشام في ثاني عشر صفر، سنة تسع
وسبعين وستمائة، ونزل بالجسورة. ووصل العسكر المصري الى الكسوة، وترتب الأطلاب
وتقدمت. والتقى العسكران بالجسورة، في خامس عشر الشهر. وعند اللقاء انهزم عسكر
حماه والعسكر الحلبي. وانحاز جماعة من الشاميين الى العسكر المصري. وحمل سنجر
الحلبي على سنقر الأشقر، فانهزم لوقته. وصحبه من الأمراء الأخصاء به، الأمير عز الدين
ازدمر الحاج، والأمير علاء الدين الكبكي، والأمير شمس الدين قراسنقر المعزي، والأمير
سيف الدين بلبان الحبيشي. وكان سنقر الأشقر، من عشية يوم الجمعة، ثالث عشر صفر،
قد جهز أولاده وحريمه وحواصله الى صهيون. فلما انهزم توجه به العرب الى الرحبة،
وكان من خبره ما نذكره.

قال: ولما انهزم سنقر الأشقر غلقت أبواب المدينة، مخافة أن ينهبها العسكر المصري.
وامتنعت القلعة أيضاً. ونزل الأمير علم الدين الحلبي بالقصر الأبلق، بالميدان الأخضر، وبات
العسكر حوله الى اليوم الثاني. فجاء الأمير سيف الدين الجوكندار، وهو نائب القلعة، من
جهة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، الى الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق، والأمير
حسام الدين لاجين المنصوري، والصاحب تقي الدين توبة، وهم في الاعتقال بالقلعة،
وحلّفهم أنهم لا يؤذونه إذا أخرجهم، ولا يؤذون أحداً من مستخدمي القلعة، وأمنوا
الناس. وكان الأمير علم الدين الحلبي قد نادى ظاهر دمشق بالأمان، ثم فتح الأمير حسام
الدين لاجين المنصوري باب الفرج، ووقف عليه، ومنع العسكر المصري من الدخول الى
المدينة خوفاً أن يشعثوا. ثم نودي بإطابة قلوب الناس، وأمر بالزينة ودق البشائر.
وكتب الأمير علم الدين سنجر الحلبي، الى السلطان بالنصر. وسير الأمراء الذين قبض
عليهم، فأحسن إليهم، ولم يؤاخذهم. وتوجه بالبشائر الى السلطان الأمير ناصر الدين محمد
ابن الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح، فأنعم السلطان عليه. وأمّره بعشرة
طواشية. ثم كان من أمر دمشق وأخبار أهلها، وما استقر من أمر النيابة بها، ما نذكره
إن شاء الله تعالى، في حوادث السنين.

توجه الأمير الى صهيون
وتحصنه بقلعتها

قال: لما انهزم الأمير شمس الدين المشار إليه، من دمشق، كما تقدم توجه الى الرحبة،
ففارقه أكثر من كان معه، وامتنع الأمير موفق الدين خضر الرحبي، النائب بقلعة الرحبة، من
تسليمها إليه، فعند ذلك كاتب أبغا بن هولاكو، ملك التتار، يعرفه بما وقع بين العساكر
الإسلامية من الاختلاف، وحثه على قصد البلاد بجيوشه، ووعده الانحياز إليه، والإعانة
والمساعدة على ذلك وكتب إليه، الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، بمثل ذلك وكان ما
نذكره إن شاء الله تعالى.
قال: وكان سنقر الأشقر، لما تغلب على الشام، كاتب نواب القلاع. فمنهم من أطاعه،

ومنهم من امتنع عليه. وكان ممن أطاعه، نائب صهيون وبرزية وبلاطنس والشغر وبكّاس،
وشيزر وعكار وحمص. فلما انهزم سنقر الأشقر، جرّد السلطان خلفه جيشاً صحبة
الأمير حسام الدين ايتمش بن أطلس خان. فبادر هو، وعيسى بن مهنا، بالهرب الى
صهيون، وذلك في جمادى الأولى من السنة المذكورة. وعاد ابن أطلس خان ومن معه،
واستمر سنقر الأشقر بصهيون.
انتظام الصلح بين السلطان الملك المنصور وبين سنقر الأشقر وما استقر بينهما، وانتقاض ذلك، وأخذ صهيون منه
وفي سنة ثمانين وستمائة، انتظم الصلح بين السلطان الملك المنصور، والملك شمس الدين
سنقر الأشقر. وذلك أن السلطان جرّد الأمير عز الدين أيبك الأفرم، والأمير علاء الدين
كشتغدي الشمسي الى شيزر. فترددت الرسائل بين السلطان وبين سنقر الأشقر، وطلب
منه تسليم شيزر، فطلب منه الشغر وبكّاس، وكانتا قد أخذتا منه، وطلب معهما فامية،
وكفر طاب وأنطاكية وبلادها، فأجيب الى ذلك. وتقرر أن يقيم شمس الدين سنقر الأشقر،
على هذه البلاد، وعلى ما بيده قبل ذلك من البلاد، وهي صهيون وبلاطنس واللاذقية
بستمائة فارس، لنصرة الإسلام، وإن الأمراء الذين معه، إن أقاموا عنده، يكونون من أمرائه،
وإن حضروا الى السلطان يكونون آمنين، ولا يؤاخذون.
وحضر عنده الأمير علم الدين سنجر الداوداري، بنسخة اليمين على ما تقرر، فحلف
السلطان على ذلك. وكتب له تقليداً بالبلاد، وسأل سنقر الأشقر، أن ينعت بلفظ الملك،
فما أجاب السلطان الى ذلك، ونعت بالإمرة. وسير السلطان، الأمير فخر الدين أباز المقري
الحاجب فحلّفه، وسير إليه السلطان من الأقمشة والأواني والأنعام شيئاً كثير. وانتظم
الصلح والاتفاق. وحضر مع السلطان في مصاف حمص، وعاد الى صهيون على ما نذكره
إن شاء الله تعالى؛ واستمر ذلك الى سنة أربع وثمانين وستمائة.
فلما حضر السلطان لحصار المرقب، وهي بالقبر من صهيون، لم يحضر الأمير شمس الدين
الى خدمة السلطان. فتنكر السلطان لذلك، وحنق عليه بسببه. وأرسل سنقر الأشقر

ولده ناصر الدين صمغار الى خدمة السلطان يتلافى ذلك، فمنعه السلطان من العود الى
والده. واستمر الى سنة ست وثمانين وستمائة. فجرد السلطان نائبه بالديار المصرية، الأمير
حسام الدين طرنطاي، الى صهيون، في جماعة كثيرة من العساكر، فنازلها، وراسله في
تسليمها، وذكر له مواعيد السلطان له. فامتنع من ذلك، فضايقه، ونصب المجانيق حتى
أشرف على أخذ حصن صهيون عنوة. فلما رأى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ذلك،
أرسل في طلب الأمان والأيمان. فحلف له الأمير حسام الدين طرنطاي، إن السلطان لا
يضمر له سوءاً. فنزل الى الأمير حسام، وسلّم إليه الحصن. فأخبرني من ذكر أنه شهد
كيف كان نزوله إليه، وما عامل كل منهما الآخر به، فقال: بينما الأمير حسام الدين جالس
في خيمته، إذ قيل له، هذا الأمير شمس الدين قد جاء. فوثب وأسرع المشي، وخرج إليه
وتلقاه، فترجل الأمير شمس الدين. وخلع الأمير حسام الدين قباء كان عليه، وبسطه على
الأرض، ليمشي الأمير شمس الدين عليه. فرفعه الأمير شمس الدين عن الأرض، وقبّله
ولبسه. فأعظم الأمير حسام الدين طرنطاي ذلك، وعامل الأمير شمس الدين بأتمّ الخدمة
وغاية الأدب. ورتّب في الحصن تائباً ووالياً ورجّاله. وسار هو والأمير شمس الدين الى
الديار المصرية. فلما قرب من قلعة الجبل، ركب السلطان وولداه الملك الصالح علاء الدين
علي، والملك الأشرف صلاح الدين خليل، وأولاد الملك الظاهر، والعساكر. وتلقاه الأمير
شمس الدين وتعانقا، وطلعا الى القلعة، وحمل السلطان إليه الخلع والأقمشة والحوائص
الذهب والتحف، وساق إليه الخيول، وأمّره بمائة فارس، وقدّمه على ألف. واستمر في
الخدمة السلطانية، من أكابر أمراء الدولة.
فهذا ما اتفق له، في خروجه وعوده على سبيل الاختصار. ثم كان من أخباره بعد ذلك،
ما نذكره إن شاء الله تعالى في مواضعه. فلنذكر حال الملك السعيد وأخيه المسعود.
خبر الملك السعيد
وما كان من أمره بالكرك واستيلائه على الشوبك واستعادتها منه

قال المؤرخ: لما توجه الملك السعيد الى الكرك، كان السلطان الملك المنصور، قد شرط
عليه، أنه لا يكاتب الأمراء، ولا يفسد العساكر، ولا يتطرق الى غير الكرك. فلما استقر بها
حركه مماليكه، وحسنوا له التطرق الى الحصون وأخذها، أولاً فأولاً، فوافقهم على ذلك.
وكاتب النواب وسير الأمير حسام الدين لاجين، رأس نوبة الجمدارية، الى الشوبك، فتغلب
عليها، وأقام بها. فكاتبه السلطان الملك المنصور، ونهاه فلم ينته، فجرد الأمير بدر الدين
بيليك الأيدمري الى الشوبك، فنزل عليها، وضايق أهلها، وتسلمها في العاشر من ذي القعدة
سنة ثمان وسبعين وستمائة، ورتب بها نائباً وعاد عنها.

وفاة الملك السعيد
وقيام أخيه الملك المسعود خضر مقامه بالكرك

قال: وفي سنة ثمان وسبعين وستمائة، ركب الملك السعيد، الى الميدان بالكرك، ولعب
بالكرة، فتقنطر عن فرسه، فصدع وحمّ أياماً قلائل، فمات. وكانت وفاته، رحمه الله تعالى،
في ثالث عشر ذي القعدة، من السنة.
وعمل السلطان الملك المنصور له عزاء، بقلعة الجبل، في الثاني والعشرين من الشهر.
وحضره وعليه ثياب البياض، وحضر الأمراء والقضاة والعلماء، والوعاظ. ولما توفي صُبّر،
ووضع في تابوت مدة، ثم حمل الى التربة الظاهرية بدمشق، وذلك في سنة ثمانين وستمائة،
ووصلت والدته إليها في ثامن عشرين شهر ربيع الآخر، والسلطان الملك المنصور يوم ذاك
بالشام. فأدخل التربة الظاهرية ليلافي تابوت، ولم يدخلوا به من باب المدينة، وإنما رفعوا
تابوته من أعلى السور، ودلّوه من الجانب الآخر، ووضع في قبره، وألحده القاضي عز الدين
بن الصائغ، كما ألحد والده.
وحضر السلطان الملك المنصور في بكرة دفنه الى التربة الظاهرية، ومعه القضاة والعلماء
والقراء والوعاظ، وأظهر الحزن عليه، وذلك في سلخ شهر ربيع الآخر. ومولده بمنزلة
العش، من ضواحي القاهرة، في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة.

قال: وكان الملك السعيد، لما استقر بالكرك، رتب في النيابة بها الأمير علاء الدين ايدغدي

الحراني الظاهري، لما فارقه الأمير علاء الدين الفخري النائب بها الى الديار المصرية. فلما
مات اتفق نائبه الأمير علاء الدين ايدغدي الحراني ومن معه، وأقاموا أخاه خضراً مقامه،
ولقب بالملك المسعود. فشرع المماليك، الذين حول الملك المسعود نجم الدين خضر، في
سوء التدبير، ففرقوا أموال الذخائر، وأرادوا أن يستجلبوا بها الناس، وانضم إليه كل من
قطع رزقه. وتوجه منهم جماعة الى الصلت فاستولوا عليها، وأرسلوا الى صرخد،
وقصدوا الاستيلاء عليها، فعجزوا عن ذلك. وشرعوا في استفساد الناس، وتسامع بهم
العربان والطماعة، أنهم يبذلون الأموال، فقصدوهم من كل الجهات، وهم يبذلون الأموال لمن
يقصدهم ويصل إليهم. فكان جماعة من العربان وغيرهم يقصدونهم من أطراف البلاد،
ويجتمعون ويحضرون الى الملك المسعود، ويبذلون له الطاعة، ويتقربون إليه بالنصيحة. فإذا
وثق بهم، وأنفق فيهم الأموال، وحصلوا عليها، وبلغوا الغرض مما راموه تسللوا وفارقوه،
وعادوا من حيث جاءوا وتفرقت جماعاتهم. وهو ومن عنده لا يرجعون عن بذل المال لمن
يصل إليهم، الى أن فنيت أكثر تلك الذخائر، التي كانت بالكرك، التي حصنها السلطان
الملك الظاهر، وجعلها بهذا الحصن ذخيرة لأوقات الشدائد، فنفقوها فيما لا أجدى نفعاً،
بل جلب ضرراً، وغلّت الخواطر. ثم كاتبوا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطنة
بدمشق في الموافقة معهم. واتصل ذلك بالسلطان، فجرد الأمير عز الدين أيبك الأفرم الى
الكرك على سبيل الإرهاب. وكان بينه وبين الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ما قدمناه.
الصلح بين السلطان والملك المسعود وانتقاض ذلك وإخراجه من الكرك
وفي سنة ثمانين وستمائة، وردت رسل الملك المسعود الى السلطان في طلب الصلح، والزيادة
على الكرك، وأن يكون له ما كان للناصر داود، فلم يجبه السلطان الى ذلك، ولا الى إقامته
بالكرك بالأصالة. وترددت رسائله الى السلطان، وسأل أن يقر بيده الكرك وأعمالها من
حد الموجب الى الحسا. فأجابهم السلطان، وحلف لهم؛ والتمسوا شروطاً: منها تجهيز

الإخوة الذكور والإناث، أولاد الملك الظاهر الى الكرك، وردّ الأملاك الظاهرية عليهم، وتمّ
الصلح وحلف السلطان عليه.
وتوجه الأمير بدر الدين بيليك المحسني السلاح دار، والقاضي تاج الدين ابن الأثير، الى
الكرك، وحلفا الملك المسعود. وكوتب من ديوان الإنشاء، كما يكاتب صاحب حماه،
واستمر الأمر على ذلك الى سنة اثنتين وثمانين وستمائة، فبلغ السلطان أنهم نقضوا ما كان
قد تقرر. وحضر الأمير علاء الدين ايدغدي الحراني، نائب الملك المسعود بالكرك، وأنهى
الى السلطان ما اعتمدوه، مما يغلّت الخواطر. فكتب السلطان الى الملك المسعود ومن معه
ينهاهم عن ذلك، فلم ينتهوا. فجرد الى الكرك في هذه السنة الأمير بدر الدين بكتاش
الفخري، أمير سلاح، وأمره بمراسلتهم، فراسلهم، فلم يرجعوا عن اعتمادهم، فضايق
الكرك، ورعت خيول العسكر تلك الزراعات كلها، ثم عاد عن الكرك.
وتراخى الأمر، واستمر الملك المسعود بالكرك الى سنة خمس وثمانين وستمائة. فجرد
السلطان الملك المنصور، الأمير حسام الدين طرنطاي، نائب السلطنة، بجيش كثيف، وأمره
بمنازلة الكرك ومحاصرتها فتوجه إليها، وأحضر آلات الحصار، من الحصون الإسلامية،
وضايقها وقطع الميرة عنها. واستدعى بعض الرجّالة، وأحسن إليهم، فوافقوه على الملك
المسعود. فلما رأى الملك مسعود نجم الدين خضر، وأخوه بدر الدين سلامش الحال على
ذلك، أرسل الملك المسعود الى الأمير حسام الدين طرنطاي، في طلب الأمان، فأمّنه عن
السلطان. فقال لابد من أمان السلطان وخاتمه. فطالع الأمير حسام الدين السلطان بذلك،
فأرسل السلطان بأمانه الأمير ركن الدين بيبرس الداوادار المنصوري، فاجتمع بهما، وأبلغهما
أمان السلطان، فنزلا من قلعة الكرك، الى الأمير حسام الدين طرنطاي، وذلك في صفر سنة
خمس وثمانين وستمائة.
فرتب الأمير حسام الدين، عز الدين أيبك الموصلي المنصوري، في نيابة السلطنة بالشوبك
منذ استعيدت من الملك السعيد.

ورحل الأمير حسام الدين طرنطاي، وولدا الملك الظاهر صحبته، فلما وصلوا الى الديار
المصرية، وقربوا من قلعة الجبل، ركب السلطان، وتلقاهما وأقبل عليهما، وطلعا الى القلعة،
وذلك يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول. وأمّر كلاً منهما إمرة مائة فارس. واستمرا يركبان
معه في الموكب والميدان، ونزلهما منزلة أولاده. ثم بلغه عنهما ما تنكر له، فقبض عليهما
واعتقلهما، وبقيا في الاعتقال في أيام السلطان الملك الأشرف، فسيرهما الى القسطنطينية.
هذا ما كان من أخبار هؤلاء المناوئين في الملك، فلنذكر الفتوحات والغزوات، ونوردها في
الترتيب، على حكم السنين، إن شاء الله تعالى.
فتوحات وغزوات شهدها السلطان
والتي ندب إليها عساكره المؤيدة
عبور التتار الى الشام
والمصاف الذي وقع بينهم وبين العساكر المنصورة بحمص وانهزام التتار
قال المؤرخ: وفي سنة ثمانين وستمائة، وردت الأخبار بدخول منكوتمر، الى بلاد الروم،
بعساكر المغل، وأنه نزل بين قيسارية وابلستين، فتوجه كشافة من عين تاب، فوقعوا بفرقة من
التتار بالقرب من صحراء هوتي، الذي كسر الملك الظاهر التتار عليها. فظفروا منهم
بإنسان يسمى حلتار بهادر أمير آخور أبغا ابن هولاكو، كان قد توجه لكشف المروج،
فأمسكوه وأحضروه الى السلطان الى دمشق. فوانسه السلطان، وسأله عن الأخبار، فذكر
أنهم في عدد كثير يزيدون على ثمانين ألف فارس من المغل، وعزمهم أنهم يقصدون البلاد،
قولاً جازماً، ويركبون من منزلتهم أول شهر رجب.
ثم ورد الخبر في جمادى الآخرة، أنهم ركبوا من منزلتهم، وأنهم يسيرون برفق، وأن فرقة
منهم توجهت صحبة أبغا الى الرحبة، ومعه صاحب ماردين، فسير السلطان كشافة الى
الرحبة، صحبة بجكا العلائي. وركب السلطان من دمشق، ووصل العدو المخذول الى
صوب حارم. وراسل السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأشقر عدة مراسلات، الى أن
تقرر أنه ينزل من صهيون بمن معه للغزاة، بشرط أن يعود إليها، إذا انقضى المصاف. فنزل

ووافى السلطان على حمص، هو ومن كان عنده من الأمراء، وهم ايتمش السعدي، وازدمر
الحاج، وسنجر الداواداري، وبجق البغدادي، وكراي، وشمس الدين الطنطاش وابنه، ومن
معهم من الظاهرية. ففرح المسلمون بحضورهم، وكان ذلك قبل المصاف بيومين.
ثم ورد الخبر أن منكوتمر على حماه بعساكر التتار، في ثمانين ألف، منهم خمسون ألف من
المغل، وبقيتهم مرتدة وكرج وروم وأرمن وفرنج، وأنه نفر إليهم مملوك من مماليك الأمير ركن
الدين بيبرس العجمي الصالحي الجالق، ودلّهم على عورات المسلمين وأخبرهم بعددهم.
ورحلوا ليلة الخميس عن حماه، ورتبوا جيشهم. فكان طرف ميمنتهم حماه، وطرف
ميسرتهم، وساقوا طالبين اللقاء، والمقدم عليهم من قبل أبغا، منكوتمر بن هولاكو، أخو
أبغا.
ورتب السلطان الملك المنصور عساكره، وبات المسلمون على ظهور خيولهم. واتفق أن
شخصاً من عسكر التتار، دخل حماه، وقال للنائب بها: اكتب الساعة الى السلطان، على
جناح طائر، وعرفه أن القوم ثمانون ألف مقاتل في القلب، منهم أربعة وأربعون ألف من المغل
وهم طالبون القلب، وميمنتهم قوية جداً، فتقوى ميسرة المسلمين، وتحترز على الصناجق.
فكتب النائب بذلك الى السلطان. فلما قرأ الكتاب ركب عند إسفار الصباح. في يوم
الخميس رابع عشر شهر رجب، سنة ثمانين وستمائة، وهو يوم اللقاء. ورتب العساكر
المنصورة الإسلامية، على ما نذكره، بمقتضى ما أورده الأمير ركن الدين بيبرس الداوادار
المنصوري في تاريخه وهو:
الميمنة المنصورة، فيها الملك المنصور صاحب حماه، والأمير بدر الدين بيسرى الشمسي،
والأمير علاء الدين طيبرس الوزيري والأمير عز الدين أيبك الأفرم، والأمير علاء الدين
كشتغدي الشمسي ومضافوهم، والأمير حسام الدين لاجين نائب الشام والعسكر الشامي.
وفي رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا وآل فضل وآل مري، وعربان الشام،
ومن انضم إليهم.

الميسرة المباركة، فيها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ومن معه من الأمراء، والأمير بدر
الدين بيليك الأيدمري، والأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح، والأمير علم الدين سنجر
الحلبي، والأمير بجكا العلائي، والأمير بدر الدين بكتوت العلائي، والأمير سيف الدين خبرك
التتري، ومن معهم من المضافين. وفي رأس الميسرة التركمان بجموعهم وعسكر حصن
الأكراد.
ذكر الجاليش وهو مقدمة القلب، فيه الأمير حسام الدين طرنطاي، نائب السلطنة، ومن
معه من مضافيه، والأمير ركن الدين اياجي الحاجب، والأمير بدر الدين بكتاش بن كرمون،
ومن معهم من المماليك السلطانية. ووقف السلطان تحت الصناجق، وحوله مماليكه وألزامه
وأرباب الوظائف.
وأشرفت كراديس التتار. وكان الملتقى بوطأة حمص، بالقرب من مشهد خالد بن الوليد.
فالتقى الجمعان، في الساعة الرابعة، من نهار الخميس، وجاءت ميسرة العدو، تجاه الميمنة
الإسلامية، وصدموا الصدمة الأولى، فثبت المسلمون. وانكسرت ميسرة التتار كسرة تامة،
وانتهت الى القلب الذي للتتار، وبه منكوتمر.
وأما الميسرة الإسلامية، فصدمتها ميمنة التتار، فلم تثبت لترادف كراديسهم. وساق
التتار وراء المسلمين، حتى انتهوا الى تحت حمص. ووقعوا في السوقة والعوام، فقتلوا منهم
خلقاً كثيراً. ولم تعلم المسلمون ما تهيأ للميمنة من النصر، ولا علم التتار ما أصاب
ميسرتهم، فاستقل بعض من انهزم الى دمشق، وبعضهم الى قرب صفد. ومنهم من وصل
غزة.
ولما رأى التتار، أنهم قد استظهروا، نزلوا عن خيولهم في المرج الذي عند حمص، وأكلوا
الطعام، ونهبوا الأثقال والوطاقات، والخزانة. وانتظروا قدوم بقيتهم، فلما أبطأوا عنهم،
أرسلوا من يكشف خبرهم، فعاد الكشافة وأخبروهم أن منكوتمو هرب، فركبوا خيولهم،
وكروا راجعين.
هذا والسلطان ثابت في موقفه، في نفر يسير من المماليك، والعساكر قد تفرقت. منهم من

تبع التتار الذين انهزموا، ومنهم من استمر به الهرب. فلما رجعت ميمنة التتار، أمر
السلطان أن تلف الصناجق، وتبطل الكوسات، فمروا ولم يقدموا عليه. وأخذوا على
طريق الرستن، ليلحقوا بأصحابهم. وعندما تقدموه قليلاً، ساق عليهم، فانهزموا لا يلوون
على شيء. وكان ذلك تمام النصر، وهو عند غروب الشمس من يوم الخميس. ومرّ هؤلاء
المنهزمون من التتار نحو الجبل، يريدون منكوتمر. وكان ذلك من تمام نعمة الله على المسلمين
وإلا لو قدر الله أنهم رجعوا على المسلمين، لما وجدوا فيهم قوة. ولكن الله نصر دينه،
وهزم عدوه مع قوتهم وكثرتهم. وانجلت هذه الواقعة عن قتلى كثيرة من التتر لا يحصى
عددهم. وكتبت البطائق بالنصر.
وعاد السلطان من يومه الى المنزلة، بعد انفصال الحرب. وكان قد فرق ما بالخزانة من
الذهب، في أوساط مماليكه، فسلم بجملته. وبات السلطان بالمنزلة ليلة الجمعة. فلما كان
عند السحر، ثار صياح بالوطاقات، فظن الناس عود العدو، فركب السلطان ومن معه
وكان بالوطاقات، فانكشف الخبر بعد ساعة، أن جماعة من العسكر، الذين تبعوا التتار
عند الهزيمة رجعوا. وقتل من التتار في الهزيمة، أكثر من الذين قتلوا في المصاف، واختفت
منهم طائفة بجانب الفرات. فأمر السلطان أن تضرم النيران بالأزوار التي على الفرات،
فأحرق أكثر من اختفى فيها. وهلكت فرقة منهم، كانوا سلكوا درب سلمية.
ولما وصلت البطائق الى الرحبة، بخبر النصر وهزيمة التتار، كان أبغا ملك التتار يحاصرها،
فدقت البشائر، وأعلن الناس بالنصر، ففارقها أبغا وتوجه الى بغداد.
وعاد الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الى صهيون. ورجع الى الخدمة السلطانية ممن كان
معه، ايتمش السعدي، وسنجر الداوادار وكراي التتاري وولده، وتماجي، وجماعة من
الأمراء الذين كانوا عنده. وعاد السلطان الى دمشق، فكان وصوله إليها، في يوم الجمعة
ثاني عشر شهر رجب الفرد. وامتدحه الشعراء، وأكثروا المدائح والهناء بهذا النصر.

وخرج السلطان من دمشق، عائداً الى الديار المصرية، في يوم الأحد ثاني شعبان. وكان
وصوله الى قلعة الجبل، في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر، فزينت له المدينة، ودخل،
وبين يديه الأسرى، وبعضهم يحمل صناجقهم المكسورة وطبولهم. وخلع السلطان على
الأمراء والأكابر.
واستشهد في هذه الواقعة من الأمراء من نذكر: منهم الأمير عز الدين ازدمر الحاج. وهو
الذي جرح منكوتمر، وكان من أعيان الأمراء، وكانت نفسه تحدثه أنه يملك. والأمير بدر
الدين بكتوت الخازندار، والأمير سيف الديان بلبان الرومي الداوادار الظاهري، والأمير
شهاب الدين توتل الشهرزوري، رحمهم الله تعالى.
هذا ما كان من خبر هذه الواقعة.
فتوح قلعة قطيبا
وهذه القلعة كانت في الزمن الأول محسوبة في جملة قلعة آمد، ثم صارت في يد ملك الروم،
وصارت في يد العدو المخذول من التتار، وفيها نوابهم. وكانت مضرّة بقلعة كركر والثغور
المجاورة لها، وما كان يمكن أخذها بحصار، فتلطف النواب، واستمالوا من كان بها.
فلما كان في سنة اثنتين وثمانين وستمائة. خلت هذه القلعة من الغلال. فجرد السلطان
إليها رجالة كركر، فضايقوها. فسأل أهلها مراحم السلطان فأجيبوا الى ملتمسهم.
وتسلمها نواب السلطان، وأحضروا إليها جماعة من الرجالة من قلعة البيرة وعين تاب
والروندان. وجعل فيها ما يحتاج إليه من الغلال والسلاح والعدد. وصارت من حصون
الإسلام المنيعة.
فتوح ثغر الكختا
وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة أيضاً، فتحت قلعة الكختا. وهي من أمنع الحصون
وأعلاها وأتقنها بنية. فاجتهد السلطان في تحصيلها وإضافتها الى الحصون الإسلامية.
ووعد من بها المواعيد الجميلة. فأجابوا بالسمع والطاعة. وقتلوا النائب بها، وهو الشجاع
موسى. وراسلوا نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الحلبية، وبذلوا تسليم القلعة. فجهز إليهم
الأمير جمال الدين الصرصري، والأمير ركن الدين بيبرس السلاح دار، والأمير شمس الدين

أقش الشمسي العينتابي، ومن معهم. فتسلموا الحصن، وحلّفوا من به للسلطان ولولده
الملك الصالح، وألبسوهم التشاريف، ثم جهزوا من كان بها، طائفة بعد أخرى الى الأبواب
الشريفة السلطانية. فأحسن السلطان إليهم، وأقطع منهم من يستحق الإقطاع، وجهزت
إليهم الزردخانات، وآلات الحصار، واستقرت في جملة الحصون الإسلامية. وصارت هذه
القلعة شجى في حلق الأرمن، وحصل الاستظهار بها على الغارات.

وذكر الإغارة على بلاد سيس

وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة أيضاً، كتب السلطان الى نائب السلطنة بالمملكة الحلبية،
أن يوجه من يغير على بلاد سيس، بسبب ما كان الأرمن اعتمدوه، من إحراق جامع
حلب، لما جاءوا صحبة التتار. وجرد السلطان عسكراً من الديار المصرية، ومن عسكر
الشام لذلك. فتوجهوا وأغاروا، ووصلوا الى مدينة أياس، فقتلوا من أهلها جماعة، ونهبوا
وخربوا. فلما عادوا ووصلوا الى باب اسكندرونه، أتاهم عسكر الأرمن فاقتتلوا. فانهزم
الأرمن، وتبعهم العسكر الى تل حمدون، واقتلعوا جماعة من خيلاتهم، وعاد العسكر
الإسلامي بالظفر والغنيمة.

فتوح حصن المرقب

وفي سنة أربع وثمانين وستمائة، توجه السلطان الملك المنصور الى المرقب، ونازله في أوائل
شهر ربيع الأول. وذلك أن أهله فعلوا ما يوجب نقض الهدنة، التي كانت حصلت بينهم
وبين السلطان، على ما نذكرها في حوادث السنين، ولم يتفقوا عند شروطها. فحاصر
السلطان الحصن، وعملت النقوب، وأشرفت الفرنج على أنه يفتح عنوة. فطلبوا الأمان،
وسلموا الحصن. فتسلمه السلطان، وذلك في الساعة الثامنة من نهار الجمعة سابع عشر
شهر ربيع الأول. وكان هذا الحصن لبيت الاسبتار، وجهز أهله الى طرابلس.

غزوتي النوبة الأولى والثانية

كانت الغزوة الأولى في سنة ست وثمانين وستمائة. وذلك أن السلطان الملك المنصور، جهز
الأمير علم الدين سنجر المسروري، المعروف بالخياط، متولي القاهرة والأمير عز الدين

الكوراني، وجماعة من أجناد الولايات، بالوجه القبلي والقراغلامية. وجرد الأمير عز الدين
أيدمر السيفي، السلاح دار، متولي الأعمال القوصية، بعدته ومن عنده من المماليك
السلطانية، المركزين بالأعمال القوصية، وأجناد مركز قوص، وعربان الإقليم وهم: أولاد أبي
بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وجماعة من العربان
الريسية وبني هلال. فتوجه الأمير علم الدين الخياط بنصف الجيش من البر الغربي.
وتوجه الأمير عز الدين أيدمر بالنصف الثاني من البر الشرقي، وهو الجانب الذي فيه مدينة
دنقلة. وكان متملك النوبة في ذلك الوقت اسمه سمامون، وكان ذا دهاء ومكر وبأس،
بالنسبة الى أمثاله.
فلما وصل الجيش الى أطراف البلاد، أخلا سمامون البلاد، وأرسل الى نائبه بجزائر
ميكائيل وعمل الدّو، وهو جُرَيس - ويسمى من يتولى هذه الولاية، عند النوبة، صاحب
الجبل - فأمره بإخلاء البلاد التي تحت يده أمام الجيش. فكانوا يرحلون أمام الجيش منزلة
بمنزلة، الى أن انتهوا الى متملك النوبة بدنقلة. فأقام بها الى حيث وصل الأمير عز الدين
ومن معه، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم سمامون، وقتل من أصحابه خلق كثير. واستشهد من
المسلمين أناس قلائل.
ولما انهزم سمامون، تبعه الجيش الى ميسرة خمسة عشر يوماً من دنقلة، فأدركوا جُريس،
فأخذوه، وأخذوا ابن خاله متملك النوبة، وهو من أعيان أصحابه، وممن يرجع إليه الملك.
فرتب الأمير عز الدين، ابن أخت الملك ملكاً، وربت جريس في النيابة عنه، وجرد معهما
جماعة من العسكر، وقدر عليهما قطيعة، يحملونها الى الأبواب السلطانية في كل سنة.
وعاد الجيش بعد أن غنموا غنائم كثيرة من الرقيق، والخيل، والجمال، والأبقار، والأكسية.
ولما فارق الجيش النوبة وعاد، وتحقق سمامون عودهم، رجع الى دنقلة، وقاتل من بها،
وهزمهم واستعاد البلاد. فحضر الملك المستجد وجريس، ومن كان معهما من العسكر
المجرد، الى الأبواب السلطانية، وأنهوا ما اتفق من سمامون. فغضب السلطان لذلك، وجرد

جيشاً كثيفاً.
تجريد الجيش في المرتبة الثانية الى النوبة
قال: وجرد السلطان الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير جاندار الى النوبة، وصحبته من
الأمراء، الأمير سيف الدين قبجق المنصوري، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار،
والأمير عز الدين أيدمر، متولي الأعمال القوصية. وجرد أيضاً من أطلاب الأمراء، من
نذكر: طُلْب الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، وطُلْب الأمير بدر الدين بيدرا، وطُلب
الأمير سيف الدين بهادر، رأس نوبة الجمدارية، وطُلب الأمير علاء الدين الطيبرس، وطُلب
الأمير شمس الدين سنقر الطويل. وسار أجناد المراكز بالوجه القبلي، ونواب الولاة من
العربان بالديار المصرية، من الوجهين القبلي والبحري، وعدتهم أربعون ألف راجل. وجهز
معهم متملك النوبة، ونائبه جريس.
وكان توجه الجيش من الأبواب السلطانية، في يوم الثلاثاء، ثا من شوال، سنة ثمان وثمانين.
وصحب هذا الجيش من الحراريق والمراكب الكبار والصغار، لحمل الأذواد، والزردخاناة
والأثقال، ما يزيد على خمسمائة مركب.
ولما وصل العسكر الى ثغر أسوان، مات متملك النوبة، فدفن بأسوان. وطالع الأمير عز
الدين الأفرم السلطان بذلك. فأرسل إليه، من أولاد أخت الملك داود رجلاً، كان بالأبواب
السلطانية. ورسم له أن يملّكه بالنوبة، فأدركهم على خيل البريد، قبل رحيل العسكر من
أسوان. ولما وصل إليهم انقسم العسكر نصفين على العادة. فكان الأمير عز الدين الأفرم،
والأمير سيف الدين قبجاق، ونصف العسكر ونصف العربان بالبر الغربي، والأمير عز الدين
أيدمر، متولي الأعمال القوصية، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار، ونصف العسكر
ونصف العربان بالبر الشرقي.
وتوجهوا ورسموا الجريس نائب النوبة أن يتقدمهم، منزلة بمنزلة، ومعه أولاد الكنز، أمراء
أسوان، ليطمئنوا أهل البلاد ويؤمنوهم، ويجهزوا الإقامات للعسكر. فكان الجيش إذا وافى
بلداً، خرج من بها من المشايخ وأعيانها، وقبلوا الأرض بين يدي الأمراء، وأخذوا أماناً

واستقروا ببلدهم، وذلك من الدّو الى الجزائر ميكائيل، وهي البلاد التي كانت تحت يد
جريس، صاحب الجبل. وأما ما عدا ذلك من البلاد، التي لم يكن لجريس عليها ولاية، فإنها
أخليت، طاعة لمتملك النوبة. فكان العسكر ينهب ما يجد بها، ويقتل من تخلف من أهلها
بها، ويرعون زروعهم، ويحرقون سواقيهم ومساكنهم، الى أن انتهوا الى مدينة دنقلة.
فوجدوا الملك قد أخلاها، وأجلى أهلها، ولم يجد الأمراء بها إلا شيخاً كبيراً وعجوزاً.
فسألوهما عن أخبار الملك، فذكرا أنه توجه الى جزيرة وسطى، في بحر النيل، مسافتها من
دنقلة خمسة عشر يوماً. واتساع هذه الجزيرة مسافة ثلاثة أيام طولاً. فتبعهم الأمير عز
الدين ومن معه الى الجزيرة المذكورة ولم يصحبهم حراق ولا مركب، لتوعر البحر بالأحجار.
فلما انتهوا الى قبالة الجزيرة، شاهدوا بها عدة من مراكب النوبة، وجمعاً كثيراً. فسألوهم
عن الملك، فأخبروهم أنه بالجزيرة المذكورة، فعرضوا عليه الدخول في الطاعة والحضور،
وبذلوا له الأمان، فأبى ذلك. فأقام العسكر ثلاثة أيام، وأوهموه أنهم أرسلوا يطلبون المراكب
والحراريق، ويعدون إليه ويقاتلونه. فانهزم من الجزيرة الى جهة الأبواب، وهي مسافة ثلاثة
أيام في الجزيرة، وليست داخلة في مملكته. ففارقه من كان معه من السواكرة، وهم الأمراء،
وفارقه أيضاً الأسقف والقسوس، ومعه الصليب الفضة، الذي يحمل على رأس الملك، وتاج
المملكة، وطلبوا الأمان، ودخلوا تحت الطاعة. فأمنهم عز الدين المتولي، وخلع على
أكابرهم، ورجعوا معه الى دنقلة، وهم في جمع كثير، ولما وصلوا إليها، عدّى الأمير عز
الدين الأفرم، والأمير سيف الدين قبجاق، الى البر الشرقي، دون من معهما من العساكر.
واجتمع الأمراء بدنقلة، ولبست العساكر آلة الحرب، وطلّبوا من الجانبين وزينت الحراريق
في البحر. ولعب الزارقون بالنفط، ومدّ الأمراء الأخوان السماط في كنيسة أسوس، وهي
أكبر كنيسة بدنقلة. فلما أكلوا الطعام، ملّكوا الملك الواصل من الأبواب السلطانية.
وألبسوه التاج، وحلّفوه للسلطان. وحلّفوا له أهل البلاد. وتقرر عليه البقط المستقر أولاً،

والبقط هو المقرر. وجرد عنده طائفة من العسكر. وقدم عليهم ركن الدين بيبرس العزي،
أحد مماليك الأمير عز الدين متولي قوص.
وعاد العسكر، وكان وصوله الى القاهرة في جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة،
وكانت مدة غيبته منذ خرج من ثغر أسوان، الى أن عاد إليه ستة أشهر، وغنموا غنائم
كثيرة.
فلما عاد العسكر عن دنقلة، حضر سمامون إليها ليلاً، وصار يقف على باب كل سوكري
بنفسه ويستدعيه. فإذا خرج ورآه، قبّل الأرض بين يديه وحلف له. فما طلع الفجر حتى
ركب معه جميع العسكر النوبي. فزحف بهم على دار الملك، وقبض على الملك. وأرسل
الى ركن الدين بيبرس العزي. أن يتوجه الى مخدومه، بحيث لا يلتقيان. فتوجه ركن الدين،
ومن معه الى قوص. واستقر الملك سمامون بدنقلة. وأخذ الملك الذي ملّكه العسكر،
فعراه من ثيابه، وذبح ثوراً، وقدّ جلده سيوراً، ولفّها عليها طريّة، وأقمه مع خشبة.
فيبست عليه تلك السيور فمات. وقُتل جريس أيضاً.
وكتب سمامون الى السلطان الملك المنصور يستعطفه ويسأله الصفح عنه. والتزم أن يقوم
بالبقط المقرر في كل سنة، وزيادة عليه. وأرسل من الرقيق والتقادم عدة كثيرة، فوصل ذلك
في أواخر الدولة المنصورية. وحصل اشتغال السلطان بما هو أهم من النوبة. فاستقر
سمامون بالنوبة الى أيام العادلية الزيتية كتبغا، وكان من أمره، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

فتوح طرابلس الشام

كان فتح طرابلس، في الساعة السابعة، في يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر، سنة ثمان
وثمانين وستمائة، عنوة. وذلك أن السلطان الملك المنصور توجه الى الشام، في شهر المحرم
من هذه السنة، وعزم على غزو طرابلس. لأن أهلها كانوا قد نقضوا قواعد الصلح، ونكثوا
أسباب الهدنة. فكتب السلطان الى النواب بالممالك الشامية، والحصون الإسلامية، بتجهيز
الجيوش إليها، وإنفاذ المجانيق وآلات الحصار.
ووصل السلطان الى دمشق، بعساكر الديار المصرية، في يوم الإثنين ثالث عشر صفر من

هذه السنة. وتوجه منها في العشرين من الشهر، ونازل طرابلس بالجيوش وحاصرها.
ووالى الزحف والحصار والرمي بالمجانيق. وعملت النقوب، فنقبت الأسوار، وافتتحت
عنوة في التاريخ المذكور. وكانت مدة المقام عليها، أربعة وثلاثين يوماً. وكانت عدة المجانيق
التي نصبت عليها، تسعة عشر منجنيقاً، وهي فرنجية ستة، وقرابغا ثلاثة عشر. وعدة
الحجارين والزراقين ألف وخمسمائة نفر.
ولما فتحت المدينة، فرت طائفة من الفرنج الى جزيرة تعرف بجزيرة النخلة، حيال طرابلس
في البحر، لا يتوصل إليها إلا في المراكب. فكان من السعادة الأزلية للمسلمين، أن البحر
زجر وانطرد عن طرابلس فظهرت للناس المخائض. فعبر الفارس والراجل الى هذه الجزيرة،
وأسروا وقتلوا من فيها، وغنموا ما كان معهم. وكان جماعة من الفرنج قد ركبوا في مركب
وتوجهوا، فألقتهم الريح الى الساحل، فأخذهم الغلمان والأوشاقية. وقتل منهم خلق كثير
وغنم المسلمون غنائم كثيرة.
وكان السلطان أمر بإبقاء المدينة، وإنزال الجيش بها. فأشير عليه أن هدمها أولى من
بقائها، فأمر بهدمها فهدمت. وكان عرض سورها بمقدار ما يسوق عليه ثلاثة فرسان
بالخيل. ووصل الى الزردخاناة السلطانية من الأسرى، ألف أسير ومائتا أسير. واستشهد
عليها من المسلمين ممن يعرف، الأمير عز الدين معن، والأمير ركن الدين منكورس الفارقاني،
ومن الحلقة خمسة وخمسون نفراً، رحمهم الله تعالى.
وحكى الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه قال: ولما فتح السلطان طرابلس، تسلم أنفة،
وأمر بإخراب حصنها، وكان حصناً منيعاً، وأبقى على أخت البرنس صاحب طرابلس
قريتين من قراها.
قال، وحضر الى السلطان، وهو بظاهر طرابلس ولد سيركي صاحب جبيل، وكان
صاحب طرابلس قتل أباه في سنة إحدى وثمانين وستمائة. فخلع السلطان عليه، وأقر
جبيل عليه، على سبيل الإقطاع، وأخذ منه معظم أموالها.
وتسلم السلطان البترون،
وجميع ما بتلك الخط من الحصون والمعاقل. ثم عاد السلطان بعد النصر الى دمشق، وكان

من خبره ما نذكره، إن شاء الله تعالى في حوادث السنين.
أخبار طرابلس الشام، منذ فتحها المسلمون في خلافة عثمان الى وقتنا هذا
وإنما ذكرناه في هذا الموضع ملخصاً مختصراً، لتكون أخبارها مجتمعة، فنقول وبالله
التوفيق:
كان ابتداء فتح طرابلس، أنه لما استخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأقر معاوية
بن أبي سفيان على الشام، وجه معاوية الى طرابلس سفيان بن نجيب الأزدي، وكانت إذ
ذاك ثلاث مدن مجتمعة، فبنى في مرج على أميال منها حصناً، سمي بحصن سفيان. وقطع
الميرة عن أهل طرابلس، وحاصرها. فلما اشتد الحصار على أهلها، اجتمعوا في أحد
الحصون الثلاثة، وكتبوا الى ملك الروم، يسألونه أن يمدهم، أو يبعث إليهم بمراكب ينهزمون
فيها. فسير إليهم مراكب كثيرة، فركبوها ليلاً وهربوا. فلما أصبح سفيان، وتقدم لقتالهم
على عادته، وجد الحصن خالياً، فملكه، وكتب الى معاوية بالفتح. فأسكنه معاوية جماعة
كثيرة من اليهود، وهو الحصن الذي فيه المينا ثم بناه عبد الملك بن مروان وحصنه.
وكان معاوية يوجه في كل سنة جماعة من الجند، يشحنها بهم، ويوليها نائباً. فإذا غلق
البحر، عاد الجند وبقي النائب في جماعة يسيرة. فما برح أمرها كذلك، حتى ولى عبد
الملك بن مروان. فقدم بطريق في بطارقة الروم، ومعه خلق كثير. فسأل أن يعطى الأمان،
على أن يقيم بها، ويؤدي الخراج، فأجيب الى ذلك. فلم يلبث غير سنتين أو أكثر بأشهر،
عند عود الجند منها، حتى أغلق بابها، وأسر من بقي بها من الجند، وعدة من اليهود،
وتوجه هو وأصحابه الى بلاد الروم. فقدر الله، عز وجل أن ظفر به المسلمون بعد ذلك، في
البحر وهو متوجه في مراكب كثيرة، فأسر وأحضر الى عبد الملك، فقتله وصلبه. وقد قيل
إنه إنما كان تغلبه عليها، وقتل من بها، بعد وفاة عبد الملك. ثم فتحها الوليد بن عبد
الملك.
ولم يزل في طرابلس نواب الخلفاء، مدة أيام بني أمية، وأيام بني العباس، الى أن استولى

العبيديون ملوك مصر على دمشق، على ما قدمنا ذكر ذلك في أخبارهم. فأفردوا طرابلس
عن دمشق، وكانت قبل ذلك مضافة إليها. وولوا عليها من جهتهم ريان الخادم، ثم سند
الدولة ثم أبا السعادة، ثم علي بن عبد الرحمن بن حيدرة، ثم نزال، ثم مختار الدولة بن
نزال. ثم تغلّب عليها قاضيها أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار. ولم يزل بها الى أن
توفي، في سنة أربع وستين وأربعمائة. وكان ابن عمار هذا، رجلاً عاقلاً، سديد الرأي،
وكان شيعياً، من فقهائهم. وكانت له دار علم بطرابلس، فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب
وقفا. وهو الذي صنّف كتاب ترويج الأرواح ومصباح المرور والأفراح، المنعوت بجراب
الدولة. ولما مات أمين الدولة، كان بطرابلس، سديد الملك بن منقذ، هرب من محمود بن
صالح. فساعد جلال الملك أبا الحسن علي بن محمد بن عمار وعضده بمماليكه، وبمن
كان معه من أصحابه. فأخرجوا أخا أمين الدولة من طرابلس، وولى جلال الملك. فلم يزل
متولياً عليها، حتى مات في سلخ شعبان، سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وملكها بعده أخوه
فخر الملك عمار بن محمد بن عمار، واستقر بها، الى أن نازلها صنجيل، واسمه ميمنت
وهو ميمون. وصنجيل اسم مدينة نسب إليها. فنزل صنجيل بجموعه على طرابلس، في
شهر رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وحاصرها وضايقها، وابتنى عليها حصناً،
يقاتل أهلها منه، ويعرف به الى وقتنا هذا.
فبعث فخر الملك الهدايا والتحف الى الملوك واستنجدهم واستنصرهم، فلم ينجده أحد
منهم. فلما أيس منهم بذل لصنجيل في رحيله عنه أموالاً، وبعث إليه ميرة، فلم يجبه الى
ذلك. فلما ضاق ذرعاً بالحصار، وعجز عن دفعه، خرج من طرابلس، بعد أن استناب
بها ابن عمه، أبا المناقب، ورتب معه سعد الدولة فتيان ابن الأغر. وأنفق في العسكر ستة
شهور. وصار يقصد السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي. فجلس أبو المناقب في بعض
الأيام، وعنده وجوه طرابلس وأكابرها، فخلط في كلامه، فنهاه سعد الدولة بلطف فجرد

سيفه، وضرب سعد الدولة فقتله. وانهزم من كان في المجلس. وقام أبو المناقب، وصعد
على السور، وصفق بإبطيه، فأمسكه أهل البلد وحبسوه، ونادوا بشعار الأفضل أمير
الجيوش، شريك الخليفة الفاطمي صاحب مصر، وذلك في شهر رمضان سنة خمسمائة.
ثم مات صنجيل في ثامن وعشرين رمضان، وتولى مكانه مقدم اسمه السرداني. ولما نادى
أهل طرابلس بشعار الأفضل، وبلغه ذلك حضر إليهم جيشاً في البحر، وقدم عليهم تاج
العجم. فلما وصل الى طرابلس، أخذ جميع الأموال، وما يحفظ به البلد. وبلغ الأفضل أنه
يقصد العصيان بطرابلس. فقبض على ما كان حصّله، وولى بدر الدولة ابن أبي الطيب
الدمشقي. فوصل الى طرابلس، وكان أهلها قد ضاقت صدورهم، من طول الحصار. ثم
رأوا من خلفه، ما رغبهم عنه، ونفرهم منه، فعزموا على طرده. ثم رأوا إبقاءه، لأنهم لا
ملجأ لهم إلا من جهة المصريين.
ثم وصلت مراكب من مصر بالغلات والرجال، فقرر المذكور مع مقدم الأسطول، القبض
على أعيان البلد، وأصحاب فخر الملك بن عمار وحريمه. فأخذهم وسيّرهم في البحر الى
مصر. وبعث معهم ما كان في طرابلس من السلاح والذخائر ما لم يكن عند أحد من
الملوك مثله. وبعث مائة ألف دينار عيناً. فلما وصلوا الى مصر، اعتقل الأفضل أهل بني
عمار.
وأما فخر الملك بن عمار، فإنه وصل الى بغداد، واجتمع بالسلطان محمود. وأقام ببغداد،
فما تهيأ له منه ما طلبه، وبلغه رجوع أمر طرابلس الى المصريين، وأن حريمه وأمواله
وذخائره وسلاحه نقل الى مصر. فرجع الى دمشق، فدخلها في نصف المحرم، سنة اثنتين
وخمسمائة، فأكرمه أتابك طغتكين صاحب دمشق. فسأله أن يعينه على الدخول الى
جبله، فسير معه عسكراً فدخلها.
وأما الفرنج، فإنهم لازموا الحصار، وضايقوا البلد حتى ملكوه، وقتلوا وأسروا ونهبوا
وسبوا، وذلك يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة. وقد تقدم أن أخذها

كان في يوم الإثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثلاث وخمسمائة، والله
أعلم.
وحكي أن السبب في أخذ طرابلس، أنه لما ضايقها الفرنج، كتب من بها الى الديار
المصرية، يستنجدون الخليفة، ويسألونه الميرة، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة.
فبينما هم في ذلك، إذا بمركب قد أقبل، فما شكوا أن فيه نجدة. فطلع منه رسول، وقال
قد بلغ الخليفة، أن بطرابلس جارية حسنة الصورة، وأنها تصلح للخدمة. وقد أمرنا
بإرسالها إليه، وأرسلوا إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهي. فعند ذلك
آيسوا من نصره، وضعفت قواهم، وخارت نفوسهم وذلوا، وملكها الفرنج في التاريخ
المذكور. وكانت مدة الحصار سبع سنين وأربعة أشهر.
ولما ملكها السرداني، تحكم فيه واستقل بملكها. فبينما هو كذلك، وإذا بمركب قد وصل
إليها، وفيه صبي ادعى أنه ولد الملك صنجيل، واسمه تبران، ومعه مشايخ من أصحاب
والده، يخدمونه ويدبرون أمره. فطلعوا الى السرداني، وقالوا له هذا ولد صنجيل، وهو يريد
تسليم مدينة والده التي فتحها عسكره. فأنكر السرداني ذلك، وقام ورفس الصبي
وأخرجه. فأخذه أصحابه، وجعلوا يطوفون به على الفرسان، فرحموه، وتذكروا أيمانهم
لأبيه، وقالوا: إذا كان نهار الغد، ونحن عنده، فاحضروا وتحدثوا معه، ففعلوا. وتحدث
الصبي ابن صنجيل، فصاح به السرداني، فقام الفرسان كلهم على السرداني، وأخرجوه من
المملكة، وسلموها الى الصبي ابن صنجيل. فأقام ملكاً حتى قتله بزواج، وذلك في يوم
الأحد، لأربع خلون من شهر رجب، سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة. وقتل أكثر أصحابه،
وأسر بطرس الأعور. واستخلف في طرابلس ولد القومص بدران، فأسره أتابك زنكي، لما
كان في صحبة متملك القدس فلك بن فلك. وذلك بالقرب من قلعة بعرين، فطلع الملك
وجماعة معه الى قلعة بعرين، فحاصرهم زنكي وضايقهم، فصالحه الملك على تسليم حصن
بعرين، واستخلص القومص صاحب طرابلس وجميع الأسرى. وعاد القومص الى طرابلس،

وأقام حتى وثب عليه الإسماعيلية، فقتلوه. فتولى بعده ريمند، وهو صبي، وحضر الحرب
مع الفرنج على حارم. فكسرهم الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بن زنكي، وقتل
منهم مقتلة عظيمة وأسر. وكان من أسر، القومص ريمند، وذلك في سنة تسع وخمسين
وخمسمائة، وبقي في اعتقاله الى أن ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.
فأعتقه في تاسع عشري شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة. وبقي المُلك بيده، ويد
أولاده من بعده، الى أن فتحت هذا الفتح المبارك سنة ثمان وثمانين وستمائة في الأيام
المنصورية وهدمت المدينة.
واستقر العسكر على عادته بحصن الأكراد والنائب عن السلطنة الأمير سيف الدين بلبا
الطباخي المنصوري، وكان اليزك ينزل الى طرابلس، من حصن الأكراد. ثم عمّر المسلمون
مدينة مجاورة للنهر. واختلفوا بها، وعمّروا فيها حمامات وقياسر ومساجد ومدارس
للعلم. وأجريت المياه في دورها بقساطل وعمرت دار السلطنة، ينزلها نائب السلطنة
بالمملكة، وهي عالية مشرفة على المدينة.
واستمر الأمير سيف الدين الطباخي في النيابة، الى أن نقل الى حلب، في الدولة الأشرفية،
في سنة إحدى وتسعين وستمائة. وولاها السلطان الأمير سيف الدين طغربل الإيغاني،
فأقام أياماً، واستعفى فأعفاه السلطان الملك الأشرف. ورتب في النيابة، الأمير عز الدين
أيبك الخزندار المنصوري، فبقي في النيابة الى الأيام العادلية الزينية كتبغا المنصوري، فعزل
عنها في سنة أربع وتسعين وستمائة. ودفن بتربته التي أنشأها، وهي بجوار حمامه بطرابلس
وفوّضت النيابة بها بعده الى الأمير سيف الدين كرت الحاجب، فلم تطل أيامه الى أن كان
من دخول التتار البلاد، ما نذكره إن شاء الله تعالى، في أخبار الدولة الناصرية، فشهد
الوقعة وعدم، وربما استشهد رحمه الله تعالى. ثم فوضت النيابة بعد خروج التتار من
الشام، الى الأمير سيف الدين قطلبك المنصوري، فتوجه إليها، وأقام بها، الى سنة
سبعمائة. واستعفي من النيابة فأعفي، واستقر في جملة الأمراء بدمشق.

وفوضت نيابة السلطنة الى الأمير سيف الدين استدمر كرجي المنصوري، فاستمر بها الى
سنة تسع وسبعمائة. وعمّر بها حماماً عظيماً، أجمع التجار ومن يجوب البلاد، أنه ما عمّر
مثله في بلد من البلدان، وعمر قيسارية وطاحوناً. وأنشأ مماليكه بها مساكن حسنة البناء،
تجري إليها المياه بالقنوات، وتجري في طباقها، وعمّر أيضاً بعض القلعة، وأقام أبراجاً.
وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس. وتمكن استدمر تمكّناً كثيراً، وتأمّر عدة من
مماليكه، ثم نقل الى حماه.
وفوض السلطان الملك الناصر نيابة المملكة الطرابلسية وما معها الى الأمير سيف الدين
الحاج بهادر الحاجب، كان المعروف بالحلبي فأقام بها الى أن توفي في ثامن عشر شهر ربيع
الأول سنة عشر وسبعمائة. وفوضت النيابة بها الى الأمير جمال الدين أقش الأفرم، فأقام
بها الى مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وفارقها، وتوجه الى بلاد التتار، على ما
تذكر ذلك، إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الناصرية.
وفوضت النيابة بعده الى الأمير سيف الدين كستاي الناصري، فأقام بها، الى أن توفي في
شهر رجب سنة ست عشرة وسبعمائة. وفوضت النيابة بعده الى الأمير شهاب الدين
قرطاي الصالحي، وهو النائب بها الآن، الى حين وضعنا لهذا الجزء، وذلك في سلخ شهر
رجب، سنة خمس وعشرين وسبعمائة. وسنذكر إن شاء الله تعالى، أخبار هؤلاء النواب
في موضعها من هذا الكتاب على ما سنقف عليه. وإنما أوردناها في هذا الموضع، لتكون
أخبار طرابلس سياقة، وإن كان على سبيل الإجمال والاختصار. ولنرجع الى سياقة
أخبار الدولة المنصورية.
ما اتفق في الدولة المنصورية على حكم السنين
خلاف ما ذكرناه من إقامة النواب، ومهادنة الفرنج، والحوادث الغريبة، التي يتعين إيرادها
والوفيات
سنة ثمان وسبعين وستمائة
قد قدمنا بعض حوادث هذه السنة، في ابتداء الدولة المنصورية، وبقي منها تتمة نذكرها
في هذا الموضع.

في هذه السنة فوض السلطان الملك المنصور نيابة السلطنة، بحصن الأكراد، وما معه من
الفتوحات، لمملوكه الأمير سيف الدين بلبان الطباخي.
وفيها، في ذي القعدة، فوض نظر الدواوين بدمشق، للصدر جمال الدين ابراهيم بن
صصري، وذلك بعد وفاة الناظر بها، القاضي علم الدين محمد بن العادلي. وكانت وفاته في
يوم الأربعاء خامس عشرين شوال. وتوفي أيضاً قبله، أخوه القاضي تاج الدين ناظر حلب،
بها في حادي عشرين شهر رمضان.
وفي هذه السنة، توفي الأمير بدر الدين محمد ابن الأمير حسام الدين بركة خان الخوارزمي،
خال الملك السعيد. وكانت وفاته بدمشق، في تاسع شهر ربيع الأول. وصلى عليه الملك
السعيد، بسوق الخيل، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.
وفيها، لما كان العسكر ببلاد سيس، في الأيام السعيدية، توفي جماعة من الأمراء، أصحاب
الطبخانات، منهم سيف الدين البطاح، وعلم الدين بلبان المشرفي، وناصر الدين بلبان
النوفلي، وسيف الدين جمق، وسيف الدين فلاحا الركني، وجمال الدين أقش الشهابي
وغيرهم، رحمهم الله تعالى.
وفيها، في يوم الأحد، ثامن شوال، توفي شيخ الشيوخ شرف الدين أبو بكر عبد الله ابن
شيخ الشيوخ تاج الدين، أبي محمد عبد السلام، ابن شيخ الشيوخ عماد الدين عمر بن علي
بن محمد حمويه بدمشق، ودفن بقاسيون، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة تسع وسبعين وستمائة
في هذه السنة، في يوم الإثنين خامس المحرم، توفي الأمير جمال الدين أقش الشمسي، نائب
السلطنة بالمملكة الحلبية. وهو خوشداش الأمير بدر الدين بيسري، كلاهما كان مملوك
الأمير شمس الدين سراسنقر الكاملي. ففوض بعد وفاته، نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية،
للأمير علم الدين سنجر الباشقردي.
وفي هذه السنة، كان من خبر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وانهزامه من دمشق،
وتوجهه الى صهيون ما قدمناه. وكان بدمشق بعد مفارقته لها، أمور نذكرها في هذا
الموضع.
ما تجدد بدمشق، بعد أن فارقها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر

لما انهزم الأمير شمس الدين، المشار إليه، كما تقدم، دخل العسكر المصري الى دمشق.
ونزل الأمير علم الدين سنجر الحلبي بالقصر الأبلق، بالميدان الأخضر. وكان هو المشار إليه
في الولاية والعزل، والعطاء والمنع وغير ذلك. فرسم بإيقاع الحوطة على مجد الدين اسماعيل
بن كسيرات، وزير سنقر الأشقر، وجمال الدين بن صصري ناظر الدواوين بدمشق، وأخذ
خطوطهما بجملة. ورسم على قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان. وضرب زين
الدين وكيل بيت المال، ومحيي الدين بن النحاس. ثم ورد بعد ذلك كتاب السلطان بأمان
أهل دمشق.
تفويض نيابة السلطنة بالشام للأمير حسام الدين لاجين وشدّ الدواوين للأمير بدر الدين بكتوت العلائي، والوزارة للصاحب تقي الدين توبة التكريتي
كان الأمير بدر الدين بكتوت العلائي، قد وصل الى دمشق، في جملة الجيش المجرد إليها،
لدفع سنقر الأشقر عنها، صحبة الأمير علم الدين الحلبي. فلما استقر أمر دمشق
للسلطان، تحدث في نيابة السلطنة بدمشق. واستند في ذلك، الى أن السلطان الملك
المصور، لما جرده رسم له بها مشافهة. إلا أنه كان في نيابته يلزم الأدب مع الأمير علم الدين
الحلبي. واستمر الأمر على ذلك، الى حادي شهر ربيع الأول من هذه السنة. فلما كان في
هذا اليوم، ورد من الباب السلطاني، سبعة نفر على خيل البريد، ومعهم تقليد للأمير حسام
الدين لاجين الصغير المنصوري، بنيابة السلطنة بالشام، وتقليد للأمير بدر الدين بكتوت
العلائي، بشد الدواوين، وتقليد للصاحب تقي الدين توبة التكريتي بوزارة الشام، ولكل منهم
تشريف، وتشريف لصاحب حماه.
فلما كان في يوم الخميس، ثاني عشر الشهر، اجتمع سائر الأمراء بالميدان الأخضر. ولبس
الأمير حسام الدين لاجين تشريف النيابة، ولبس الأمير بدر الدين بكتوت تشريف الشد.
وركب الأمير علم الدين الحلبي، والأمير عز الدين الأفرم، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمري،
وسائر الأمراء والعساكر المصرية والشامية، وساقوا كلهم في خدمة الأمير حسام الدين.

فلما انتهوا الى باب سر القلعة، ترجلوا بأجمعهم، وقبّل الأمير حسام الدين عتبة باب السر،
ثلاث مرات. ثم تقدم الأمير علم الدين الحلبي، والأمير عز الدين الأفرم ليعضداه حتى
يركب، ويمشيان في خدمته، الى دار السعادة. فسلك سبيل الأدب معهما، وامتنع من
الركوب، واستمر ماشياً، والأمير علم الدين عن يمينه، والأمير عز الدين الأفرم عن يساره،
وبقية الأمراء والعساكر، بين يديه، وكذلك القضاة والأعيان والأكابر. ولم يزل ماشياً، الى أن
دخل دار السعادة، وجلس بها في رتبة النيابة، وقرئ تقليده. ثم خلع في هذا النهار، بعد
الظهر، على الصاحب تقي الدين توبة، وأعطى دواة الوزارة بالشام.
عزل قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان
عن القضاة بدمشق وإعادته، وما اتفق في هذه السنة الحادثة
كان السلطان الملك المنصور، قد رسم بشنق قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان لأنه
بلغه أنه أفتى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، بجواز قتال السلطان. فلما ورد كتاب
السلطان بأمان أهل دمشق، قرئ بحضور القاضي شمس الدين. فقال الأمير علم الدين
الحلبي: هذا كتاب أمان لمن سمعه، وقد سمعه القاضي، فهو آمن. ثم عزله في حادي عشر
صفر، وفوض القضاء لقاضي القضاة نجم الدين ابن قاضي القضاة صدر الدين سني
الدولة. وكان ابن خلكان بالمدرسة العادلية، فطالبه القاضي نجم الدين بإخلاء مسكنها
ليسكن فيه، وكرر عليه الطلب. وكان ابن سني الدولة، قد أرسل الى حلب، لإحضار
أهله. فاتفق وصولهم الى ظاهر دمشق، في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول.
فخرج لتلقيهم، ورسم على القاضي شمس الدين بن خلكان، الى أن ينتقل من المدرسة،
وضيق عليه، وبقي في شدة بسهب ذلك. وسئل ابن سني الدولة، أن يمهل عليه أياماً، الى
أن ينتقل الى مكان آخر، فامتنع وشدد في ذلك، وصمم عليه.
وبقي القاضي شمس الدين في الترسيم، الى الرابعة من النهار المذكور، وهو يجمع كتبه،
ويعبّي قماشه للنقلة، ونقل بعضه. فبينما هو كذلك، وإذا بجماعة من الجاندارية حضروا في

طلبه، فظن أن ذلك بسبب خلو المكان فأراهم أنه يهم في النقلة. فقالوا له، إنك لم تُطلب
لذلك، وإنما قد حضر بريدية من باب السلطان، فطلبت لذلك. وظن أن الطلب لأمر، هو
أشد من النقلة. وخاف، وتوجه الى نائب السلطنة. فإذا كتاب السلطان قد ورد، وهو
ينكر ولاية ابن سني الدولة القضاء وهو أطروش. ويقول نحن بيننا وبين القاضي شمس
الدين معرفة، من الأيام الصالحية. وسيّر إليه تقليداً بالقضاء على عادته. فرجع الى
المدرسة قاضياً واستقر بها. وعدّت هذه الواقعة من الفرج بعد الشدة. ويقال إن ابن سني
الدولة كان قد أعطى الحلبي على ولايته القضاء ألف دينار، والله أعلم.

إعادة الصاحب برهان الدين السنجاري الى الوزارة وعزله

وفي هذه السنة، في أواخر جمادى الآخرة، أعيد الصاحب برهان الدين الخضر السنجاري
الى الوزارة، وعزل الصاحب فخر الدين ابراهيم بن لقمان، فعاد الى ديوان الإنشاء. وكتب
من جملة الكتاب، وتصرف عن أمر صاحب الديوان. وولي الصاحب برهان الدين الوزارة،
واستمر الى أن عزل وقبض عليه، وعلى ولده وألزامه، في شهر ربيع الأول سنة ثمانين
وستمائة. واعتقل الى يوم عرفة من السنة، فأفرج عنه في اليوم المذكور ولزم داره.

وفيها، جرد السلطان، الأمير عز الدين أيبك الأفرم لحصار شيزر، وبها الأمير عز الدين
أيبك كرجي من قبل الأمير شمس الدين سنقر الأشقر. فبينما هو يحاصرها، وردت
الأخبار، أن التتار قد وصلوا على ثلاث فرق: فرقة من جهة الروم، ومقدمتم صمغار،
وتنجي، وطونجي، وفرقة من الشرق ومقدمتهم بيدو بن طوغاي بن هولاكو، وصحبته
صاحب ماردين، والفرقة الثالثة فيها معظم العسكر، شرة المغل صحبة منكوتمر بن
هولاكو. فرحل الأمير عز الدين عن شيزر، وكتب السلطان الى سنقر الأشقر يستميله،
وذلك قبل انتظام الصلح فجنح الى السلم، ونزل من صهيون، على عزم إنجاد المسلمين.
وجفل عسكر حلب وحماه وحمص. ولم يحصل قتال التتار هذه السنة.

تفويض السلطنة ولاية العهد للملك الصالح

علاء الدين علي ابن السلطان الملك المنصور
في هذه السنة، في شهر رجب، فوّض السلطان الملك المنصور ولاية عهده وكفالة السلطنة
لولده السلطان الملك الصالح علاء الدين أبي الفتح علي، وذلك عندما عزم على التوجه للقاء
التتار. وركب الملك الصالح بالقاهرة بشعار السلطنة، وخطب له على سائر المنابر بعد
والده. وكُتب تقليده بذلك، وهو من إنشاء المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر
وبخطه، أجاد فيه وأبلغ، تركنا إيراه اختصاراً.
وفيها، في شهر رمضان، عزل السلطان القاضي صدر الدين عمر ابن قاضي القضاة تاج
الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، عن القضاء بالديار المصرية. وكان قد سلك في ولايته،
طريق الخير والصلاح والصلابة، وتحرى الحق والعدل في أحكامه. ثم مات رحمه الله تعالى،
في عاشر المحرم سنة ثمانين وستمائة. ولما عزل، أعيد قاضي القضاة تقي الدين محمد بن
الحسين بن رزين الى القضاء بالديار المصرية.
توجه السلطان الى غزة، وعوده الى الديار المصرية
وفي هذه السنة، توجه السلطان الى الشام، وصحبته العساكر الإسلامية، لدفع التتار،
فوصل الى غزة. وكان التتار قد وصلوا الى عين تاب وبغراس والدربساك، وتقدموا الى
حلب، فوجدوها خالية، وقد جفل العسكر وأهلها منها، فأحرقوها وذلك في العشر
الأوسط من جمادى الآخرة. ولما بلغهم اهتمام السلطان وخروجه، تفرقوا الى مشاتيهم.
وعاد السلطان الى الديار المصرية، لاستحقاق الربيع.
وجود الأمير بدر الدين بكتاش النجمي الى حمص، والأمير علاء الدين أيدكين البندقدار
الصالحي، الى الساحل لحفظ البلاد من الفرنج.
وفيها، كتب الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، نائب السلطنة الشريفة بحصن الأكراد؛ الى
السلطان يستأذن في غزو الفرنج بالمرقب، لأنهم لما بلغهم قدوم التتار، قويت نفوسهم، وامتد
طمعهم. فأذن السلطان له في ذلك. فجمع جيوش الحصون، وأمر التركمان والرجالة،
واستصحب المجانيق وآلات الحصار. وتقدم الى حصن المرقب، ونزل بالقرب منه، فاختفى
أهله، ولم يتحركوا في مبدأ الحال. فقوي طمع العسكر فيهم، وتقدموا الى جانب الحصن،

فرشقهم الفرنج بالسهام والجروخ من أعلى الحصن، وسهام المسلمين لا تصل إليهم.
فاضطرب العسكر، وأمرهم الطباخي أن يتأخروا عن الحصن، فظنوها هزيمة وولوا، فما
أمكنه إلا أن يتبعهم. وخرج الفرنج في أعقابهم ونالوا من المسلمين، وجرحوا منهم جماعة،
ونهبوا وأسروا جماعة من الرجالة. وبلغ السلطان ذلك، فأنكره وكبر لديه، وعزم على
السفر.
توجه السلطان الى الشام
وفي سنة تسع وسبعين وستمائة أيضاً، عاد السلطان الى الشام. وكان خروجه من قلعة
الجبل، في مستهل ذي الحجة. ونزل بها ولده الملك الصالح، ورتب في خدمته الأمير علم
الدين سنجر الشجاعي، لاستخراج الأموال، وغير ذلك.
وفي هذه السنة، في ذي الحجة، وصل الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا من العراق، الى
خدمة السلطان. وعاود الطاعة، وسأل الصفح، عن ما فرط من ذنبه، من إعانة سنقر
الأشقر، وما كان عزم عليه من الانضمام الى التتار، وكان اجتماعه بالسلطان بمنزلة
الروحاء. ولما وصل الى الخدمة، ركب السلطان إليه، وتلقاه وأكرمه، وبالغ في إكرامه
وأحسن إليه.
وفيها، في يوم الأربعاء، وقت العصر، رابع عشر المحرم، توفي الشيخ نور الدين أبو الحسن
علي ابن الشيخ جلال الدين أبي العزائم همام ابن راجي الله سرابا بن أبي الفتوح ناصر بن
داود الشافعي، إمام الجامع الصالحي بظاهر القاهرة، خارج باب زويلة، ودفن من الغد
بسفح المقطم، رحمه الله تعالى. وولي الإمامة بالجامع الصالحي بعده، ولده الشيخ تاج الدين
أبو محمد عبد الله محمد.
وفيها، في يوم الثلاثاء، ثاني عشر شوال، توفي الأديب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد
العظيم بن يحيى بن محمد بن علي المصري، المعروف بالخرّاز الشاعر المشهور، مولده
بمصر، سنة إحدى وستمائة. سمع أبا الفضل أحمد بن محمد الحباب، وروى وسمع من
غيره. وكان أديباً فاضلاً، جيد البديهة حلو المجون، حسن المحاضرة، كثير النادرة، رحمه
الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير سيف الدين أبو بكر، المعروف بابن اسباسلار، متولي مصر. وكان قد
سمن، وأفرط به السمن، حتى منعه الأطباء من الرقاد على فرش وطيء، ومن النوم إلا
إغفاء، وقالوا إنه متى استغرق في النوم مات. فكان كذلك الى أن مات. وكانت وفاته في
شهر ربيع الآخر، ودفن بتربته بالقرافة. وله في ولايته بمصر أخبار كثيرة مشهورة من
المصريين، سامحه الله تعالى.
وفيها، توفي الأمير نور الدين علي بن عمر الطوري. كان من أبطال المسلمين وشجعانهم
وفرسانهم. وله صيت عظيم عند الفرنج، ومعرفة بالبلاد الساحلية ومرابطة وآثار جميلة،
ومواقف محمودة. وكان ممن جمع الله له، بين قوة البدن والقلب. كان يقاتل بلتّ حديد، لا
يستطيع الشباب حمله، ولازم المرابطة ببلاد الساحل، في وجه العدو سنين كثيرة. وكان
كريماً ديّناً، وتنقل في الولايات بالشام. وكان محترماً في الدول، مكرماً عند الملوك، يعرفون
قدره، وحضر المصاف الكائن بين عسكر مصر وسنقر الأشقر، فجرح ووقع تحت حوافر
الخيل. ومات في أواخر صفر أو أوائل شهر ربيع الأول، بجبل الصالحية وقد ناف على
تسعين سنة، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثمانين وستمائة
ما تقرر من المهادنات مع الفرنج وبيت الاسبتار
في هذه السنة، وصل الى السلطان، وهو بمنزلة الروحاء، رسل الفرنج يسألون تقرير الهدنة،
والزيادة على الهدنة الظاهرية. ومازالوا يترددون الى أن تقررت الهدنة، بين السلطان وولده
معاً، ومع مقدم بيت الاسبتار، وجميع الإخوة الاسبتارية، بعكا، لمدة عشر سنين كوامل
متتابعات، وعشرة شهور، وعشرة أيام، وعشر ساعات، أول ذلك يوم السبت ثاني عشر
المحرم سنة ثمانين وستمائة، الموافق للثالث من شهر أيار، سنة ألف وخمسمائة واثنتين
وتسعين للإسكندر بن فيلهس اليوناني، وذلك على جميع بلاد السلطان، وما اشتملت عليه
من الأقاليم والمماللك والقلاع والحصون، والمدن والبلاد والقرى، والمزارع والأراضي،
والمواني والبحور، والمراسي والثغور، وسائر البلاد من الفرات الى النوبة، وعلى التجار

المسافرين في البر والبحر، والسهل والجبل، في الليل والنهار، وعلى قلعة المرقب، والربض
المرقبي بحقوقه وحدوده.
وتقررت الهدنة مع متملك طرابلس، بيمند بن بيمند، لمدة عشر سنين كوامل متواليات،
أولها يوم السبت السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمانين وستمائة، الموافق للخامس
من تموز سنة ألف وخمسمائة واثنتين وتسعين، للإسكندر. وذلك على بلاد السلطان الملك
المنصور والملك الصالح ولده، قريبها وبعيدها، سهلها وجبلها، غورها ونجدها، قديمها
ومستجدها، وما هو مجاور لطرابلس ومحادد لها، من المملكة البعلبكية، وجبالها وقراها
الدخيلة والجبلية، وجبال الضنيين والقصبين، وما هو من حقوق ذلك، وعلى الفتوحات
المستجدة: وهي حصن الأكراد وافليس والقليعات وصافيتا، وميعار، واطليعا، وحصن
عكار ومرقية، ومدينتها وبلادها، ومناصفاتها، وهي بلاد اللكمة، وجميع بلاد هذه الجهات
التي ذكرناها، ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الاسبتار وبلده ومدينته،
وما هو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى، وبلاد الست وبلاطنس وبلادها،
وقرقص وبلادها، وجبلة ولاذقية وأنطاكية والسويدية وبلاد ذلك، وحصن بغراس، وحصن
ديركوش وصهيون وبرزية، وحصون الدعوة، وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية، وما
سيفتحه الله تعالى، على يد السلطان ويد ولده، وعلى المواني والسواحل والأبراج وغير
ذلك؛ وعلى بلاد الإبرنس، وعلى طرابلس وما هو داخل فيها، وأنفه والبترون وجبيل وبلاد
ذلك، وعرقا وبلادها وبلادها المعينة في الهدنة، وعدتها إحدى وخمسون ناحية، وما هو
للخيالة والكنائس وعدتها أحد وعشرون بلداً، وما هو للفارس روجار دلا لولاي، من قبلي
طرابلس، يكون مناصفة، وعلى أن يستقر برج اللاذقية وميناؤها في استخراج الحقوق
والجنايات والغلات وغيرها مناصفة. ويستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة
الظاهرية، وعلى أن يكون على جسر أرتوسية، من غلمان السلطان ليحفظ الحقوق، ستة

عشر نفراً وهم: المشد والشاهد والكاتب وثلاثة غلمان لهم، وعشرة رجّالة في خدمة
المشد، ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنونها، ولا يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس، وإنما
يمنعون ما يجب منعه من الممنوعات، ولا يمنعون ما يكون من عرقا، من الغلات الصيفية
والشتوية وغيرها، لا يعارضهم المشد فيه. وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان، يؤخذ
عليه الحقوق. ولا يدخل الى طرابلس غلة محمية للإبرنس ولا غيره، إلا ويؤخذ الموجب
عليها؛ وعلى أن البرنس لا يستجد خارج ما وقعت الهدنة عليه، بناء يدفع ولا يمنع،
وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد، التي وقعت الهدنة عليها،
وعلى الشواني من الجهتين أن تكون آمنة، كل طائفة من الأخرى. ولا ينقض ذلك بموت
أحدهما. ولا بتغييره، وأن لا يُحسّن لأحد من أعداء مولانا السلطان، ولا يتفق عليه، برمز
ولا خط، ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة. وتقررت الحال على ذلك وعادت الرسل،
وتوجه الأمير فخر الدين أياز الحاجب ليحل الفرنج ومقدم بيت الاستبار. على ما انعقد
عليه الصلح، فحلفهم.
حادثة الأمير سيف الدين كوندك ومن معه، والقبض عليه
وفي هذه السنة، بلغ السلطان وهو بمنزلة الروحاء، أن الأمير سيف الدين كوندك وجماعة
من الأمراء الظاهرية، قد توافقوا على الغدر به. ووصلت الى السلطان كتب المناصحين من
عكا يقولون له احترز على نفسك، فإن عندك جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتلك،
وكاتبوا الفرنج، وقالوا لهم لا تصالحوا فالأمر لا يبطئ. وعزم كونداك ومن معه، أن يهجموا
بالليل على السلطان في الدهليز ويغتالونه. ووافقهم جماعة من الظاهرية الجوانية. فاحترز
السلطان ورحل من الروحاء. وتقدم وتلاطف الأمر، حتى اجتمع الأمراء عنده بحمرة
بيسان، فوبخ كوندك ومن معه، وذكر لهم ما اعتمدوه من مكاتبة الفرنج فاعترفوا بذلك،
وقرّوا به. وسألوه العفو. فأمر السلطان بالقبض عليهم، فقبض على كوندك وايدعمش
الحكيمي وبيبرس الرشيدي، وساطلمش السلاح دار الظاهري في الدهليز، وأمر السلطان

بإعدامهم. وسير الى الخيام فأمسك من كان قد وافقهم من الأمراء البرانيين والمماليك
الجوانية، وكانوا ثلاثة وثلاثين نفراً، وخاف جماعة فهربوا، فساق العسكر خلفهم. فأحضر
بعضهم من جبال بعلبك، وبعضهم من ناحية صرخد.
وفيها، هرب الأمير سيف الدين أينمش السعدي. وسيف الدين بلبان الهاروني، وجماعة
من البحرية الظاهرية. والتتار الوافدية، يقال كانوا نحو ثلثمائة فارس. وتوجهوا الى صهيون،
ولحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وذلك قبل انتظام الصلح الذي قدمناه. وجرد
السلطان خلفهم، الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، والأمير ركن الدين بيبرس طقصوا
وجماعتهم فلم يدركوهم.
ورحل السلطان الى دمشق، وكان وصوله إليها في يوم السبت العشرين من المحرم، وهو أول
دخوله إليها. وكان من انتظام الصلح بين السلطان والأمير شمس الدين سنقر الأشقر والملك
المسعود ما قدمناه. وكانت الوقعة مع التتار على حمص، وقد تقدم ذكرها في الغزوات.
وفي هذه السنة، في يوم الإثنين الثامن والعشرين من المحرم، والسلطان بدمشق، فوّض
السلطان قضاء القضاة بدمشق، على مذهب الإمام الشافعي، لقاضي القضاة عز الدين بن
الصائغ، وعزل القاضي شمس الدين أحمد ابن خلكان. وفوّض أيضاً قضاء الحنابلة بدمشق
للقاضي نجم الدين أحمد الشيخ شمس الدين عبد الرحمن الحنبلي. وكان القضاء على
مذهب أحمد، وقد شغر، منذ عزل الشيخ شمس الدين نفسه من القضاء، وتوجه الى
الحجاز، في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ففوضه السلطان الآن لولده المذكور، بإشارة والده
وخلع على القاضيين، واشترط القاضي عز الدين شروطاً، أجيب إليها.
وفيها، في العشر الأوسط من شهر ربيع الأول، دارت الجهة المفردة بدمشق وأعمالها
وضمنت. فقيل إنها ضمنت في كل سنة بسبعمائة ألف درهم. ثم تزايد فيها الضمان
حتى بلغت ألفي ألف درهم في كل سنة. فلما كان في يوم الأحد، الخامس والعشرين من
الشهر، خرج مرسوم السلطان بإراقة الخمور وإبطال هذه الجهة الخبيثة فبطل ذلك ولله

الحمد.
وفيها، في شعبان، فوض السلطان شاد الدواوين بالشام، للأمير علم الدين سنجر
الدواداري وفوض نظر النظار للقاضي تاج الدين عبد الرحمن بن الشيرازي.
وفي هذه السنة، وصلت رسل الملك المظفر يوسف بن عمر، صاحب اليمن الى السلطان
بالهدايا والتحف. وكان من جملة سؤال صاحب اليمن أن يرسل السلطان إليه قميص
أمان، ويكتب عليه هو وابنه الملك الصالح، فأجابه السلطان الى ذلك. وجهّز له هدايا
وتحفاً وقطعة زمرد وخيلاً من خيل التتار الأكاديش، وشيئاً من عددهم.
وفيها، في شهر رمضان، قبض الملك على الأمير ركن الدين أياجي الحاجب. وفي ذي
القعدة، قبض على الأمير سيف الدين أيتمش السعدي، وجماعة من الأمراء، وقبض
بدمشق على الأمير سيف الدين بلبان الهاروني، وسنقر الكردي وغيرهم. وكان أيتمش
والهاروني، قد عادا الى الخدمة من جهة سنقر الأشقر بعد المصاف، كما تقدم ذكر ذلك.
وفيها، رسم السلطان بإبطال زكاة الدولبة، والزكاوات المقررة بالديار المصرية. وكان الناس
يجدون مشقة كبيرة لذلك، لأن المال كان ينفد والزكاة باقية، وإذا مات الرجل طولب ورثته
بالزكاة المقررة عليه.
وفاة قاضي القضاة تقي الدين رزين، وولاية القاضي وجيه الدين
واستعفائه من قضاء القاهرة، وولاية القاضي شهاب الدين الخويي
وفي هذه السنة، في ليلة الأحد ثالث شهر رجب، كانت وفاة قاضي القضاة، تقي الدين أبي
عبد الله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى بن عيسى، ابن موسى بن نصر الله بن هبة
الله العامري الشافعي، ودفن بالقرافة. ومولده في يوم الثلاثاء، ثالث شعبان سنة ثلاث
وستمائة بحماه، رحمه الله تعالى. وفضائله وعلومه مشهورة، وسماعاته عالية. ولما مات،
فوّض السلطان قضاء القضاة بالديار المصرية، للقاضي وجيه الدين عبد الوهاب بن حسين
البهنسي المهلبي، في سلخ شعبان، فولي ذلك الى آخر جمادى الآخرة، سنة إحدى وثمانين

وستمائة. ثم استفي من قضاء القاهرة والوجه البحري، وذكر أنه يضعف عن الجمع بين
قضاء المدينتين والوجهين. فأعفي من قضاء القاهرة والوجه البحري، وفوض السلطان ذلك
الى القاضي شهاب الدين الخويي، وكان يلي قضاء الغربية. فنقل الى قضاء القضاة بالقاهرة
والوجه البحري، واستمر الى أن نقل الى الشام، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.
وفيها، توفي قاضي القضاة، نفيس الدين أبو البركات محمد، ابن القاضي المخلص، ضياء
الدين هبة الله ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر المالكي، قاضي قضاة
المالكية بالديار المصرية، في يوم الجمعة مستهل ذي الحجة، ومولده في سنة خمس وستمائة،
وولى القضاء من بعده للقاضي تقي الدين أبي علي الحسين، في سنة تسع وستين وستمائة.
ولما مات، فوّض السلطان القضاء بعده، للقاضي تقي الدين أبي علي الحسين ابن الفقيه
شرف الدين أبي الفضائل عبد الرحيم ابن الفقيه الإمام مفتي الفرق جلال الدين أبي محمد
عبد الله ابن شاس الجذامي السعدي المالكي.
وفيها، توفي قاضي القضاة نجم الدين أبو بكر محمد ابن قاضي القضاة صدر الدين أبو
العباس أحمد ابن قاضي القضاة شمس الدين أبي البركات يحيى ابن هبة الله، المعروف بابن
سني الدولة. وكان وفاته بدمشق، في ثامن المحرم، ودفن بتربة جده، بقاسيون، رحمه الله.
وفيها، في ثالث عشر شهر ربيع الآخر، توفي الشيخ الصالح مجد الدين عبد العزيز ابن
الحسين بن ابراهيم الخيلي الداري بدمشق، ودفن بقاسيون. وهو والد الصاحب الوزير
فخر الدين عمر الخليلي.
وفيها، في سحر يوم الجمعة، ثامن ذي الحجة، توفي الشيخ الإمام، بقية العلماء، علم الدين
أبو الحسن محمد ابن الإمام أبي علي الحسين بن عتيق بن عبد الله بن رشيق الربعي
المالكي الفقيه، شيخ مشايخنا. ودفن بالقرافة، وكانت جنازته مشهودة. ومولده يوم الأحد،
العشرين من شهر رجب، سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمصر، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي الأمير بهاء الدين ابن الأمير حسام الدين بيجار، وكان من أعيان الأمراء

وأكابرهم. وكان وفاته بغزة، وهو منصرف الى الديار المصرية في رابع عشر شعبان، وهو
في عشر السبعين تقريباً، ووالده الأمير حسام الدين البايبرتي باق، وقد كف بصره.
وفيها، توفي الأمير شمس الدين سنقر الألفي. وهو الذي ولي نيابة السلطنة بالديار المصرية،
بعد الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني كما تقدم. وكانت وفاته في معتقله بثغر
الاسكندرية، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي الأمير نور الدين أحمد، ويدعى رباله، ابن الملك الظاهر على ابن الملك العزيز
محمد، ابن الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف
بن أيوب. وأمه زوجة الأمير بدر الدين بيسري الشمسي المعروفة، بوجه القمر. وكانت
وفاته بالقاهرة، في شوال، وكان عمره يومئذ ستاً وعشرين سنة. وكان بديع الحسن، تام
الخلقة، عنده شجاعة وكرم وسكون، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي موفق الدين خضر بن محاسن الرحبي، النائب بالرحبة. وكان بعد من رجال
الدهر شجاعة وإقداماً وحزماً، وتدبيراً ومكراً، وحيلاً ومداراة وسياسة. وكان في بدايته
جمّاساً بالرحبة، لإنسان من أهلها، فمات، فتزوج بامرأته، وحاز موجوده، فصلحت حاله.
وخدم من جملة قراغلامية الرحبة لما كانت الرحبة للملك الأشرف، صاحب حمص.
وخدم النواب بالرحبة، وتنقلت به الأحوال، وتوفي الى أن ولي نيابة السلطنة بالرحبة.
وكانوا بعد ذلك يسمونه الموفق صاحب الرحبة. فلما كان في هذه السنة، حضر الى
دمشق، يتقاضى مواعيد كانت سبقت له من السلطان بالإمرة، فمات بدمشق، ودفن بمقابر
باب الصغير، وعمره نحو سبعين سنة، رحمه الله.
واستهلت سنة إحدى وثمانين وستمائة
تفويض نيابة السلطان بحلب للأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري
في هذه السنة، فوض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية، الى الأمير شمس الدين
قراسنقر الجوكندار المنصوري. فاستأذن السلطان في عمارة جامع مدينة حلب وقلعتها،
وكان التتار قد أخربوهما فأذن له في ذلك، فعمّرها أحسن ما كانا.

وفيها، في حادي شهر ربيع الآخر، فوض السلطان الوزارة للقاضي الصاحب نجم الدين
حمزة بن محمد الأصفوني، وكان قبل ذلك يلي نظر الدواوين. وكان في ابتداء ترقيه يلي
نصف مشارفة الأصل، بالأعمال القوصية. ثم ولي في الدولة الظاهرية، نظر الأعمال
القوصية، ثم وضع الى نظر الأعمال الأخميمية. ثم تنقل فولي نظر النظار بالديار المصرية، ثم
الوزارة. ولم تطل مدة وزارته، فإنه مات بعد سنة من يوم وزارته، رحمه الله تعالى.
وفوضت الوزارة بعده، للأمير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري.
وفيها، وفد الى خدمة السلطان، شخص من أولاد الأويراتية، يسمى الشيخ علي. كان قد
دخل في دين الإسلام، وخدم المشايخ، وعانى أسباب الرياضة والانقطاع. فظهرت له كرامة
من كرامات الفقراء، فتبعه جماعة من أولاد المغل. فخرج بهم من تلك البلاد الى الشام، ثم
الى الديار المصرية. ومثلوا بين يدي السلطان، فأحسن إليهم، منهم الأقوش وتمر وعمر،
ثلاثة إخوة، وجويان وجماعة، رتب السلطان بعضهم في جملة الخاصكية، وتنقلوا الى
الإمرة. ثم ظهر من الشيخ على أمور أنكرت عليه فسجن، ثم سجن الأقوش، ومات نمر
وعمر في الخدمة.
وفي هذه السنة، في صفر، قبض السلطان على الأمير بدر الدين بيسري الشمس، والأمير
علاء الدين كشنغدي الشمسي وغيرهما، واعتقلوا. واستمر الأمير بدر الدين بيسري في
الاعتقال الى الدولة الأشرفية، فأفرج عنه، على ما نذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.
وفيها، في يوم عرفة، قبض بدمشق على الأمير عز الدين أيبك كرجي، والأمير علم الدين
الروباسي، والأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير عز الدين أيدمر الظاهري. نائب السلطنة،
والده بدمشق كان، وعلي زين الدين ابن الشيخ عدي، واعتقلوا.
وفيها، في حادي عشرين شهر رمضان، احترق سوق اللبادين وسوق جيرون بدمشق، الى
حيطان الجامع. واتصل الحريق الى حمام الصحن، ودار الخشب. وكان ابتداء الحريق من
وقت المغرب، واستمر ثلاثة أيام، وركب بسببه نائب السلطنة وسائر الأمراء، والعسكر،

والحجارين والنجارين، حتى خرّبوا قدام النار فانقطعت.
واحترق سوق الكتبيين، فكان ما
احترق فيه لشمس الدين ابراهيم الجزري الكتبي، خمسة عشر ألف مجلد، غير الكراريس
والأوراق. وكان سبب هذا الحريق، أن بعض الذهبيين غسل ثوبه ونشره، وجعل تحته
مجمرة نار وتركها، وتوجه للفطور، فتعلقت النار بالثوب، واتصلت ببارية كانت معلقة، ومنها
الى السقف. وسلم أربعة دكاكين من ناحية درج اللبادين.
وصول رسل أحمد سلطان، وهو توكدار ابن هولاكو، ملك التتار
وفي هذه السنة، وصل رسل أحمد سلطان بن هولاكو، وهو الذي ملك بعد أبغا، وهم
قطب الدين محمود الشيرازي، قاضي سيواس، والأمير بهاء الدين أتابك السلطان مسعود
صاحب الروم، والصاحب شمس الدين محمد ابن الصاحب، وهو من أصحاب ماردين.
وعند ورود الخبر بوصولهم الى البيرة، أمر السلطان، الاحتراز عليهم، بحيث لا يشاهدهم
أحد. فساروا بهم في الليل، الى أن حضروا بين يدي السلطان. وأحضروا كتاباً من أحمد
سلطان، يتضمن أنه قد ملك التتار، وهو مسلم. وقد أمر ببناء المسجد والمدارس
والأوقاف، وأمر بتجهيز الحاج، الى غير ذلك من أنواع وجوه البر والقربات. وطلب اجتماع
الكلمة، وإخماد نار الفتن والحروب. وذكر أن أصحابه وجدوا جاسوساً في زي الفقراء
فمسكوه، وإن عادة مثله القتل. وجهزه الى الأبواب السلطانية. وقال إنه لا حاجة الى
الجواسيس ولا غيرهم، بعد الاتفاق واجتماع الكلمة، الى غير ذلك مما فيه استجلاب
خاطر السلطان. وظهرت رغبته في الصلح، وأنه كتب من واسط، في جمادى الأولى.
فأجابه السلطان جواباً حسناً، يتضمن تهنئته بالإسلام، وأجابه الى ما طلب من الصلح،
وأعاد رسله مكرمين. فوصلوا الى حلب في سادس شوال، وتوجهوا الى بلادهم.
وفيها، بنى السلطان ببنت سكتاي بن قراجين بن جنغان نوين. وكان سكتاي هذا، قد
ورد الى الديار المصرية، هو وقرمش، في سنة أربع وسبعين وستمائة، صحبة بيجار الرومي
الظاهرية. وهذه هي والدة السلطان الملك الناصر.

وفيها، تزوج الملك الصالح ابن السلطان الملك المنصور بمنكبك، ابنة الأمير سيف الدين
نوكية بن سان قطعان. وكان نوكيه إذ ذاك معتقلاً بثغر الاسكندرية. فرسم السلطان
بالإفراج عنه، وأحضره الى الأبواب العالية، وشمله الإنعام. وتقرر العقد على خمسة آلاف
دينار عيناً، قُدِّم منها ألفا دينار.
وفيها، استقرت الهدنة بين السلطان والمقدم افرير كليام ديباجوك، مقدم بيت الديوية بعكا
والساحل وديوية انطرطوس، لمدة عشر سنين، أولها خامس المحرم، سنة إحدى وثمانين
وستمائة.
الظفر بملك من ملوك الكرج وإمساكه
وفيها، بلغ السلطان الملك المنصور، أن ملكاً من ملوك الكرج، خرج من بلاده، لزيارة
القدس الشريف، ويعود خفية، واسمه توما سوطياس كلياري. ووضعت له صفته، ومعه
رفيق يسمى طيبغا بن انكوار، وأنهما ركبا المراكب من ساحل بوط، فحفظت عليه
الطرقات من كل جهة، فلم يصل الى موضع إلا وخبره وقد سبق الى السلطان. فلما وصل
الى القدس الشريف، أمسك هو وترجمانه، وأحضرا الى الديار المصرية، واعتقلا بها.
وفي هذه السنة، ولي القاضي بدر الدين محمد ابن الشيخ برهان الدين ابراهيم ابن جماعة
الكناني الشافعي، تدريس المدرسة القيمرية. وذكر الدرس بها، في تاسع عشر شوال.
وحضر دروسه القضاة والعلماء.
وفيها، في يوم الثلاثاء، ثامن شهر رجب، كانت وفاة الشيخ الإمام العالم الزاهد، زين الدين
أبي محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي، بدمشق. ومولده بظاهر بجايه في
سنة تسع أو ثمان وثمانين وخمسمائة. ووصل الى دمشق في سنة ست عشرة وستمائة،
وأقام بها الى حين وفاته. وولي القضاء في الدولة الظاهرية، بعد امتناع منه، كما تقدم. ولم
يأخذ عنه جامكية، ولا لبس تشريفاً. ثم عزل نفسه، في سنة ثلاث وسبعين وستمائة.
وحلف ألا يلي القضاء بعدها. فأقر السلطان نائبه وصهره القاضي جمال الدين يوسف،
وقد تقدم ذكر ذلك في مواضعه. وكان رحمه الله تعالى، كثير التواضع، يشتري حاجته

ويحملها بنفسه.
وفيها، في يوم الأحد سادس عشرين شعبان، توفي الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد
ابن شيخ الإسلام، عز الدين أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام، ودفن بتربة والده
بالقرافة. ومولده بدمشق، في سنة خمس وستمائة، رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الملك الظاهر شادي ابن الملك الناصر داود ابن الملك المعظم سيف الدين
عيسى ابن السلطان الملك العادل، سيف الدين أبي بكر محمد ابن أيوب. وكانت وفاته
بالغور، في السابع والعشرين من شهر رمضان. ونقل الى البيت المقدس، فدفن به. ومولده
بلقعة دمشق، بعد صلاة الجمعة، سابع عشر ذي الحجة، سنة خمس وعشرين وستمائة.
وفيها، توفي القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان
البرمكي، الشافعي الأربلي. وكان وفاته بالمدرسة النجيبية بدمشق، في عشية يوم السبت
سادس عشر شهر رجب. ومولده بمدينة إربل، في يوم الخميس بعد صلاة العصر، حادي
عشر شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وستمائة. وقد تقدم ذكر ولايته القضاء بالشام. وكان
رجلاً عالماً، وحاكماً عادلاً، وأديباً بارعاً، ومؤرخاً جامعاً، وكريماً سمحاً، جواداً مدارياً.
يحب الرفق بالناس، وكان طاهر المجلس، لا يغتاب أحد أحداً في مجلسه. وله مناقب
مشهورة، وحكايات مذكورة، تدل على حسناته وستره، رحمه الله تعالى.
وفيها، توي الشيخ الصالح، أبو الفدا اسماعيل بن اسماعيل بن جوسلين البعلبكي بها، في
يوم الأربعاء الرابع والعشرين من صفر. ومولده سنة أربع وستمائة. سمع صحيح البخاري،
على ابن الزبيدي وأسمعه، رحمه الله تعالى.
وفيها، كانت وفاة السديد هبة الله النصراني القبطي المعروف بالماعز، ستوفي الصحبة
بالديار المصرية. وكان قد تمكن في هذه الوظيفة عند الملك الظاهر، وتقدم على أبناء
جنسه. وله معرفة تامة بالديار المصرية والشامية، لم يشاركه أحد في زمانه من أبناء جنسه
كلهم، قد أقر له بالفضل في صناعته، وكان متعففاً عن الأموال، وعنده ستر على الكتاب

والمتصرفين. ولما مات، رتب السلطان في وظيفته، ولده الأسعد جرجس. وتمكن الأسعد
في الدولة المنصورية تمكناً كثيراً، ما سمع بمثله لمثله.
واستهلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة
في هذه السنة، توجه السلطان الى البحيرة، لحفر الخليج المعروف بالطيرية. وتوجه
صاحب حماه في خدمته، وكان قد وصل الى الأبواب السلطانية في هذه السنة. فحفر هذا
الخليج، وكان طوله ستة آلاف وستمائة قصبة، وعرضه ثلاث قصبات، وعمقه أربع
قصبات، بالقصبة الحاكمية. وكان نجازه في عشرة أيام، وروي بسببه من أعمال البحيرة، ما
لم يكن يروى قبله، في سنة من السنين.
وفيها، في عاشر شهر ربيع الأول، فوّض السلطان الى الصاحب برهان الدين الخضر
السنجاري، النظر التدريس، بمدرسة الإمام الشافعي بالقرافة، بالجامكية والجراية. والرسم
الشاهد به، كتاب الوقف الصلاحي، يوسف ابن أيوب، رحمه الله تعالى، وهو من معلوم
التدريس، في كل شهر أربعون ديناراً معاملة، صرف كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلث
درهم وعن النظر عشرة دنانير والجراية، والرسوم في كل يوم، من الخبز ستون رطل، بالرطل
المصري، وراويتان من الماء الحلو. وكانت هذه المدرسة، خلت من مدرس، من ثلاثين
سنة، واكتفي فيها بالمعيدين، وهم عشرة. واستمر الحال على ذلك، الى سنة ثمان وسبعين
وستمائة. فولي تدريسها قاضي القضاة تقي الدين بن رزين، عند عزله من القضاء. وقرر له
نصف المعلوم. ثم انتقلت بعد وفاته الى غيره بربع المعلوم، وبقي الأمر على ذلك الى الان،
ففوضت إليه بتوقيع شريف سلطاني منصوري.
توجه السلطان الى الشام وعوده
وفي هذه السنة توجه السلطان الى الشام، في النصف من جمادى الأولى، ووصل الى غزة،
في سابع جمادى الآخرة. وأقام بها أياماً، ثم رحل الى دمشق. فدخلها في ثامن شهر
رجب، ونزل بالقلعة.
عزل قاضي القضاة عز الدين ابن الصائغ الشافي عن القضاء وتولية قاضي القضاة بهاء الدين يوسف بن الزكي
كان سبب عزل قاضي القضاة عز الدين ابن الصائغ عن القضاء بدمشق، أن تاج الدين بن

السنجاري قاضي قضاة حلب، أثبت محضراً، أن الطواشي ريحان الخليفتي، أودع شرف
الدين بن الإسكاف، ثمانية آلاف دينار، وأن ذلك انتقل الى يد القاضي عز الدين المذكور
بحكم الوصية. فطلب القاضي عز الدين، في يوم الجمعة حادي عشرين شهر رجب، وكان
قد حضر الى الجامع الأموي، لسماع خطبة القاضي جمال الدين بن عبد الكافي، وكان قد
ولي الخطابة والإمامة بدمشق. فتوجه من الجامع الى القلعة، وحضر الى الأمير بدر الدين
الأقرعي مشد الصحبة، والقاضي شهاب الدين بن الواسطي، الناظر بالصحبة. فرسم
المشدّ على القاضي بمسجد الحبالة، ولم يصلّ الجمعة. ثم شدد عليه الأمر، وعزل عن
القضاء في يوم الأحد ثالث عشرين الشهر. وفوّض القضاء للقاضي بهاء الدين يوسف ابن
القاضي محيي الدين بن الزكي. ومنع الناس من الدخول على القاضي عز الدين والاجتماع
به، إلا من لابد منه. ثم ادعى عليه أن عنده حياصة وعصابة، القيمة عنهما خمسة
وعشرون ألف دينار، وأنهما كانا عند عماد الدين ابن الشيخ محيي الدين بن العربي، للملك
الصالح اسماعيل بن أسد الدين شيركوه، وانتقل ذلك الى عماد الدين ابن الصائغ، ومنه الى
أخيه القاضي عز الدين. ثم ادعى عليه، أن الأمير ناصر الدين ابن الأمير عز الدين أيدمر،
نائب السلطنة، والده، كان أودع عنده جملة كثيرة، واشتد عليه الأمر، ووكل الملك الزاهر
في مطالبته، فظهر الأمر بخلاف ذلك. وهو أن القاضي عز الدين أثبت عداوة تاج الدين
السنجاري، الحاكم بحلب، وعجز الخصم عن تحقيق حال العصابة والحياصة، وما فيهما
من اللؤلؤ والبلخش. وظهرت براءته من الوديعة بأمور يطول شرحها. وانتصر له الأمير
حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بالشام. واستمال حسام الدين طرنطاي، فخاطبا
السلطان في أمره فأفرج عنه، في ثامن عشرين شعبان من السنة، واستمر معزولاً الى أن
مات، وكانت وفاته بحميص، ظاهر دمشق، في عشية يوم الأحد، تاسع شهر ربيع الآخر،
سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وقد بقي من النهار ساعة. ودفن في يوم الإثنين بتربته بقاسيون،

رحمه الله تعالى.
وأما السلطان، فإنه أقام بدمشق، الى أن رتب أحوالها، وقدر مصالحها ثم عاد الى الديار
المصرية، وكان استقلال ركابه من دمشق، في يوم الأربعاء ثاني شهر رمضان، ووصل الى
قلعة الجبل، في الخامس والعشرين من الشهر.
وفيها، وصلت رسل عكا، وتقررت الهدنة مع الديوية والاسبتار والملك المنصور لعشر
سنين، وعشرة شهور، وعشرة أيام، وعشر ساعات. أولها خامس شهر ربيع الأول منها.
وفيها، تزوج السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور
باردكين ابنة الأمير سيف الدين نوكيه، وهي أخت زوجة أخيه الملك الصالح.
وصول الشيخ عبد الرحمن ومن معه
من جهة أحمد سلطان، ووفاة مرسلهم، وما كان من خبرهم
وفي هذه السنة، وصل الشيخ عبد الرحمن، من جهة أحمد سلطان ملك التتار، وصحبته
صمداغوا، والأمير شمس الدين محمد بن التيتي، المعروف بابن الصاحب وزير صاحب
ماردين، وجماعة في صحبتهم نحو مائة وخمسين نفراً.
وكان هذا الشيخ قدوة أحمد سلطان ملك التتار. وهو الذي استسلمه، وقرر قواعد
الصلح بينه وبين السلطان، وبلغ منه مبلغاً عظيماً، الى أن كان يقف بين يديه، وظهرت منه
أمور للمغل استمالهم بها. وتحدث في سائر الأوقاف وعظم ذكره ببلاد الشرق. وركب
بالجتر والسلاح دارية والجمدارية. وظن أنه إذا حضر الى السلطان تمكن منه، ويتم له في
هذه المملكة، ما تم له بالعراق. فلما وصل الى البيرة، تلقاه الأمير جمال الدين أقش
الفارسي، أحد الأمراء بحلب، ومنعه من حمل الجتر والسلاح ونكب به عن الطريق
المسلوك، الى أن أدخله الى حلب، ثم الى دمشق. كان وصوله الى دمشق، في ليلة الثلاثاء،
ثاني عشر ذي الحجة، ولم يتمكن أحد من الناس أن يراه ولا يكلمه.
ولما وصل الى دمشق، أنزل في قلعتها بقاعة رضوان، الى أن وصل السلطان الى دمشق.
ويقال إنه رتب للشيخ ولمن معه، في كل يوم ألف درهم نفقة وأطعمة وحلوى، وغير ذلك

بألف درهم أخرى. واستقر بالقلعة، الى أن وصل السلطان الى دمشق، في جمادى الآخرة
سنة ثلاث وثمانين، فاستدعاهم ليلاً. ووقف بين يدي السلطان ألف مملوك وخمسمائة مملوك،
عليهم الأقبية الأطلس الأحمر، بالطرز. والكلوتات الزركش. ووقد بين يديه ألف شمعة
وخمسمائة شمعة. وحضر الشيخ عبد الرحمن والأمير صمداغوا وشمس الدين ابن
الصاحب، وأدوا الرسالة فسمعها السلطان، وأعادهم الى مكانهم، ثم استحضرهم مرة
ثانية وثالثة، حتى استوعب ما عندهم من الأخبار، وما وردوا به من الرسالة. ثم أعلمهم
السلطان في المرة الثالثة، أن مرسلهم قد قتل، وجلس على تخت المملكة أرغون بن أبغا.
وكانت القصاد قد وصلت بهذا الخبر.
ونُقلوا من قاعة رضوان، الى بعض قاعات القلعة، ورُتب لهم بقدر الكفاية. ثم سيّر إليهم
الأمير شمس الدين سنقر الأعسر أستاذ الدار، وقال: قد رسم السلطان بانتقالكم الى غير
هذا المكان، فليجمع كل واحد منكم قماشه، ففعلوا ذلك. فلما صاروا في دهليز الدار
فتشوا، فأخذ منهم جملة كثيرة من اللؤلؤ وغيره. ويقال إنه كان بيد الشيخ عبد الرحمن
سبحة لؤلؤ، قيمتها تزيد على مائة ألف درهم، فأخذت في جملة ما أخذ، واعتقلوا. فمات
الشيخ عبد الرحمن، في ثامن عشرين شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين بقلعة دمشق، ودفن
بمقابر الصوفية. وهذا الشيخ المذكور، هو تلميذ شيخ الإسلام موفق الدين الكواشي، ثم
رباه الشيخ المشار إليه، واشتغل عليه وخدمه. وقيل إنه علم منه الاسم الأعظم، ويقال إن
الشيخ أعطاه كتاباً في علم السيمياء. وقال له توجه بهذا الى النهر واغسله، فأخذه
وأخفاه. وعاد الى الشيخ، وأخبره أنه غسله. ثم اشتغل بهذا العلم، وتوجه الى التتار،
واجتمع بالحوانين وأراهم من هذا العلم، ما اقتضى تمسكهم به، وحظي عند والدة
السلطان أحمد، في صغر أحمد، وتألّف به فلما ملك التتار، حكّمه في سائر ممالكه. ورسم
له أن يركب بالجتر، فركب به، ثم جهزه في هذه الرسالة فمات. وبقي أصحابه في الاعتقال

مدة، وضُيّق عليهم. ثم كتب الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام، الى السلطان
بسببهم، فرسم بإطلاقهم. واستمر الأمير شمس الدين في الاعتقال، ونقل الى قلعة الجبل،
واعتقل بها مدة طويلة. ثم أفرج عنه بعد ذلك، وولي نيابة دار العدل بالديار المصرية.
وفي سنة اثنتين وثمانين أيضاً، وصل من جهة تدان منكو، الجالس على كرسي الملك، ببيت
بركة، نفران من فقهاء القفجاق، وهما مجد الدين أطا ونور الدين وأحضرا على أيديهما كتاباً
من جهته بالخط المغلي، فقرئ فكان مضمونه، أنه دخل في دين الإسلام، وأنه أقام شرائع الملة
المحمدية، وأوصى على الفقيهين الواصلين بكتابه، وأن يساعدا على الحج المبرور. وذكرا
من ألسنتهما مشافهة، أن الملك سأل السلطان، أن ينعته نعتاً، يتسمى به من أسماء
المسلمين، ويرسل إليه علماً خليفتياً، وعلماً سلطانياً، يقاتل بهما أعداء الدين. فجهز
السلطان الفقيهين الى الحجاز ولما عادا جهزهما الى مقصدهما.
وفيها، أمسك تبرك، كان بالحدث من جبال طرابلس. وكانت شوكته قد قويت، وانضم
إليه جماعة كثيرة من أهل تلك الجبال، وتحصن بالحدث. فقصده التركمان، وتحيلوا عليه،
حتى تمكنوا منه وأسروه وأحضروه، وكفى الله المسلمين شره.
وفيها، خرج صاحب قبرص غازياً، لقصد الساحل، فرمته الريح الى جهة بيروت، فخرج
منها، وقصد الإغارة على تلك الجهات. فكمن له أهل جبل الخروب، وخرجوا عليه،
فقتلوا وأسروع من جماعته ثمانين رجلاً، وأخذوا له شيئاً كثيراً من المال والخيل والبغال،
وركب في البحر، وتوجه الى صور، ولم يلبث أن هلك.
وفيها، وصل الى السلطان رسول أبونكيا، ملك سيلان، وأحضر كتاباً من حُق من
ذهب. وقال الرسول، وهو الحاج أبو عثمان، هذا الكتاب بخط الملك، فلم يوجد من
يقرأه. فسألوا عن مضمونه. فقال مضمونه. إن سيلان مصر، ومصر سيلان، وأنه قد ترك
صحبة صاحب اليمن، في محبة السلطان. وقال أريد رسولاً من جهة السلطان، يُحضره
رسولي، ورسولاً يقيم في عدن. والجواهر واليواقيت واللؤلؤ عندي كثير، والمراكب والقماش

وغيره عندي. والبقم والقرفة وجميع ما يجلبه الكارم عندي. والرماح الكثيرة عندي.
وعندي الفيلة. ولو طلب السلطان كل سنة عشرين مركباً، سيرتها إليه وأطلق تجار
السلطان. وأنا لي سبع وعشرون قلعة، وفيها معادن: جواهر وبواقيت. والمغاص، وكل ما
يحصل منها فهو لي. فأكرم السلطان هذا الرسول، وكتب جوابه وجهزه.
وفيها، نجزت عمارة تربة، كان السلطان قد رسم لشاد الأمير علم الدين سنجر الشجاعي
بعمارتها لوالده وولده الملك الصالح، بالقرب من مشهد السيدة نفيسة وعمرت. ونزل
السلطان وولده إليها، وتصدقا، ورتبا وقوفها. ورسم السلطان بعمل تربة ومدرسة
وبيمارستان بالقاهرة.
عمارة التربة المنصورية والمدرسة والبيمارستان ومكتب السبيل
قال، ولما رأى السلطان الملك المنصور التربة الصالحية، أمر بإنشاء تربة له، ومدرسة
وبيمارستان ومكتب سبيل. فاشتريت الدار القطبية، وما يجاورها - وهي بين القصرين -
من خالص مال السلطان، وعوض سكان الدار القطبية بالقصر المعروف بقصر الزمرد.
وكان انتقال الدار القطبية منها الى قصر الزمرد، ثاني عشر ربيع الأول من السنة.
وربت الأمير علم الدين الشجاعي مشداً على العمارة، فأظهر من الاهتمام بالعمارة
والاحتفال، ما لم يسمع بمثله. فعمرت في أيسر مدة، ونجزت العمارة في شهور سنة ثلاث
وثمانين وستمائة. وإذا شاهد الرائي هذه العمارة العظيمة، وسمع أنها عمرت في هذه المدة
القريبة، ربما أنكر ذلك.
ولما كملت العمارة، وقف السلطان من أملاكه القياسرو والرباع، والحوانيت والحمامات،
والفنادق والأحكار، وغير ذلك، من الضياع بالشام، ما يحصل من أجر ذلك وريعه وغلاته،
في كل شهر جملة كثيرة. وجعل أكثر ذلك على البيمارستان ثم التربة بالقبة. وربت وقف
المدرسة، إلا أنه يقصر عن كفايتها. ورتب لمكتب السبيل، من الوقف بالشام ما يكفيه.
ولما تكامل ذلك، ركب السلطان وشاهده، وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء، والقضاة

والعلماء. فأخبرني بعض من شهد السلطان، وشهد عليه، أنه استدعى قدحاً من الشراب
فشربه. وقال قد وقفت هذا على مثلي، فمن دوني. وأوقفه السلطان على الملك
والمملوك، والجندي والأمير والوزير والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى. وجعل
لمن يخرج منه، من المرضى، عند برئه كسوة. ومن مات جهّزه، وكُفن ودفن. ورتب فيه
الحكماء الطبائعية والكحالين والجرائحية والمجبرين، لمعالجة الرمدى والمرضى والمجرحين
والمكسورين من الرجال والنساء. ورتب به الفراشين والفراشات، والقومة، لخدمة المرضى،
وإصلاح أماكنهم وتنظيفها، وغسل ثيابهم، وخدمتهم في الحمام. وقرر لهم على ذلك،
الجامكيات الوافرة.
وعملت التخوت والفرش والطراريح والأنطاع والمخدات واللحف والملاوات لكل مريض
فرش كامل. وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم. فجعلت الأواوين الأربعة
المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها، وجعلت قاعة للرمدى، وقاعة للجرحاء، وقاعة لمن
أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن للممرورين من الرجال ومثله للنساء،
والمياه تجري في أكثر هذه الأماكن. وأفردت أماكن، لطبخ الطعام، والأشربة والأدوية،
والمعاجين وتركيب الأكحال، والشيافات، والسفوفات، وعمل المراهم والأدهان، وتركيب
الترياقات، وأماكن لحواصل العقاقير، وغيرها من هذه الأصناف المذكورة. ومكان يفترق
منه الشراب. وغير ذلك من جميع ما يحتاج إليه. ورُتب فيه مكان يجلس فيه رئيس
الأطباء، لإلقاء درس طب، ينتفع به الطلبة، ولم يحصر السلطان، أثابه الله، هذا المكان
المبارك بعده في المرضى، يقف عندها المباشر، ويمنع من عداها، بل جعله سهيلاً، لكل من
يصل إليه، في سائر الأوقات، من غني وفقير. ولم يقتصر أيضاً فيه، على من يقيم به
للمرضى، بل يرتب لمن يطلب، وهو في منزله ما يحتاج إليه، من الأشربة والأغذية والأدوية،
حتى أن هؤلاء زادوا في وقت من الأقات، على ما تبين، غير من هو مقيم بالبيمارستان.

ولقد باشرته في شوال سنة ثلاث وسبعمائة، والى آخر رمضان سنة سبع وسبعمائة.
فكان يصرف منه، في بعض الأيام، من الشراب المطبوخ خاصة، ما يزيد علي خمسة قناطير
بالمصري، في اليوم الواحد، للمرتبين والطوارئ، غير السكر والمطابيخ من الأدوية وغير ذلك
من الأغذية والأدهان والترياقات وغيرها ورتب في البيمارستان من المباشرين والأمناء، من
يقوم بوظائفه، واتباع ما يحتاج إليه من الأصناف، وضبط ما يدخل الى المكان، وما يخرج
منه خاصة، من غير أن يكون لهم تعلق في استخراج الأموال.
وإنما يبتاعون الأصناف،
ويحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج، ويكتبون في كل شهر، عمل استحقاق لسائر
أرباب الجامكيات والجرايات من سائر أرباب الوظائف والمباشرين، يكتبه العامل، ويكتب
عليه الشهور. ويأمر الناظر بصرفه، ويخلد في ديوان الصندوق ويصرف على حكمه.
وهذه الطائفة من المباشرين بالبيمارستان، هم مباشرو الإدارة.
وأما مباشرو الصندوق والرباع، فإليهم يرجع تحرير جهات الأوقاف، في الخلق والسكون
والمعطل، واستخراج الأموال، ومحاسبات المستأجرين وصرف الأموال، بمقتضى حوالة
مباشري الإدارة، ومباشرة العمارة، وعمل الاستحقاق لا يتصرفون في غير ذلك، كما لا
يتصرف مباشرو الإدارة، في صرف الأموال، إلا حوالة بأوراقهم.
وأما العمارة، فلها مباشرون ينفردون بها، من ابتياع الأصناف، واستعمال الصناع، ومَرَمّة
الأوقاف، وغير ذلك مما يدخل في وظيفتهم، كما يفعل في الإدارة، وينقل عليهم من الصندوق
من المال، ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة. ويكتبون في كل شهر، عمل استحقاق، بثمن
الأصناف وأرباب الأجر، ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق، وما وصل إليهم من المال
ويسوقونه الى فائض أو متأخر.
وترفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حساباتهم، مياومة ومشاهرة ومساناة الى الناظرو
المستوفي.
هذا ما يتعلق بالمارستان.
وأما القبة المباركة المنصورة، وهي التربة، فإنه رُتّب فيها خمسون مقرئاً، يقرأون كتاب الله

تعالى، ليلاً ونهاراً بالنوب. وجُعل لكل منهم، في كل شهر عشرون درهماً. ورتب بها إمام،
على مذهب الإمام أبي حنيفة، رحمه الله تعالى، وله في كل شهر ثمانون درهماً من أصل
الوقف، وفي كل سنة في ليلة ختم صلاة قيام رمضان، خلعة من خزانة السلطان، كاملة
مسنجية مقتدرة ورُتّب بها ريس ومؤذنون، يعلنون الأذان، بالمأذنة الكبرى، ويقيمون الصلاة،
ويبلغون خلف الإمام. وهم سبعة نفر. الرئيس، وله في كل شهر أربعون درهماً، والمؤذنون
ستة، لكل منهم في كل شهر ستون درهماً.
ورتب فيها درس تفسير لكتاب الله تعالى، فيه مدرس يلقيه، رتب له في كل شهر مائة
درهم، وثلاثة وثلاثون درهماً وثلث درهم، ومعيد له في كل شهر أربعون درهماً، وطلبهم
عدتهم ثلاثون نفراً، لهم في كل شهر ثلاثمائة درهم، ودرس حديث يذكر فيه حديث رسول
الله، صلى الله عليه وسلم، له مدرس ومعيد وطلبة، لهم في كل شهر نظير ما لمدرس
التفسير ومعيده وطلبته، وزيادة على ذلك قارئ، يقرأ الحديث، بين يدي المدرس، في أوقات
الدروس، ويقرأ ميعاداً للعوام بين يديه أيضاً، في صبيحة كل يوم أربعاء، رتب له في كل شهر
ثلاثون درهماً. ورُتب لخازن كتبها في كل شهر أربعون درهماً، ولخزانة كتبها من الختمات
الشريفة، والربعات المنسوبة الخط، وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة، والطب
والأدبيات، ودواوين الشعر شيء كثير. ورُتب بها لخدام أزمة، يقيمون بالقبة، لحفظ
حواصلها، ومنع من يعبر إليها في غير أوقات الصلوات، وهم ستة، لكل منهم في كل شهر
خمسون درهماً، وغير هؤلاء من القومة والفراشين والبوابين.
وأما المدرسة المباركة المنصورية، فإنه رتب بها إماماً شافعي المذهب، له في كل شهر ثمانون
درهماً، ورئيساً ومؤذنين، يعلنون بالأذان بالمئذنة الكبرى المذكورة، هم ومؤذنو القبة بالنوبة،
وهم ريس وأربعة مؤذنين، لهم في كل شهر نظير ما لمؤذني القبة. ورُتب بها متصدر لإقراء
كتاب الله، عز وجل، ورتب له في كل شهر أربعون درهماً. ورتب بها دروس للمذاهب
الأربعة، الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة، لكل طائفة مدرس، له في كل شهر مائتا

درهم، وثلاثة معيدين لكل منهم خمسة وسبعون درهماً، وغير هؤلاء من القومة والفراشين
وبواب.
وأما مكتب السبيل، فإنه رُتب فيه فقيهان يعلمان ستين صغيراً من أيتام المسلمين، كتاب
الله تعالى. ورتب لهما جامكية في كل شهر، وجراية في كل يوم، وهي لكل منهما في كل
شهر ثلاثون درهماً، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء، وكسوة في
الصيف. ورُتب للأيتام، لكل منهم، في كل يوم رطلان خبزاً، وكسوة في الشتاء، وكسوة في
الصيف. وتنوّع السلطان، أجزل الله ثوابه، في وجوه البر والقربات. وهذه الجهات المباركة
المرورة باقية مستمرة، يزيد وقفها وينمو، بحسن نية واقفها. قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه.
ولنرجع الى بقية حوادث سنين اثنتين وثمانين وستمائة
وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام، عماد الدين أبو الفضل محمد ابن قاضي القضاة، شمس
الدين أبي نصر محمد بن هبة الله الشيرازي، ببستانه بالمزه، في يوم الإثنين، سابع عشر
صفر. وصلي عليه بعد صلاة العصر، بجامع الجبل، ودفن بتربة فيها قبر أخيه علاء الدين،
رحمهما الله تعالى. وكان شيخ الكتابة، أتقن الخط المنسوب، وبلغ فيه مبلغاً عظيماً، حتى
يقال إنه أتقن قلم المحقق، وكتبه أجود من شيخ الصناعة ابن البواب.
وفيها، توفي الصاحب مجد الدين أبو الفدا اسماعيل بن إبراهيم بن أبي القاسم بن أبي
طالب بن كسيرات الموصلي. وكانت وفاته في سابع عشرين شهر رمضان، بداره بجبل
الصالحية. وكان رحمه الله كثير المروءة، واسع الصدر، كثير الهيبة والوقار، جميل الصورة،
حسن المنظر والشكل، كثير التعصب لمن يقصده، محافظاً على مودة أصحابه وقضاء
حوائجهم، كثير التفقد لهم، وأصله من الموصل، من بيت الوزارة. كان والده، وزير الملك
المنصور عماد الدين زنكي ابن الملك العادل نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن
مودود بن زنكي بن آقسنقر. ثم باشر نظر الخزانة، للملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب
الموصل ثم نقله الى نظر الجزيرة العمرية، لما فتحها. ووصل الى الشام صحبة الملك المجاهد

سيف الدين إسحاق، لما وصل في الدولة الظاهرية. وسكن دمشق، وولي نظر البر بها. ثم
نقل الى نظر طرابلس، ثم أعيد الى دمشق فباشر نظر الزكاة بها. ثم انتقل الى صحابة
الديوان بالشام، الى أن ملك سنقر الأشقر دمشق، فاستوزره كما تقدم. وتعطل بعد ذلك
عن المباشرة، وسكن داره التي أنشأها بجبل قاسيون، جوار البيمارستان، فكان بها الى أن
مات. قال شمس الدين الجزري: قلت له يوماً - وقد أضرته البطالة - يا مولانا لو ذكرت
واحداً من أصحابك الأمراء، حتى يذكر بك السلطان، أو نائب السلطنة، فكاتب في أمرك
فإن لك خدماً وتفضلاً على الناس، فنظر إلي وأنشد:

لذّ خمولي وحلا مره وصانني عن كل مخلوق
نفسي معشوقي ولي غيرة تمنعني عن بذل معشوقي

وفيها، في يوم الخميس عاشر شهر رمضان، توفي الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن
الملك الناصر صلاح الدين داود، ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك
العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وكانت وفاته بدمشق، وصلي عليه بعد
صلاة الجمعة، ودفن بالتربة المعظمية. وكان رحمه الله تعالى، قد جمع بين الرئاسة والفضيلة،
والعقل الوافر، والخصال الجميلة. وكان مجانب الناس، محبوب الصورة، رحمه الله تعالى.
وفيها، في سادس عشرين شعبان، توفي القاضي عز الدين ابراهيم ابن الصاحب الوزير
الأعز، فخر الدين أبي الفوارس مقدام ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات، أحمد بن
شكر المصري. وكان قد ولي نظر الجيوش، بالديار المصرية، في شهر رمضان، سنة خمس
وسبعين وستمائة، كما تقدم، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي الشيخ الإمام العلامة، العابد الزاهد، شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن
شيخ الإسلام، أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي،
شيخ الحنابلة بالشام. وكان قد ولي قضاء القضاة على كره منه، في سنة أربع وستين كما
تقدم. ثم ترك الحكم، وتوفر على العبادة والتدريس، وأشغال الطلبة، والتصنيف. ويقال إنه
قطب بالشام. واستدل على ذلك بحرائي توافقت عليها، جماعة تعرفه، في سنة سبع

وسبعين وستمائة أنه قطب، وكان أوحد زمانه. وكانت وفاته في يوم الإثنين، سلخ ربيع
الآخر منها. ودفن بقاسيون، بتربة والده، قدس الله روحه.
ومولده في السابع والعشرين من
المحرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة. ولما مات رثاه المولى الفاضل شهاب الدين محمود كاتب
الإنشاء بقصيدة أولها:

ما للوجود وقد علاه ظلام أعراه خطب أم عداه مرام
أم قد أصيب بشمسه فغدا وقد لبست عليه حدادها الأيام

جاء منها:

لكم الكرامات الجليلات التي لا تستطيع جحودها الأقوام

وهي قصيدة تزيد على ستين بيتاً، ورثاه جماعة، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي الأمير علاء الدين كندغدي المشرقي الظاهري، المعروف بأمير مجلس. كان
من أعيان الأمراء بالديار المصرية. وظهر قبل وفاته بمدة يسيرة، أنه باق على الرق. فاشتراه
السلطان الملك المنصور بجملة وأعتقه، وقربه لديه. وكان شجاعاً بطلاً مقداماً. وكانت
وفاته بالقاهرة، في يوم الجمعة مستهل صفر. ودفن بمقابر باب النصر، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي الأمير شهاب الدين أحمد بن حجي بن يزيد البرمكي، أمير آل مري، وكانت
وفاته ببصرى. وكانت غاراته تنتهي الى أقصى نجد والحجاز. وأكثرهم يؤدون إليه إتاوة في
كل سنة، فمن قطعها منهم أغار عليه. وكان يدعي أنه من نسل جعفر البرمكي، من
العباسة أخت الرشيد. ويقول إنه تزوجها ورزق منها أولاداً. ولما جرى على البرامكة ما
جرى، هرب أولاده منها الى البادية، فأحدهم جده، والله أْعلم. وكان يقول للقاضي شمس
الدين بن خلكان البرمكي، أنت ابن عمي. وكانت بينهما مهاداة. وانتفع ابن خلكان به
وباعتنائه، عند السلطان.
وفيها، في سابع عشرين المحرم، كانت وفاة القاضي شمس الدين عيسى ابن الصاحب
برهان الدين الخضر السنجاري. كان ينوب عن والده في الوزارة الأولى، في سنة ثمان
وسبعين وستمائة. وولي نظر الأحباس، ونظر خانقاه سعيد السعداء. ثم ولي بعد ذلك
تدريس المدرسة الصلاحية المعروفة بزين التجار، ثم قبض عليه مع والده، بعد انفصاله من

الوزارة الثانية، كما تقدم. فلما أفرج عنه سكن المدرسة المعزية بمصر، وكان بها الى أن
توفي. وكان حسن الصورة والشكل، رحمه الله تعالى.
وفيها، في سادس عشر شوال، توفيت زوجة السلطان الملك المنصور، والدة ولده، الملك
الصالح علاء الدين علي، رحمهما الله تعالى.
وفيها، في يوم الأحد، ثاني عشر جمادى الأولى، توفي الشيخ ظهير الدين جعفر بن يحيى بن
جعفر القرشي التزمنتي الشافعي، مدرس المدرسة القطبية بالقاهرة، وأحد المعيدين بمدرسة
الشافعي، رحمه الله تعالى.
وفيها، في يوم السبت، ثاني عشرين شهر رجب، توفي الأمير علم الدين سنجر أمير
جاندار، أحد الأمراء بالديار المصرية. وكانت وفاته بدمشق لما كان السلطان بها. ودفن
بظاهرها، عند قباب التركمان، بميدان الحصار، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة
توجه السلطان الى الشام وعوده
في هذه السنة، توجه السلطان الملك المنصور الى الشام، وكان وصوله الى دمشق، في يوم
السبت ثاني عشر جمادى الآخرة، ونزل بقعلتها. وكان جل توجهه الى الشام، بسبب رسل
السلطان أحمد، فاستحضرهم وسمع رسالتهم، كما قدمنا ذكر ذلك. وأقام السلطان
بدمشق، الى أن رتب أحوالها. وعزل الأمير علم الدين سنجر الداوادار، من وظيفته
شاد الدواوين بدمشق، وأضاف هذه الوظيفة الى الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، وكان
أستاذ دار السلطنة بالشام. فاجتمع له شاد الدواوين وأستاذ الدارية. ونقل أيضاً الأمير
ناصر الدين الحراني، من ولاية مدينة دمشق الى نيابة السلطنة بحمص، وأضاف ولاية مدينة
دمشق، الى الأمير سيف الدين طوغان، متولي البر. ثم عزم على الرحيل، والعود الى مقر
ملكه، فبرز الأمراء أثقالهم الى ظاهر قلعة دمشق، فكانت حادثة السيل.
حادثة السيل بدمشق
وفي يوم الأربعاء، العشرين من شعبان، سنة ثلاث وثمانين وستمائة، الموافق الأول من تشرين
الثاني، وهو خامس هاتور، أمطرت السماء، في أول الليل، وتوالى المطر وهطل وكثر،

واشتد صوت الرعد، وتوالى البرق طول الليل الى أول النهار. ثم أقبل السيل وارتفع، حتى
بلغ الى حد السيل الذي ذكرناه في سنة تسعة وستين وستمائة. وحمل جميع أثقال من برز
ثقله من الأمراء المصريين والجند، وحمل الخيل والجمال والصناديق وغير ذلك. فيقال إنه
عدم للأمير بدر الدين بكتاش النجمي، ما تزيد قيمته على أربعمائة ألف درهم وخمسين
درهم، وصدم السيل باب الفراديس، فكسر أقفاله، وما خلفه من المتاريس، ودخل الماء الى
المدرسة المقدمية، وبقي كذلك حتى ارتفع النهار. ثم جف الماء في يومي الأربعاء
والخميس. ثم جاء مطر شديد، وهو دون المطر الأول، فهدم عدة مساكن، في جبل
قاسيون، وبظاهر دمشق وحواضرها. ثم انحط الماء، وتوجه السلطان بعد أن نضب
الماء، الى الديار المصرية. واستقل ركابه من دمشق، في يوم السبت الثالث والعشرين من
شعبان، ووصل الى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر رمضان من السنة.
وفاة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وشيء من أخباره وأمر ولده الأمير حسام الدين مهنا
في هذه السنة، كانت وفاة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حذيفة أمير
العرب. وصُلي عليه بدمشق صلاة الغائب، في يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الأول. وقد
ذكرنا ابتداء إمرته، في ابتداء الدولة الظاهرية. وكان رحمه الله رجلاً ديناً خيراً، انتفع
الإسلام به، في مواطن كثيرة. وصلحت العربان في أيامه، وقل فسادهم، بل كاد يعدم، مع
لينه وحسن سياسته. وكانت الإمرة قبله لابن عمه الأمير علي بن حذيفة. وكان كثير
السفك للدماء، ويقتل مفسدي العرب، بأنواع القتل، فكانت له قدر كبيرة منصوبة، لاتزال
على النار مملوءة ماء، والنار توقد تحتها، فمتى وقع له مفسد من العرب ألقاه فيها حياً،
فيسقط لحمه لوقته. وقتل خلقاً كثيراً بذلك وبغيره من أنواع العذاب. هذا والفساد في أيامه
مستمر، وأمر العرب لا يزداد إلا شدة. فلما ولي الأمير شرف الدين عيسى بعد وفاته، أنزل
القدر وامتنع من سفك دم إلا بحكم الله. فعلم الله صدق نيته، وأصلح له من أمر العرب

ما فسد في أيام غيره، وصلحت سيرتهم في أيامه، وانحسمت مادة أذاهم للقفول وغيرها،
مَناً من الله تعالى.
ولما مات رحمه الله تعالى، فوض السلطان إمرة العرب بعده، لولده الأمير حسام الدين
مهنا. وزاده السلطان إقطاعاً، وبسط يده، فسلك سهيل والده في الخير والإحسان.
وأطاعه العرب كافة، وعظم شأنه عند الملوك وغيرهم. وهو على ذلك الى وقتنا هذا،
الذي وضعنا فيه هذا الكتاب.
وفاة الملك المنصور
صاحب حماه وولاية ولده الملك المظفر
في حادي عشر شوال من هذه السنة، توفي الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن
الملك المظفر، تقي الدين محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر
ابن شاهانشاه بن أيوب، صاحب حماه، رحمه الله تعالى. ومولده في الساعة الخامسة، من
يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فتكون مدة
حياته إحدى وخمسين سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوماً. وملك حماه يوم السبت ثامن
جمادى الأولى، سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وهو اليوم الذي توفي فيه والده، فتكون مدة
مملكته بحماه، إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام.
ولما ورد الخبر بوفاته، رسم السلطان الملك المنصور، بتفويض ملك حماه، لولده الملك المظفر
تقي الدين محمود، وأجراه مجرى والده في التشاريف والمكاتبات. وجهّز إليه التشريف
والتقليد، صحبة الأمير جمال الدين أقوش الموصلي الحاجب، وجهّز معه عدة تشاريف لعمه
الملك الأفضل، وابن عمه الأمير عماد الدين، وجماعة من أهل بيته وأمرائه.
وفيها، في نصف ذي الحجة، توجه السلطان الى الشام.
وفيها، في ثالث شهر رمضان، توفي الملك السعيد فتح الدين عبد الملك، ابن الملك الصالح
عماد الدين اسماعيل ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، رحمه
الله تعالى. ودفن بتربة جدته، والدة السلطان الملك الصالح، داخل دمشق.
وفيها، توفي قاضي القضاة نجم الدين أبو محمد عبد الرحيم ابن قاضي القضاة شمس الدين

أبو الظاهر ابراهيم بن هبة الله بن المسلم بن هبة الله بن حسان بن محمد بن منصور بن
أحمد البارزي، الجهني الشافعي، الحموي، قاضي حماه. وكانت وفاته ليلة الخميس عاشر
ذي القعدة، سنة ثلاث وثمانين وستمائة. ومولده يوم الأربعاء، السادس والعشرين من المحرم
سنة ثمان وستمائة بحماه. وتوفي بطريق الحجاز، وحمله أولاده الى مدينة رسول الله صلى
الله عليه وسلم، فدفن بالبقيع. وكان رحمه الله تعالى، ممن صنّف التصانيف المفيدة، وسمع
وحدّث، وولي قضاء حماه، بعد أبيه مدة طويلة. ثم هزل مدة يسيرة. وله نظم حسن
ومشاركة في العلوم الكلامية والحكمية، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي قاضي القضاة جمال الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد الله بن عمر
الزواوي، قاضي المالكية بمدشق. وكانت وفاته بطريق الحجاز، قبل الحج بالقرب من تبوك،
رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي القاضي ناصر الدين أبو العباس أحمد بن أبي المعالي، محمد ابن منصور بن أبي
بكر قاسم بن مختار الجدامي الجروي المالكي الإسكندري المعروف بابن المنير. وكانت
وفاته بالاسكندرية، في ليلة الخميس، مستهل شهر ربيع الأول. ودفن بتربة والده، عند
الجامع الغربي. ومولده بالاسكندرية، في ثالث ذي القعدة، سنة عشرين وستمائة. وكان
فاضلاً عالماً، وله اليد الطولى في علم العربية والأدب، جيد النظم. باشر بالثغر عدة
جهات. ثم ولي القضاء بالثغر، وولي الخطابة مدة يسيرة. ثم نكب في سنة ثمانين وستمائة.
وهجم داره، ويقال إن الذين هجموا الدار، أدخلوا معهم قناني خمر، تحت ثيابهم، وادعوا
أنها وجدت عنده، فعزل عن مناصبه. ثم توجه الى باب السلطان. وسعى فيمن سعى
به، فنال بعضهم. وأعيدت إليه مناصبه، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي الأمير شمس الدين محمد ابن الأمير بدر الدين أبي المفاخر باخل ابن عبد الله
بن أحمد الهكاري، متولي ثغر الاسكندرية. وكانت وفاته بالثغر، في يوم السبت حادي
عشر شهر رجب. ودفن يوم الأحد، عند رباطه خارج باب رشيد، رحمه الله تعالى.

وفيها، في ليلة الجمعة، ثالث عشرين ذي الحجة، توفي الشيخ الصالح العارف القدوة، أبو
القاسم، وينعت وقار الدين، بن أحمد بن عبد الرحمن المراغي. والمراغة التي ينسب إليها،
بلدة معروفة بإقليم إخميم. من البر الغربي. ودفن بالقرافة، بزاويته المشهورة، في يوم الجمعة،
بعد الصلاة، رحمه الله وإيانا.
واستهلت سنة أربع وثمانين وستمائة
1285
والسلطان الملك المنصور متوجه الى الشام. فوصل الى دمشق في يوم السبت، ثاني عشر
المحرم. وتوجه الى المراقب، وافتتح الحصن على ما تقدم ذكره.
مولد السلطان الملك الناصر
كان مولده المبارك الميمون، بقلعة الجبل، في يوم السبت الخامس عشر من شهر المحرم، سنة
أربع وثمانين وستمائة، الموافق للثامن والعشرين من برمهات من شهور القبط. وطالع الوقت
السرطان. فوردت البشائر على والده السلطان بمولده، وهو بمنزلة خربة اللصوص، قبل
وصوله الى دمشق. فاستبشر السلطان بمولده، وتيمن به، وبلغ مقصوده، من فتح المرقب.
وفيها، بعد عود السلطان من فتح المرقب، دخل الى الخزانة بدمشق، في يوم الخميس سابع
جمادى الأولى. وولي القضاء محيي الدين بن النحاس الوزارة بدمشق، عوضاً عن
الصاحب تقي الدين توبة التكريتي. وكان محيي الدين إذ ذاك، ناظر الخزانة. فخلع عليه
خلعة الوزارة، وكانت الخلعة جبة عتابي حمراء، وفوقها فرجية زرقاء، مسنجبة مقندرة
وطرحة. وعزل الأمير سيف الدين طوقان، عن ولاية مدينة دمشق، وأقره على ولاية البر
خاصة. وولي مدينة دمشق الأمير عز الدين محمد بن أبي الهيجا، في يوم الجمعة، خامس
عشر جمادى الأولى. ثم توجه الى الديار المصرية، في بكرة نهار الإثنين، ثامن عشر الشهر،
ووصل الى قلعة الجبل، في يوم الثلاثاء تاسع عشرين شعبان. وكان قد أقام مدة بتل
العجول.
وفيها، وصلت رسل ملوك الفرنج، وأحضروا بين يدي السلطان، في يوم الثلاثاء سابع شهر

رمضان. وقدموا ما معهم من التقادم، وهي: ما هو من جهة الأنبرور، ما حمله اثنان
وثلاثون جملاً، سنجاب وسمور أربعة عشر، وسقلاط خمسة، وأطلس وبندقي ثلاثة
عشر. وما هو من جهة الجنوية، سارسينا حملان، وسناقر ستة، وكلب أبلق، ذكر أنه أكبر
من الأسد. وما هو من جهة الأشكري، حمل أطلس، وأربعة أحمال بسط. فقبلت
تقدامهم، وأجروا على عاداتهم في الإحسان والصلة.
وفيها، وصل رسول صاحب اليمن، وصحبته الهدايا والتقادم، وأحضر الى بين يدي
السلطان، في يوم السبت مستهل ذي القعدة، وأحضر من الهدية علي ما نقل، ما هو: خدام
أززمة ثلاثة عشر، خيل فحول عشرة، فيل واحد، كركدن واحد، نعاج يمنية ثمانية، طيور
ببغاء ثمانية، قطع عود كبار ثلاثة، حملت كل قطعة منها على رجلين، رماح قنا أربعون حمل
جمل. ومن أصناف البهار ما حمل على سبعين جملاً، ومن القماش ما حمل على مائة
قفص، ومن تحف اليمن ما حمل على مائة طبق نحاس، فقبل ذلك منه، وأنعم على رسله
وعليه على العادة.
وفيها، في سادس ذي الحجة، وقع الحريق بقلعة الجبل المحروسة، فاحترقت الخزانة
السلطانية والقاعة الصالحية.
وفيها، في سلخ شهر رمضان، كانت وفاة الأمير سيف الدين أيتمش السعدي في محبسه.
وفيها، كانت وفاة الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري الصالحي، بالقاهرة، ودفن بتربته
بالشارع الأعظم.
وفيها، في يوم الأربعاء، سابع عشر صفر، توفي الصاحب المشير عز الدين محمد بن علي بن
ابراهيم بن شداد الأنصاري الحلبي، بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم. وكان فاضلاً ديناً،
رئيساً مؤرخاً، معظّماً عند الأمراء الأكابر محبوباً إليهم. ولازم الصاحب بهاء الدين مدة
حياته. وكان الأمراء الأكابر يحملون إليه في كل سنة دراهم وغلة وكسوة وغير ذلك، رحمه
الله تعالى.
وفيها، في منتصف شعبان توفي الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير افتخار الدين أباز بن

عبد الله الحراني، بمدينة حمص، وهو يومئذ نائب السلطنة بها، وحمل الى دمشق، ودفن
بقاسيون، في يوم الخميس سابع عشر الشهر.
وفيها، في يوم الأربعاء، سلخ شعبان، توفي الطواشي شبل الدولة كافور الصفوي الخزندار
بقلعة دمشق. ودفن يوم الخميس مستهل شهر رمضان، بتربته بسفح قاسيون. كان رجلاً
صالحاً، كثير الصدقة والمعروف والإحسان، رحمه الله تعالى، والحمد لله وحده.
واستهلت سنة خمس وثمانين وستمائة
1286
في هذه السنة، أعيد الأمير علم الدين سنجر الدواداري، الى شد الشام، عوضاً عن
الأمير شمس الدين سنقر الأعسر. وباشر الديوان في بكرة يوم الإثنين خامس عشر المحرم.
وفيها، في سلخ ربيع الآخر، وصل تقي الدين توبة التكريتي من الديار المصرية الى دمشق.
وقد أعيد الى الوزارة بالشام، عوضاً عن الصاحب محيي الدين بن النحاس.
حادثة غريبة اتفقت بحمص
وفي هذه السنة، في سابع عشر صفر، ورد الى الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، نائب
السلطنة بالشام، كتاب من الأمير بدر الدين بكتوت العلائي وكان مجرداً بحمص، وصحبته
من عسكر دمشق ألفا فارس، من مستهل هذه السنة، مضمونه بعد البسملة:
يقبل الأرض وينهي أنه لما كان في اليوم الخامس رابع عشر صفر، وقت العصر، حصل
بالغسولة الى جهة عيون القصب، غمامة سوداء الى الغاية، وأرعدت رعداً كثيراً زائداً.
وظهر من الغمامة شبه دخان أسود، من السماء متصل بالأرض، وصور من الدخان،
صورة أصَلة هائلة، مقدار العمود الكبير، الذي لا يحضنه جماعة من الرجال، وهي متصلة
بعنان السماء، تلعب بذنبها فيتصل بالأرض، شبه الزوبعة الهائلة. وصارت تحمل الحجارة
الكبار المقادير، وترفعها في الهواء، كرمية سهم نشاب وأكثر. وصار وقعها، وتلاطم
الحجارة بعضها ببعض، يسمع له صوت هائل، من المكان البعيد. وما برح ذلك مستمراً في
قوته، واتصل بأطراف العسكر المنصور. وما صادف شيئاً إلا رفعه في الهواء، كرمية

نشاب وأكثر. وما صادف شيئاً من الأشياء، من السروج والجواشن، والعدد والسيوف، والتراكيش والقسي، والقماش والشاشات. والكلوتات، والنحاس، والأسطال، إلا صار طائراً في الهواء كشبه الطيور. ومن جملة ذلك، أنه كان في اسطبل المملوك، خرج آدم ملآن تطابيق بيطارية حمله في الهواء والجو، كرمية نشاب. ودفع من جملة ما دفعه، عدة من الجمال بأحمالها، قدر رمح وأكثر. وحمل جماعة من الجند والغلمان، وأهلك شيئاً كثيراً من السروج، التي صدفها، والرماح، وطحن ذلك، الى أن بقي لا ينتفع به. وأتلف شيئاً كثيراً مما صادفه في طريقه، وأضاع أشياء كثيرة من العدد والقماش، لمقدار مائتي نفر من الجند وأصحاب الأمراء، الى أن صاروا بغير عدة، ولا قماش. وغابت تلك الحية عن العين، في عنان السماء، فتوجهت في البرية، صوب الشرق. والذي عدم من قماش الجند، منه ما راح في الغمامة السوداء، ومنه ما أخذه بعض الجند، مع أن المملوك ركب بنفسه، ودار في المعسكر المنصور، واستعاد كثيراً مما عدم، وبعد هذا، عدم ما تقدم ذكره. وهذه الوقعة ما سمع بمثلها أبداً، ثم وقع بعد هذا يسير من مطر. ثم إن اللواحيق الكبار، حملها الهواء وهي منصوبة، وصارت مرتفعة في الجو، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، أفرج السلطان عن الأمير شمس الدين قطلبجا أخي الرومي.

وفيها، رسم السلطان بهدم القبة الظاهرية، التي بقلعة الجبل بالرحبة. فحصل الشروع في هدمها، في يوم الأحد، عاشر شهر رجب. وأمر ببناء قبة في مكانها، فعمرت، وكان الفراغ منها في شوال من هذه السنة.

توجه السلطان الى الكرك وما رتبه من أمر النيابة وعوده

في هذه السنة، في يوم الخميس، سابع شهر رجب، توجه السلطان الى غزة، ثم توجه من بعدها جريدة الى الكرك، فوصل إليها في شعبان، وصعد الى قلعتها، ورتب أحوالها.

ورسم بتنظيف البركة التي فيها من الطين، فنظفت. وعمل فيها جميع من كان في خدمة

السلطان، من المماليك والحاشية مدة سبعة أيام. واستناب بها الأمير ركن الدين بيبرس
الدوادار المنصوري. ونقل الأمير عز الدين الموصلي منها الى نيابة السلطنة بغزة، وتقدمة
العسكر بها. ولم يطل مقامه بها، فإنه نقل منها الى نيابة قلعة صفد.
وعاد السلطان من الكرك، ونزل بغابة أرسوف، فأقام بها الى أن وقع الشتاء، وأمن حركة
العدو، وعاد الى الديار المصرية. وكان وصوله الى قلعة الجبل، في يوم الإثنين رابع عشر
شوال منها.
وفيها، في شوال، أفرج عن الأمير بدر الدين بكتوت الشمسي، والأمير جمال الدين أقوش
الفارسي.
وفاة قاضي القضاة وجيه الدين، وتفويض القضاء بمصر والوجه القبلي، لقاضي القضاة، تقي الدين ابن بنت الأعز
في هذه السنة، في يوم الأربعاء، مستهل جمادى الأولى، كانت وفاة قاضي القضاة وجيه
الدين عبد الوهاب ابن القاضي سديد الدين الحسين المهلبي، المعروف بالبهنسي، قاضي
القضاة بمصر والوجه القبلي. وولي بعده، قاضي القضاة، تقي الدين بن عبد الرحمن ابن
بنت الأعز، في يوم الأربعاء خامس عشر الشهر. وكان قاضي القضاة بالقاهرة والوجه
البحري القاضي شهاب الدين الخويي.
وفاة قاضي القضاة تقي الدين بن شاس المالكي
وتفويض القضاء لقاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي
وفي هذه السنة، في ذي القعدة، كانت وفاة قاضي القضاة تقي الدين الحسين ابن الفقيه
شرف الدين أبي الفضل عبد الرحيم ابن الفقيه الإمام مفتي الفرق جلال الدين أبي محمد
عبد الله بن شاس الجذامي السعدي المالكي، قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية.
وفوض السلطان القضاء بعده، على مذهب الإمام مالك بن أنس، لقاضي القضاة زين الدين
أبي الحسن علي ابن الشيخ رضي الدين أبي القاسم مخلوف ابن الشيخ تاج الدين أبي
المعالي ناهض النويري المالكي، وهو يومئذ ناظر الخزانة السلطانية. وكان في ابتداء ترقيه يلي
أمانة الحكم العزيز بالقاهرة. فاتفق أن السلطان الملك المنصور، في حال إمرته، ابتاع منه،

من تركة بعض الأمراء، عدة بجملة، كانت الغبطة فيها للأيتام، فطالبه القاضي زين الدين
بالمال، فتوقف عن أدائه، وقصد ردماً ابتاعه. وتحدث في ذلك مع القاضي زين الدين فامتنع
عن رده. واقتضى الحال أن شكاه للملك الظاهر، وألزم بالقيام بالثمن. فبقي ذلك في خاطر
السلطان. فلما ملك، انتفع بذلك عنده غاية النفع، ورتبه في الخزانة، ووثق به، وتمكن عنده
تمكناً عظيماً. ثم فوض إليه القضاء، وأقره معه على الخزانة. واستمر في القضاء الى أن
توفي، على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، في أخبار الدولة الناصرية.

وفاة قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي وشيء من أخباره

وفي هذه السنة، في يوم الإثنين، حادي عشر ذي الحجة، توفي بدمشق قاضي القضاة بهاء
الدين أبو الفضل يوسف، ابن قاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى، ابن قاضي
القضاة محيي الدين أبي المعالي محمد، ابن قاضي القضاة، ركن الدين أبي الحسن علي ابن
قاضي القضاة، مجد الدين أبي المعالي محمد ابن قاضي القضاة ركن الدين أبي الفضل يحيى
بن علي بن عبد العزيز العثماني الأموي القرشي، المعروف بابن الزكي، قاضي قضاة
الشافعية بدمشق. اجتمع فيه وله ما لم يجتمع في غيره، ولا له. كان من أحسن الناس
صورة، وأكملهم قواماً، وهيئة وهيبة. وكان من العلماء الفضلاء في المذهب وعلم الأصولين
والعربية، والمنطق، وعلم الكلام، والحساب، والفرائض، والنظم، وعلم البيان، وحل
المترجم، والكتابة الجيدة الحسنة، مع الذكاء المفرط. وكان له دنيا عريضة من المال
والعقار. وكانت داره بباب البريد، من أحسن الدور بدمشق وبستانه بالسهم الأعلى من
أصح الغوطة وأطيبها هواء. وضيعته الملك قرية الميدانية، من غوطة دمشق. وكانت
زوجته من أحسن النساء صورة وكان أولاده تامين الصورة. وجُمع له من المدارس بدمشق
أجلها، وهي العزيزية والنقوية والفلكية والعادلية والمجاهدية والكلامسة وغيرها. وأنظار
أوقاف كثيرة، وقضاء قضاة دمشق، وسائر أوقافها. فلما كمل له ذلك، أتاه الموت الذي لا
حيلة فيه ولا دافع له، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأديب الفاضي، الشاعر المجيد، شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن عبد
المنعم بن يوسف بن أحمد الأنصاري اليمني المحتد المصري الدار والمولد، الشافعي الصوفي،
المعروف بابن الخيمي، الشاعر المشهور، المبرز على نظرائه. وكانت وفاته بالقاهرة المعزية،
بمشهد الحسين، في التاسع والعشرين من شهر رجب الفرد، سنة خمس وثمانين وستمائة.
ومولده تخميناً في سنة اثنتين وستمائة. روى عن ابن باقا، وسمع من ابن البنا وغيره،
وحدّث. وكان يعاني الخدم الديوانية، وله نظم كثير جيد. فمنه قصيدته المشهورة البائية،
التي ادعاها الشيخ نجم الدين بن اسرائيل. وقد رأينا أن نذكر هذه القصيدة، وما وقع في
أمرها، وما قيل في وزنها ورويها، وكيف حكم بها للمذكور. وأول القصيدة:

يا مطلباً ليس لي في غيره أرب إليك آل التقصي وانتهى الطلب
وما طمحت لمرأى أو لمستمع إلا لمعنى الى علياك ينتسب
وما أراني أهلاً أن تواصلني حسبي علواً، بأني فيك مكتيب
لكي ينازع شوقي تارة أدبي فأطلب الوصل، لما يضعف الأدب
ولست أبوح في الحالين ذا قلق باد وشوق له في أضلعي لهب
وناظر كلما كفكفت أدمعه صوناً لحبك يعصيني وينسكب
ويدعى في الهوى دمعي مقاسمتي وجدي وحزني ونجوى وهو مختضب
كالطرف يزعم توحيد الحبيب ولا يزال في ليلة للنجم يرتقب
يا صاحبي قد عدمت المسعدين فما عدني على وصبي لا مسّك الوصب
بالله إن جزت كثباناً بذي سلمٍ قف بي عليها، وقل لي هذه الكثب
ليقضي الخد في أجراعها وطرا من تربها أؤدي بعض ما يجب
ومل الى البان من شرقي كاظمة فلي الى البان من شرقيها طرب
وخذ يميناً لمغنى تهتدي بشذا نسيمه الرطب إن ضلت بك النجب
حيث الهضاب وبطحاها يروضها دمع المحبين لا الأنداء والسحب
أكرم به منزلاً تحميه هيهته عني وأنواره لا العمر والقضب

دعني أعلل نفساً عزّ مطلبها في ه، وقلباً لعذر ليس ينقلب
ففيه عاهدت قدما حب من حسنت به الملاحة واعتزت به الرتب
دان وأدنى وعز الحسن يحجبه عني وذلي والإجلال والرهب
أحيا إذا مت من شوق لرؤيته لأنني لهواء فيه منتسب
ولست أعجب من حبي وصحته من صحتي إنما سقمي هو العجب
يا لهف نفسي لو يحدى تلهفها هوناً ووا حرباً، لو ينفع الحرب
يمضي الزمان وأشواقي مضاعفة يا للرجال ولا وصل ولا سبب
هبت لنا نسمات من ديارهم لم يبق في الركب من لا هزه الطرب
كدنا نطير سروراً من تذكرهم حتى لقد رقصت من تحتنا النجب
يا بارقاً بأعالي الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن فإنك الشنب
أما خفوق فؤادي فهو عن سبب وعن خفوقك قل لي ما هو السبب
ويا نسيماً سرى من جو كاظمة بالله قل لي كيف البان والعذب
وكيف جيرة ذاك الحي هل حفظوا عهداً أراعيه إن شطوا وإن قربوا
أم ضيعوا ومرادي منك ذكرهم هم الأحبة إن أعطوا وإن سلبوا
إن كان يرضيهم إبعاد عبدهم فالعبد منهم بذاك البعد مقترب
والهجر إن كان يرضيهم بلا سهب فإنه من قبيل الوصل محتسب
ولما بلغت هذه القصيدة نجم الدين محمد بن إسرائيل، ادعاها لنفسه، فاجتمع هو وابن
الخيمي بعد ذلك بحضرة جماعة من الأدباء، وجرى الحديث في ذلك، فأصر ابن إسرائيل
على أنها له، فتحاكما الى الشيخ شرف الدين عمر ابن الفارض، رحمه الله، وكان يومئذ هو
المشار إليه في معرفة الأدب ونقد الشعر. فأشار أن ينظم كل واحد منهما أبياتاً على الوزن
والروي فنظم ابن الخيمي:
لله قوم بجرعاء الحمى غيب جنوا عليّ، ولما أن جنوا عتبوا
يا قوم هم أخذوا قلبي فلم سخطوا وانهم غصبوا عيشي هام غضبوا
هم العريب بنجد مذ عرفتهم لم يبق لي معهم مال ولا نسب

شاكون للحرب لكن من قدودهم وفاترات اللحاظ السمر والقضب
فما ألمّوا بحي أو ألم بهم إلا أغاروا على الأبيات وانتهبوا
عهدت في دمن البطحاء عهد هوى إليهم وتمادت بيننا حقب
فما أضاعوا قديم العهد بل حفظوا لكن لغيري ذاك العهد قد نسبوا
مَن منصفي من لطيف فبهم غنج لدن القوام لإسرائيل ينتسب
مبدل القول ظلماً لا يفي بموا عيد الوصال ومنه الذنب والغضب
في لثغة الراء منه صدق نسبته والمنّ منه برور الوعد والكذب
موحد فيرى كل الوجود له ملكاً ويبطل ما يفضي به النسب
فعن عجائبه حدث ولا حرج ما ينتهي في المليح المطلق العجب
بدر ولكن هلالاً لاح إذ هو بالورديّ من شفق الخدين منتقب
في كاس مبسمه من حلو ريقته خمر ودر ثناياه بها حبب
فلفظه أبداً سكران يسمعنا من معرب اللحن ما ينسى له الأدب
تجني لواحظه فينا ومنطقه جنايه يجتني من مُرّها الضرب
قد أظهر السحر في أجفانه سقماً البرء منه إذا ما شاء والعطب
حلو الأحاديث وألفاظ ساحرها تلقى إذا نطق الألواحُ والكتب
لم يبق منطقه قولاً يروق لنا لقد شكت ظلمه الأشعار والخطب
فداؤه ما جرى في الدمع من مهج وما جرى في سبيل الحب محتسب
ويح المتيم شام بارق من أضم فهزه كاهتزاز البارق الحرب
وأسكن البرق من وجد ومن كلف في قلبه فهو في أحشائه لهب
فكلما لاح منه بارق بعثت قطر المدامع من أجفانه سحب
وما أعادت نسيمات الغوير له أخبار ذي الأثل إلا هزه الطرب
واهاً له أعرض الأحباب عنه وما أجدت وسائله الحسنى ولا القرب
ونظم الشيخ نجم الدين محمد بن إسرائيل رحمه الله تعالى.
لم يقض من حبكم بعض الذي يجب قلب متى ما جرى تذكاركم يجب
ولي، وفيٌ لرسم الدار بعدكمُ دمع متى جاد ضنت بالحيا السحب
أحبابنا والمنى تدني مزاركم وربما حال من دون المنى الأدب

ما رابكم من حياتي بعد بعدكم وليس لي في حياة بعدكم أدب
قاطعتموني فأحزاني مواصلة وحلتم فحلالي فيكم التعب
رحتم بقلبي وما كادت لتسلبه لولا قدودكم الخطية السلب
يا بارقاً بيراق الحزن لاح لنا أأنت أم أسلمت أقمارها النقب
ويا نسيماً سرى والعطر يصحبه أجزت حين مشين الخردُ العرب
أقسمت بالمقسمات الزُّهر يحجبها سمر العوالي والهندية القضب
لكدت تشبه يرقاً من ثغورهم ما در دمعي لولا الظلم والشنب
وجيرة جار فينا حكم معتدل منهم ولم يُعتبوا لكنهم عتبوا
ما حيلتي قربوني من محبتهم وما حال دونهم التقريب والخبب
وعُرِضتا على الشيخ شرف الدين بن الفارض. فأنشد مخاطباً لابنِ إسرائيل عجز بيت
من أبيات ابن الخيمي:
لقد حكيت ولكن فاتك الشنب
وحكم بالقصيدة لابن الخيمي. واستحسن بعض من حضر المجلس من الأدباء أبيات ابن
اسرائيل، وقال: من ينظم مثل هذه الأبيات، ما الحامل له على ادعاء ما ليس له؟. فقال
ابن الخيمي: هذه سرقة عادة، لا سرقة حاجة. وانفصل المجلس. وفارق الشيخ نجم الدين
بن إسرائيل من وقته الديار المصرية، وتوجه الى الشام. ولما بلغت هذه الواقعة القاضي
شمس الدين أحمد بن خلكان وهو إذ ذاك يتولى نيابة الحكم بالقاهرة، خلافة عن قاضي
القضاة بدر الدين السنجاري، رحمهما الله تعالى، أرسل الى الشيخ شهاب الدين ابن
الخيمي، يطلب منه الأبيات التي نظمها، وادعاها ابن اسرائيل، فذيلها بأبيات وهي:
إن كان يرضيهم إبعاد عبدهم فالعبد منهم بذاك البعد مقترب
والهجر إن كان يرضيهم بلا سبب فإنه من لذيذ الوصل محتسب
وإن هم احتجبوا عني فإن لهم في القلب مشهور حسن ليس يحتجب
قد نزّه اللطف والإشراق بهجته عن أن تمنعها الأستار والحجب
لا ينتهي نظري منهم الى رتب في الحسن إلا ولاحت فوقها رتب

وكلما لاح معنى من جمالهم لبّاه شوق الى معناه منتسب
أظل دهري ولي من حبهم طرب ومن أليم اشتياقي نحوهم حرب
فالقلب يا صاح مني بين ذاك وذا قلب لمعروف شمس الدين منتهب
إن الحديث شجون فاستمع عجباً حديث ذات الحبر حسناً كله عجب
وشرع في مدحه وذكر أوصافه، الى نهاية سبعة وثلاثين بيتاً، تركنا إيراد بقيتها اختصاراً.
وشعره، رحمه الله تعالى، كثير جيد مشهور. فالنرجع الى سياق أخبار الدولة المنصورية.
واستهلت سنة ست وثمانين وستمائة
1287
في هذه السنة، تسلم الأمير حسام الدين طرنطاي صهيون، وعاود الأمير شمس الدين
سنقر الأشقر الطاعة. وقد تقدم ذكر ذلك.
وفيها، كانت غزوة النوبة الأولى. وقد تقدم ذكرها.
تفويض قضاء القاهرة والوجه البحري للقاضي برهان الدين السنجاري
ونقلة القاضي شهاب الدين الخويي الى الشام ووفاة السنجاري
وإضافة قضاء القاهرة للقاضي تقي الدين ابن بنت الأعز
كان سبب هذه الولايات ما قدمناه، من وفاة قاضي القضاة بدمشق، بهاء الدين بن الزكي،
في حادي عشر ذي الحجة، سنة خمس وثمانين. فلما اتصل خبر وفاته بالسلطان، رسم
بتعيين قاض للشام. فعين قاضي القضاة شهاب الدين الخويي لذلك، فيما بلغني، القاضي
شرف الدين ابراهيم بن عتيق، وكان إذ ذاك ينوب عنه، وأحضره لذلك. وسعى قاضي
القضاة تقي الدين ابن بنت الأعز، أن ينقل القاضي شهاب الدين الخويي الى الشام، ويستقل
هو بقضاء المدينتين والعملين، فنتج سعيه الآن في أخذ الطرفين. وذلك أن القاضي شهاب
الدين الخويي، طلع في يوم الأحد، خامس عشر المحرم، من هذه السنة، الى قلعة الجبل،
وصحبته القاضي شرف الدين بن عتيق، الذي عينه لقضاء الشام. وحضر قاضي القضاة
تقي الدين ابن بنت الأعز المجلس، وطلب السلطان قاضي القضاة برهان الدين الخضر
السنجاري، فخلع عليه، وفوض له قضاء القاهرة والوجه البحري ونقل القاضي شهاب الدين

الخويي الى قضاء الشام، فتوجه الى دمشق، في ثالث عشر صفر، ووصل إليها في يوم الإثنين
ثالث عشر شهر ربيع الأول. وأما القاضي برهان الدين، فإنه جلس للحكم بالقاهرة
بالمدرسة المنصورية. وتقدم في الجلوس بدار العدل، على قاضي القضاة تقي الدين ابن بنت
الأعز، فتألم لذلك، وندم على سعيه في نقلة القاضي شهاب الدين الخويي الى الشام، وسعى
أن يتوفر من حضور دار العدل. فبينما هو في ذلك، توفي قاضي القضاة برهان الدين
السنجاري. وكانت وفاته في تاسع صفر من السنة، بالمدرسة المعزية بمصر، ودفن بتربة
أخيه بدر الدين بالقرافة. فكانت مدة ولايته أربعة وعشرين يوماً، ومولده في سنة ست
عشرة وستمائة. ولما مات، فوض السلطان قضاء القاهرة والوجه البحري لقاضي القضاة،
تقي الدين عبد الرحمن ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز. وخلع عليه، وجمع له
القضاء بالمدينتين والعملين. وبلغني أنه صلى على القاضي برهان الدين، وعليه خلعة
القضاء.
خبر واقعة ناصر الدين بن المقدسي وأعيان دمشق
ومصادرة أكابر دمشق، وتوكيل ناصر الدين بن المقدسي عن السلطان
وفي هذه السنة، وصل ناصر الدين محمد ابن الشيخ عبد الرحمن المقدسي، الى الأبواب
السلطانية. وكان قد حضر، ليرفع على قاضي القضاة بهاء الدين ابن الزكي أموراً. فاتفقت
وفاة قاضي القضاة كما تقدم، فبطل عليه ما دبره من أمره، فعدل عن ذلك الى غيره.
واجتمع بالأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وزير الدولة، وتحدث معه في أمر بنت الملك
الأشرف موسى ابن السلطان الملك العادل، وأنها أباعت أملاكها بدمشق، وأنه ثبت أنها
حالة البيع كانت سفيهة، وقد حجر عليها عمها الملك الصالح، عماد الدين اسماعيل،
ويستعيد الأملاك ممن ابتاعها، ويرجع عليهم بما تسلموه من الريع، في المدة الماضية، ويشتري
هذه الأملاك للخاص السلطاني، فأجابه الى ذلك. وكتب يطلب سيف الدين أحمد
السامري من دمشق، وكان قد ابتاع منها حرزما. فحضر في شهر رمضان، والسلطان إذ

ذاك بغزة، فسيره الى الديار المصرية. فطلب منه ابتياع حرزما، فادعى أنه وقفها من مدة.
فعند ذلك، سطر محضر، يتضمن ابنة الملك الأشرف، كانت في مدة كذا وكذا سفيهة،
وذلك في زمن البيع، ولم تزل مستمرة السفه، الى تاريخ كذا وكذا. ثم صلحت واستحقت
رفع الحجر عنها من مدة كذا وكذا. ولفّق بيّنة شهدت بذلك، وثبت على أخذ قضاء
القضاة بالديار المصرية، وقد شاهدت أنا هذا المحضر. ولما ثبت ذلك في وجه سيف الدين
السامري، بطل البيع من أصله. ثم طولب بما تحصل له من الريع، لمدة عشرين سنة، وكان
مائتي ألف درهم وعشرة آلاف درهم، بعد الاعتداد له، بنظير الثمن الذي دفعه. فاشترى
منه سبعة عشر سهماً، من قرية الزنبقية، بسبعين ألف درهم، وحمل مائة ألف وأربعين ألف
درهم. وفوض السلطان وكالته، لناصر الدين المقدسي المذكور، فشرع في أذى أهل دمشق
وأعيانها، فطلب جماعة منهم، في سنة سبع وثمانين، وهم الصدر عز الدين حمزة بن
القلانسي، والصدر نصير الدين بن سويد، وشمس الدين ولد جمال الدين بن يمن، وجمال
الدين بن صصري. وطلب أيضاً قاضي القضاة حسام الدين الحنفي، والصاحب تقي الدين
توبة، وشمس الدين ابن غانم، فصودر هؤلاء. فأخذ من الصدر عز الدين بن القلانسي،
فيما قيل، مائة ألف درهم وخمسون ألف درهم، ومن جمال الدين بن صصري، ثلاثمائة ألف
درهم، قيمة ملك ودراهم. وحمل من نصير الدين ثلاثون ألف درهم، ومن ابن يمن، عن
قيمة أملاك، مائة ألف درهم وتسعون ألف درهم، ومن شمس الدين بن غانم خمسة آلاف
درهم، ومن قاضي القضاة حسام الدين ثلاثة آلاف درهم.
واعتذر أكابر الدماشقة، أنهم
حضروا على خيل البريد، وأن أموالهم وموجودهم بدمشق. وسألوا أن يقرر عليهم ما
يحملونه. فطلب الأمير علم الدين سنجر الشجاعي وزير الديار المصرية، جماعة من تجار
الكارم، وأمرهم أن يقرضوا الدماشقة مالاً يحملونه، ففعلوا ذلك. وكتب عليهم الحجج،
وأعيدوا الى دمشق، وقاموا بالمبلغ لأربابه. وإنما فعل الأمير علم الدين الشجاعي ذلك،

خشية أنهم إذا توجهوا الى دمشق، استشفعوا فيسامحوا. فأراد أن يكون ذلك في ذمتهم،
لغير بيت المال. ثم عاد الدماشقة الى دمشق، وولي جمال الدين بن صصري نظر الدواوين
بدمشق، وذلك في سنة سبع وثمانين وستمائة.
وفي سنة ست وثمانين وستمائة أيضاً، توجه السلطان الى جهة الشام، واستقل ركابه من
قلعة الجبل، في يوم الخميس سابع عشرين شهر رجب، ووصل الى غزة، وأقام بتل العجول،
ثم عاد الى قلعة الجبل. وكان وصوله إليها، في يوم الإثنين ثالث عشرين شوال من السنة.
وفيها، في تاسع عشر محرم، كانت وفاة علاء الدين ابن الملك الناصر، صاحب الشام،
الذي كان في الاعتقال. وكان قد اعتقل، في أوائل الدولة المنصورية، في سابع عشر رمضان،
سنة ثمان وسبعين وستمائة. وكان قد حصل له مرض المالنخوليا. فلما اشتد به، قتل
نفسه. ومولده في سنة ثلاث وخمسين وستمائة.
وفيها، في ليلة السبت، الثامن والعشرين، من شهر المحرم، توفي الشيخ الإمام، قطب الدين
أبو بكر، محمد بن أحمد بن علي بن الحسين بن عبد الله ابن أحمد بن ميمون القيسي
الشاطبي، المعروف بابن القسطلاني، بالمدرسة الكاملية، دار الحديث بالقاهرة، وهو
مدرسها، ودفن من الغد، بالقرافة الصغرى. وكانت جنازته مشهورة، رحمه الله تعالى.
وفيها، كانت وفاة الأمير سيف الدين قجقار المنصوري، نائب السلطنة بالمملكة الصفدية.
وكان السلطان قد رباه في صغره، كالولد، رحمه الله تعالى.
وفيها، كانت وفاة الأمير علم الدين سنجر الباشقردي الصالحي بالقاهرة، في ليلة الثلاثاء،
تاسع عشر شهر رمضان، ودفن بالقرافة. وكان من أكابر الأمراء المقدمين بالديار المصرية.
وتولى نيابة السلطنة بحلب كما تقدم، وعزل بالأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري.
واستهلت سنة سبع وثمانين وستمائة
1288
عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعي عن الوزارة ومصادرته وتفويض الوزارة لقاضي القضاة، تقي الدين ثم الى الأمير بدر الدين بيدرا
وفي هذه السنة، في يوم الخميس، ثاني عشر شهر ربيع الأول، عزل السلطان الأمير علم

الدين سنجر الشجاعي، عن الوزارة، وصادره وأخذ أمواله. وكان سبب ذلك، أن
النجيب المعروف بكاتب بكجري، أحد مستوفي الدولة، برز له، وانتدب لمرافعته، بموافقة
تقي الدين بن الجوجري، ناظر الدواوين ومباطنته له، وحاققه بين يدي السلطان. وكان من
جملة ما حاققه عليه، وأغرى السلطان به، أنه قال للسلطان بحضوره، إنه أباع جملة من
الرماح والسلاح، الذي كان في الذخائر السلطانية للفرنج.
فاعترف الأمير علم الدين بذلك.
وقال نعم أنا بعته بالغبطة الوافرة، والمصلحة الظاهرة.
فالغبطة أني أبعتهم من الرماح
والسلاح، ما عتق وفسد، وقلّ الانتفاع به، وبعته بأضعاف قيمته.
والمصلحة، ليعلم الفرنج
أنا نبيعهم السلاح هواناً بهم، واستحقاراً لأمرهم، وعدم مبالاة بهم. فكاد السلطان يصغي
الى ذلك. فأجابه النجيب عن ذلك، بأن قال له يا مكثل، الذي خفي عنك أعظم مما لمحت
هذا الكلام، الذي صورته أنت بخاطرك، وأعددته جواباً. وإنما الفرنج والأعداء لا يحملون
بيع السلاح لهم، على ما ظننت أنت وزعمت. وإنما الذي يشيعونه بينهم وينقله الأعداء
الى أمثالهم، أن يقولوا، قد احتاج صاحب مصر، حتى باع سلاحه لأعدائه، أو ما هذا
معناه من الكلام. فعند ذلك احتد السلطان عليه، غاية الاحتداد، واشتد غضبه، وأمر
بمصادرة الأمير علم الدين، على جملة كثيرة من الذهب، وألزمه أن لا يبيع فيما طلب منه،
شيئاً من خيله وسلاحه ولا من عدة الإمرة ورختها، وأنه لا يحمل المطلوب منه إلا عيناً،
ففعل ذلك. وبلغ السلطان، أن الأمير علم الدين قد ظلم الناس وصادرهم، وأن في اعتقاله
جماعة كثيرة، قد مرّ عليهم شهور وسنون، وباعوا موجودهم، وصرفوه في أجرة المترسمين
عليهم. واحتاج بعضهم الى أن استعطى من الناس بالأوراق.
فرسم السلطان للأمير بهاء
الدين بُعدي الدوادار، أن يكشف أمر المصادرين، ويطالع السلطان به. فخرج إليهم
وسألهم، فذكروا ما هم فيه من الضرورة والفاقة، فأعلم السلطان بخبرهم. فرسم للأمير
حسام الدين طرنطاي بالكشف عنهم، فأفرج عن جميعهم. ثم أفرج عن الأمير علم الدين

في يوم الأربعاء، تاسع شهر ربيع الآخر من السنة.
ولما عزل السلطان الأمير علم الدين عن الوزارة، فوضها السلطان للأمير بدر الدين بيدرا،
في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأول في السنة. ثم فوضت الوزارة لقاضي القضاة، تقي
الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز، في يوم الخميس التاسع عشر من شهر ربيع الآخر،
مضافة إلى ما بيده من قضاء القضاة، ونظر الخزائن. ولم يترك نظر الخزانة، فربما جلس في
اليوم الواحد في دست الوزارة، ومجلس الحكم، وديوان الخزانة. واستمر على ذلك مدة
يسيرة، ولم يوف منصب الوزارة حقه العادي، لتمسكه بظاهر الشرع الشريف. ثم توفر من